انقلاب
روان محمد بركات

انقلاب

روان محمد بركات

المقدمة

أسئلة تخشى أن تعرف إجاباتها، وإجابات تؤمن بمصداقيتها فتبدأ حياتها تتعرض لانقلاب هائل بدون أي أدلة.

فقط كلماتها أمام سطوتهم، فهل تنجح في مسعاها أم إنها كانت تُجيب على الأسئلة الخاطئة منذ البداية؟!

الفصل الأول

كانت ليلة باردة من ليالي الشتاء في الإسكندرية، الشوارع خالية من المارة في تلك الساعة المتأخرة بينما المتاجر فقد أوصدت أبوابها فالمجنون وحده من يخرج من منزله في ليلة كهذه.

نسمات الهواء البارد اشتدت ليرتجف العسكري الواقف في مكانه أمام قسم الشرطة، تثاءب قليلا وبدا عليه الملل فقد مر على استلام ورديته بضعة ساعات، نفض الاسترخاء عنه وانتبهت حواسه بشدة عندما انصت إلى خطوات مقتربة ببطء، قبض على سلاحه بقوة استعدادا لاستخدامه إذا تطلب الأمر، اقتربت الخطوات ليتنهد في ارتياح ويترك سلاحه متخليًا عن تأهبه وقد سقط الضوء على صاحبة الخطوات؛ فتاة قصيرة بمعطف طويل يخفي جسدها بأكمله، وشعر معقود بعشوائية فوق رأسها، وكأنها كانت على عجل أثناء تصفيفه، ما أن اقتربت منه حتى استطاع رؤية وجهها الشاحب تمامًا والنظرة الفارغة في عينيها.

بدأت تتململ تحت تأثير نظراته المتفحصة وتحديقه بها وتساءلت بصوت ضعيف النبرات:-

-أرغب في الإبلاغ عن أحدهم، أين يجب أن أذهب؟

أجاب في روتينية:-

-مكتب الضابط المسؤول أول مكتب على اليمين.

شكرته وتابعت طريقها وفقًا لإرشاداته تحت نظراته المتتبعة ثم سرعان ما عاد إلى مهمته متناسيًا تمامًا قصة الفتاة فتلك ليست المرة الأولى التي يرى بها فتيات يسرعن إلى القسم في وقت متأخر خاصة بعد انتشار حالات العنف الأسري.

***

راقب خروجها بعد وقت طويل بينما تسير على غير هدى كسفينة في ليلة عاصفة لا تعرف أين مرساها. وصلت أمام الشاطئ تتأمل البحر الهائج بينما قطرات المطر تتساقط لتمتزج عذوبتها مع ملوحة عبراتها، وتبدأ الصور تتلاحق في ذهنها منذ بداية تقليدية ليوم عادي في حياتها إلى نهاية مفجعة دمرت كل آمالها في حياة جيدة.

***

"شيماء! اللعنة عليكِ استيقظي حالا، وإلا..."

ترك كلماته التهديدية معلقة في الهواء، فلم يكن بحاجة للمتابعة فهي تدرك تمامًا إنه لا ينطق الكلام عبثًا. تركت فراشها تتذمر بحنق بالغ، وخرجت من الغرفة بأعين ناعسة مقطبة الجبين في ضيق بينما شعرها فقد كان كقومة من القش فوق رأسها لتجده كالمعتاد يجلس على تلك الأريكة، فهو لا يتزحزح من فوقها أغلب الوقت، كان غليظ الملامح لا يختلف تمامًا عن أي قاطع طريق ولعل أكثر الأسئلة التي تدور في عقلها هي كيف إنهما قد جاءا من بطن واحدة، أمعقول إنهما شقيقان؟!

لوت فمها في استنكار فربما سوف تظل تشكك في تلك الحقيقة مدى الحياة، انتبهت إلى صوته الفظ قائلا:-

-أستستمرين في تأملي اليوم بأكمله، فلتذهبي لإعداد الطعام؟!

اتجهت إلى المطبخ الصغير، الذي لا يكفي لأكثر من شخص، وقفت أمام الحوض لدقائق صامتة تتنهد في إرهاق ثم بدأت في إعداد الطعام بينما ذهنها يرسم لها صورة أفضل لمستقبلها بعدما تنتهي من تجميع المال الكافي لشراء شقة والهرب بعيدًا عن ذلك المنزل وذلك المتسول الذي لا ينفك يؤذيها دائمًا وكأنه يجد متعة سادية في تحطيمها.

وضعت الأطباق في صمت أمامه، والتفتت لتعود إلى غرفتها، والتي تشغل مكانًا صغيرًا بجوار المطبخ، توقفت عندما ارتفع صوته قائلا في صرامة:-

- فلتذهبي إلى عملكِ الآن، فأنا لن أتحمل مصاريف معيشتك.

ابتسمت بسخرية تتناقض مع تلك العبرات في مقلتيها، فكم أثارت سخطها كلماته فقد دفعها لتعمل موضحًا بصدق إنه لا يهتم بنوع العمل ما دام يدر ربحًا، ولم يكتفي بهذا فقد أجبرها على ترك جامعتها برغم أنها كانت في نهاية عامها الأول حينها.

كان هزالها واضحًا في تنورتها البالية بينما بلوزتها فقد كانت طراز قديم للغاية، عند التفكير في الأمر هي لا تتذكر متى كانت آخر مرة ابتاعت ثيابًا جديدة كقريناتها من فتيات العشرينات، لقد بدا إن آخر طقم جديد استضافته

خزانتها كان منذ دهر، جمعت شعرها في كعكة فوق رأسها ورغم بساطة منظرها وشحوبها إلا إن عينيها حملتا بعض القوة التي لم يستطيع الزمن القضاء عليها.

دلفت إلى المول الواسع الذي تعمل في إحدى محلاته، وكان من حسن حظها إنها تعمل في محل للملابس النسائية مما يقلل من تعاملاتها مع الرجال فلا تتعرض لأي مضايقات.

***

- عُدّيّ!

ردد "حسن" ندائه عندما لم يتلقى أي استجابة في المرة الأولى، وقد بدا صديقه منهمكًا تمامًا في متابعة كل فتاة تمر بجواره.

رد " عُدّيّ" أخيرًا بنفاذ صبر بدون أن يستطيع أن يبعد عينيه عن تلك الجميلة التي تقف أمام إحدى المحلات على الجانب الآخر:-

- توقف عن إزعاجي، ماذا تريد الآن؟!

قال "حسن" بلهفة بينما يجذبه في اتجاه أحد المحلات:-

-انظر إلى تلك الفتاة فقط.

الإشارة إلى فتاةٍ هي كلمة السر التي تستطيع أن تجذب انتباهه مهما كانت انشغالاته، فالتفت إلى حيث أشار صديقه ليجد فتاة تعمل في أحد المحلات كاد

أن يلتفت ليوبخه على انحدار ذوقه، ولكنه تمعن النظر فيها قليلا ربما كانت بعيدة تمامًا عن معاييره للجمال، ولكن ابتسامتها البسيطة بينما تودع إحدى زبائنها دعته إلى أن يقترب أكثر. دلف إلى داخل المتجر بدون أن ينبس ببنت شفة بينما يتبعه "حسن" والذي ندم إنه أخبره عن تلك الفتاة التي جذبته بساطتها بطريقة غريبة، تنهد فقد أصبح واثقًا الآن إنه سوف يقع في المتاعب بسببه كالمعتاد.

لم يبالي "عُدّيّ" بنظرات النسوة من حوله، فليس من المعتاد أن يدلف شابًا إلى مكان أغلب معروضاته غلالات النوم، تجول في المحل يسرق نظرات إليها بين الحين والآخر حتى انتهت تمامًا من الزبائن، وأصبح المحل خاليًا إلا منهما.

قالت بنبرة عملية وابتسامة باردة على شفتيها لم تصل إلى عينيها:-

-تحت أمرك يا فندم.

أشار إلى إحدى المعروضات قائلا بدون أن يبعد عينيه عنها:-

-فلتحضري لي هذا.

أحضرت له طلبه، والذي لم يكن إلا غلالة فاضحة، ولكنها لم تشعر بالفضول فربما يرغب في شرائها لزوجته، تساءلت بروتينية:-

-أوامر أخرى يا فندم؟

تظاهر بالتفكير قائلا:-

-أمم...لا أعرف إذا كان مناسبًا أم لا

أردف غامزًا إياها بوقاحة:-

- فماذا عن أن ترتديه من أجلي؟!

استطرد ببراءة مصطنعة:-

-لأتأكد من كونه مناسبًا فقط.

شهقت من وقاحته، ولكنها ابتسمت ببرود وتساءلت بهدوء، وكأنها تمنحه فرصة ليغير كلماته قبل أن يصبح الوقت لا يسمح بأي ندم:-

-ترغب في أن أرتديه، أليس كذلك؟

أومأ مبتسمًا في عبث بينما "حسن" فقد اكتفى بالمتابعة في صمت، غير راضي عما يحدث، ولكنه يدرك أن صديقه لم يعتاد الرفض جوابًا، ومما ساهم في غروره تهافت الفتيات عليه كما تنجذب الفراشات إلى النار فيشعر بالرضى لسقوطهن أمامه ثم يبتعد تمامًا وكأنه قد شعر بالاكتفاء أو إنه يبحث في استماتة عن واحدة بعينها بينهن.

تابع باهتمام بالغ عندما اقتربت الفتاة من "عُدّيّ"، وأحاطت وجهه بكفيها ليدرك إنه انتصار أخر يُضم إلى قائمته، ليشهق بصدمة واتسعت حدقتيه وهو يتأمل عُدّيّ ينحني متألمًا بفعل اصطدام رأس الفتاة برأسه بقوة بينما هي فلم يبدو عليها أي تأثر.

تراجع في عنف، وقال بحدة بالغة:-

-هل فقدتِ عقلكِ؟!

لم يجد لكلماته صدى إلا ابتسامة باردة ارتسمت فوق ثغرها وقالت ببرود بينما تعقد ساعديها أمام صدرها:-

- أنت لم تعرف بعد المعنى الحقيقي للجنون.

أعقبت كلماتها بأن نزعت حذائها في خفة، وبدأت تنهال عليه بالضربات، ولعل ذهوله البالغ كان في صالحها فقد كان يتلقى صفعات حذائها متألمًا

مشدوهًا بقوة مما يحدث بينما الجميع في هذا الطابق فقد اجتمعوا في فضول أمام المتجر يتابعون ما يحدث في شغف.

لم يكن "حسن" أقل صدمة من صديقه فقد كان يراقب المشهد بعدم تصديق حتى انتفض من مكانه عندما ارتفع صوت صديقه يستنجد به فلم يعد يستطيع أن يدافع عن نفسه أمام تلاحق الضربات وكأنها وُلدت محاربة لا بائعة في متجر.

تقدم سريعًا ليدافع عنه، ولكنه امتنع عن التقدم أكثر عندما التفتت إليه، وقد بدت كمشعوذة مخيفة بتساقط شعرها بعشوائية حول وجهها، ولوحت بحذائها في حركة تهديدية قائلة في تحذير:-

-إذا لم تكن ترغب في أن تصبح مكانه الآن فلتتراجع.

ازدرد لعابه في خوف، وتراجع أمام نظراتها الغاضبة. استغل "عُدّيّ" انشغالها، وركض سريعًا إلى الخارج، ولكن كبريائه المجروح، وكرامته التي تناثرت كالغبار دفعته إلى التوقف والصياح بنبرات غاضبة للغاية، وبتهديد لا يمكن التشكيك في صدقه:-

- "عُدّيّ الحداد" فلتحفري ذلك الاسم في ذاكرتكِ؛ لأني سوف أحرص على أن تدفعي الثمن غاليًا.

التقطت حذائها مرة أخرى بدون أن يرجف لها رمش من تهديده، وهتفت في سخرية:-

-من الواضح أن تلك الضربات لم تكن كافية.

أسرع في المغادرة فيكفي ما سببته له من إهانات، ومن حسن حظها إنه يملك القليل من الأخلاق مما يمنعه من ضرب فتاة حتى وإن كانت وقحة مثلها.
دلف إلى داخل سيارته يغلي من الغضب وكأنه بركان على شفير الانفجار في أي لحظة مما دفع حسن الذي لحق به إلى أن يجلس بجواره في صمت خوفًا من أن ينصب عليه ذلك الغضب.

ألتقط عُدّيّ هاتفه واتصل بأحدهم، وضع سماعة البلوتوث في أذنه بينما يبدأ في قيادة سيارته وعيناه لا تحيد عن الطريق أمامه، وما أن رد الطرف الآخر حتى صاح بلهجة آمرة:-

-أرغب في معرفة ما يمكن أن تحصله من معلومات عن تلك الفتاة التي تعمل في محل للملابس النسائية في الدور الثاني في مول الشروق، مفهوم؟

أردف بينما اشتدت قبضته على عجلة القيادة في عنف:-

- كما يجب أن تتابع شبكات الإنترنت لرؤية إذا كان هناك أي صور نُشرت عني، فلتحذفها وإن تطلب الأمر مقاضاة الجميع.

صمت قليلا ولم يبدو على وجهه إن الرد قد راق له فقد قال في غضب:-

- ليس من شأنك أن تعرف طبيعية تلك الصور، ولكن تذكر جيدًا إذا نُشرت أي من تلك الصور في أي مكان سوف احرص على إنهاء حياتك العملية في الشركة.

أنهي الاتصال وألقى السماعة جانبًا ثم اشتد ضغطه على دواسة البنزين، وأخذت السرعة تزداد بطريقة مُخيفة ولكنه لم يكن مباليًا فلم يكن حقيقةً يرى الطريق أمامه بل كان مشهد إذلاله يتكرر أمامه مرة تلو الأخرى حتى تمتم بجنون:-

- سوف أقتلها، أقسم أن أمزقها أربًا وأقتلها.

ارتفع صوت حسن ، وقد كان قد نسي أمره تمامًا، قائلا بنبرات خائفة:-

-عدي! فلتبطأ السرعة قبل أن تتسبب في مقتلنا نحن.

لم يبدو على ملامحه أي رد فعل، أو إنه قد سمعه، ولم تمر ثواني حتى أوقف السيارة تمامًا، وبدون أن يلتفت إليه قال في إيجاز وبنبرة فاترة:-

-اذهب.

لم يكن بحاجة إلى تكرارها فقد انتهزحسن تلك الفرصة الثمينة للحفاظ على حياته، وترجل سريعًا لينطلق عدي بسيارته بسرعة بالغة في سباق مع الرياح.

بعد دقائق قليلة أوقف عُدّيّ السيارة أمام منزله، ودلف إلى الداخل من خلال الباب الخلفي لتلك الفيلا العريقة، شهقت الخادمة فزعة عندما وجدت باب الخدم يُفتح فجأة وإذا بعُدّيّ يدلف إلى الداخل، وهيئته غير مرتبه وهناك جروح على وجهه ،أشار إليها أن تصمت بينما تابعت هي تأمله في ذهول ثم همس بتساؤل:-

- والدتي في غرفتها أم مع جدتي في الأسفل؟

ردت الخادمة في احترام:-

- أستاذة مريم تجلس في الأسفل مع الهانم الكبيرة.

أومأ عُدّيّ وتسلل إلى الدرج متجهًا إلى غرفته، ارتفع صوت من الطابق السفلي فأقترب قليلا من الحافة ليسمع ما يُقال، ولكن سرعان ما فقد اهتمامه عندما وجد الأمر لا يتعدى ما يحدث يوميًا، اتجه إلى غرفته سريعًا شاعرًا

بالشفقة تجاه ابن عمه الأكبر "أدهم" الذي يتحمل تلك الأحاديث المبطنة بالإهانات يوميًا في سبيل حبه لتلك العائلة.

تنهد في ارتياح بالغ وتمتم بخفوت:-

-حمدا لله إن المدللة "أميرة" لم تلمحني، وإلا اقسم إن المنزل بأكمله كان سيعرف.

اتجه إلى الحمام الملحق بالغرفة يتفحص وجهه في المرآة، شعره قصير يجمع بين الخشونة والنعومة مبعثرة خصلاته فوق جبهته بعشوائية لذيذة، أعين خضراء ورثها عن والده وجده من قبله، شفاه غليظة تضفي إلى وسامته لمسة رجولية ولكنها الآن مشوهة بسبب الجرح بجوار فمه بينما وجنته يزينها كدمة ضخمة أما سائر جسده فقد كان يئن من ألم ضرباتها، أخرج صندوق الإسعافات الأولية وبدأ في معالجة وجهه حتى لا تترك تلك الإصابات علامات تشوه وجهه الوسيم.

بعدما انتهى من معالجة جروحه تأمل اللاصق الطبي بجوار شفتيه والمرهم فوق وجنته اشتعلت نيران الغضب في نظراته وتجهمت ملامحه متمتمًا في حنق بالغ:-

- سوف أجعلكِ تدفعين الثمن.

بينما في الطابق السفلي فقد كانت مريم والدة "عُدّيّ" تحتضن أدهم، ابنها البكر كما تحب أن تدعوه، وقالت بنبرات معاتبة:-

-أيجب أن أحدد موعدًا للقائك يا أدهم، فأنا لا أراك أبدًا إلا وقت الطعام، وهذا أيضًا قليلا ما يحدث.

انحنى بجذعه تجاهها مقبلا رأسها ثم قال بنبرة معتذرة:-

-أعتذر يا عمتي العزيزة، ولكنكِ تعرفين تراكم الأعمال تجعلني منشغلا للغاية.

ابتسمت بحنان ولانت ملامحها سريعًا وكأنها لا تستطيع البقاء غاضبة منه وربتت فوق كتفه برفق قائلة:-

-أدرك ذلك يا بني، فليصحبك النجاح دائمًا. لكم أتمنى أن يصبح "عدي" مثلك يومًا ما.

ابتسم لها في امتنان ثم رد مطمئنًا إياها:-

-سوف يصبح أفضل بكثير، فقط يتم دراسته ويصبح محاميًا للشركة وحينها سوف يدفعه العمل إلى النضوج سريعًا.

ابتسمت بلطف، وقبل أن تجيبه ارتفع صوتٌ ماكرٌ من خلفها:-

-فلتتوقفي عن إعطاء الأمور أكثر من قيمتها يا عزيزتي "مريم"، فتلك أموال أبنائنا التي يرعاها.

عقد أدهم حاجيه بضيق بينما يرمق عمته في حنق شديد، استرخى قليلا عندما لامست عمته مريم كفه واخفض رأسه إليها يقابل نظراتها المتوسلة

بألا يشتبك مع زوجة عمه "ناهد"، والتي لا يسلم أبدًا من لسانها اللاذع وكلماتها التي تقذفها مثل رصاص حي.

قالت مريم بضيق:-

-لا تنسي يا ناهد إن أدهم يعمل في شركته الخاص الآن أي لا علاقة له بأموال أبنائنا.

جلست ناهد في استرخاء ومسدت خصلات شعرها التي أنهكته الصبغات وقالت بينما ترمق أدهم بنظرات خبيثة:-

-ربما تكون من أمواله...

استطردت بينما ترفع كتفيها في استهجان:-

-من يعرف؟!

ضم قبضتيه بعنف لتلك الإهانة والتلميح الواضح في كلماتها، ورغم اعتياده على لسانها الوقح بالأخص تجاهه؛ كونه الحفيد الأكبر في العائلة، وأول من شق طريقه في عمل العائلة حتى جاء الوقت الذي استطاع فيه الاستقلال بشركته الخاصة بمساعدة والده ونصيبه من تركة جده صانعًا اسم لنفسه وهو مازال في الخامسة والعشرين من عمره..

تجاهل كلماتها وقال:-

-سوف أصعد لرؤية "عدي".

أومأت مريم بينما ترمق ناهد بضيق لتتجاهل الأخيرة نظراتها في برود شديد، وما أن اختفى أدهم من أمامهن حتى قالت الجدة معاتبة:-

-ألن تتوقفي عن تلك الكلمات التي تلقيها بدون أي تفكير؟

ردت ناهد ببرود بينما ترمق الجدة بتحدي سافر:-

-لن أتوقف أبدًا حتى يتحقق ما أريده؛ أن تُوزع التركة وأحصل مع بناتي على نصيبنا.

ألقت كلماتها ثم اتجهت إلى الدرج حيث تقع غرفتها في الطابق الثالث.

***

ظل عُدّيّ أمام المرآة ينعى جماله، ووسامة وجهه حتى اتسعت حدقتيه ذعرًا وانتفض عندما سمع صوت ابن عمه الكبير"أدهم"، أسرع إلى باب غرفته وأطل برأسه إلى الخارج ليجد أدهم يتحدث مع شقيقته أميرة، واستطاع أن يسمع صوته قائلا:-

-كيف حالكِ يا ابنة العم الصغيرة؟

زمت شفتيها وأجابت تعاتبه:-

-الآن تذكرت إن لديك ابنة عم يا أدهم؟!

عكست نظراته اعتذارًا صامتًا وأجاب بنبرة لطيفة:-

-سامحيني يا صغيرة، فالعمل قد أنهكني كثيرًا، ولم أملك وقتًا لأتنفس.

عقدت ساعديها أمام صدرها وحركت رأسها في حزن مصطنع:-

-أبدًا، لن أسامحك بتلك السهولة.

ابتسم أدهم ثم أخرج عبوة شيكولاتة من معطفه لتنتفض وتنسى تلك الكلمات التي ألقتها منذ قليل وكأنها لم تكن، خطفتها من بين يديه صائحة في سعادة:-

-لا داعي إلى الاعتذار يا ابن العم الوسيم.

ذهبت سريعًا إلى غرفتها حتى تنفرد بالحلوى المفضلة لديها، تلحقها ضحكات أدهم فتزيد من جمال ملامحه الرجولية وتزيد من وسامته، فتلك هي الفتاة الوحيدة التي من السهل مراضاتها.

أغلق عُدّيّ الباب سريعًا عندما اتجه أدهم نحو غرفته، أخذ يتلفت من حوله متمتمًا في ذعر:-

-ما الواجب فعله الآن؟ فإذا رأى وجهي سوف يصمم على معرفة الحقيقة، وعندما يعرفها سوف يكون عقابي عسيرًا لعدم ذهابي إلى الجامعة.

نظر في رعب إلى حركة مقبض الباب، فاندفع إلى الفراش واختفى أسفل الغطاء حتى لا يظهر من جسمه شيء.

دلف أدهم إلى داخل الغرفة بعدما دق الباب، ظهر التعجب على ملامحه عندما وجد عُدّيّ نائمًا فتلك ليست بعادته فغالبًا يكون آخر من يخلد إلى النوم في هذا المنزل.

شعر بالقلق أيمكن أن يكون مريضًا؟!

اقترب من الفراش وجلس بجواره هامسًا في خفوت حتى لا يزعجه:-

-عُدّيّ!

رد عُدّيّ بصوت ناعس أجاد تزيفه:-

- ماذا؟!

تساءل في قلق:-

-هل أنت بخير؟

-بخير، فقط أرغب في النوم.

أومأ أدهم ثم قال :-

-حسنا، ولكن إن شعرت بالتعب بعد أن تستيقظ سوف أصطحبك بنفسي إلى الطبيب.

اتجه أدهم إلى باب الغرفة مغادرًا ليتوقف فجأة ثم نظر إلى نهاية الفراش حيث ظهر بوضوح حذاء عُدّيّ والذي قد غفل عن نزعه أواخفاءه، عاد ببصره إلى رأس عُدّيّ المُغطى والذي مازال يدعي النوم، عقد ساعديه أمام صدره محركًا رأسه علامة على يأسه من هذا الشاب، فالله يعلم أي مأزق قد أوقع نفسه به الآن حتى يمارس تلك الحيلة معه.

قال أدهم وكأنه يخاطب أحدهم:-

-للأسف عدي نائم، فلتخبرها إنه لن يستطيع لقائها الآن.

انتفض عُدّيّ سريعًا عندما سمع صيغة المؤنث، فتاء التأنيث هي نقطة ضعفه الوحيدة التي يخر لها راكعًا مهما كانت انشغالاته، فشعاره دومًا "كل شيء يمكن أن ينتظر إلا امرأة جميلة"، ترك الفراش في حركة واحدة وصاح في انفعال بدون أن يفكر في السبب الذي قد يدفع فتاة إلى زيارته في منزله:-

-بالطبع أستطيع لقائها وإن كنت أحتضر.

صمت فجأة عندما قابله باب غرفته المغلق، وأدهم يقف مستندًا عليه عاقدًا ساعديه أمام صدره، وينظر إليه في تهكم واضح.

ازدرد لعابه في توتر وقال بتلعثم:-

- ابن عمي العزيز، أنا..لقد كنت فقط..أعني...

قاطعه أدهم قائلا بسخرية بينما يتأمل وجهه:-

-بالطبع سوف تخبرني إنك قد سقطت من فوق الدرج، أو ربمًا فتاة قد ضايقها مجموعة من الشباب فتقدمت لمساعدتها كالمعتاد.

صاح عُدّيّ وقد منحه ذلك القصة المناسبة:-

-إنك على حق بالفعل، وكما تعرف إنه ليس من شيم الرجال ترك فتاة في محنة.

أردف بحماس بدون أن يلاحظ تعابير الاستهجان المرتسمة على ملامح أدهم:-

- إذا كنت موجودًا لأصابك الفخر وأنا ألقي اللكمات هنا وهناك، أربعة منهم وأنا فقط ولكني لم أتزحزح وجذبت الفتاة خلفي لتحظى بحمايتي.

جلس أدهم في استرخاء على حافة الفراش، وحثه على المتابعة قائلا بنبرة ساخرة:-

-فلتتابع، ماذا حدث بعد ذلك؟!

أردف عُدّيّ بنبرة مقنعة:-

-أصابت لكمتي وجه الأول وحاول الثاني أن يعيقني ولكني عاجلته بركلة قوية.

كان يصاحب كلامه بتمثيل المشهد حتى يقنع أدهم، ثم قال في تباهي:-

-أنهيتهم جميعًا حتى سقطوا أسفل قدمي في إنهاك...

أشار إلى وجهه وجسده مستطردًا في فخر:-

-ما تراه من إصابات في وجهي لا شيء مقارنة بما أحدثته بهم.

نهض أدهم ببطء دون أن ينبس ببنت شفة واقترب منه مما أصاب عدي بالتوتر وبدأ يتجنب النظر إليه في ارتباك متسائلا إذا لم يبدو مقنعًا بالدرجة

التي أرادها. تأوه عندما انطلق كف أدهم صافعًا إياه على مؤخرة رأسه يتبعها بجذب أذنه ليصيح متألمًا:-

-فلتترك أذني يا أدهم، أهكذا تكافئني بعدما أنقذت الفتاة المسكينة واعتبرتها كأخت لي...

قال أدهم ساخرًا:-

-هل من المفترض أن أصدق تلك الحكاية الظريفة؟!

أردف بحدة:-

-أتراني أبلهًا؟!

أجاب عُدّيّ سريعًا:-

- بالطبع لا، من يجرؤ على نعتك بتلك الصفة، فقط دع أذني التي تكاد تُقتلع بفضل يديك، وسوف أخبرك بكل شيء.

تركه أدهم أخيرًا ثم قال مخمنًا:-

-هل غازلت امرأة متزوجة وضربك زوجها كما حدث سابقًا؟

توقف عُدّيّ عن تمسيد أذنه وأجاب في اختصار وبنبرة تقطر ضيقًا:-

-يا ليت.

-هل كان شقيق فتاة غازلتها كما حدث في المرة قبل السابقة؟

حرك عُدّيّ رأسه رافضًا ثم قال بخفوت وضيق وهو لا يستطيع مواجهة نظرات أدهم:-

-لقد كانت فتاة تعمل في متجر...

أردف صائحًا في غضب وقد احمر وجهه:-

-ولكن أقسم على أن أجعلها تدفع ثمن ما فعلته غاليًا.

صمت أدهم قليلا في صدمة وارتسم الذهول على ملامحه ثم تساءل:-

-هل تقول إن فتاة من فعلت بك هذا؟!

صاح عُدّيّ في غيظ بينما يرمقه بنظرات تقطر شزرًا:-

- يمكنك الضحك إذا أردت.

أعاد أدهم رأسه إلى الخلف وأرعد ضاحكًا في استمتاع واضح. مر القليل من الوقت حتى هدأت قهقهاته واستطاع أن ينطق قائلا في إعجاب لم يستطيع إخفائه:-

-فتاة قوية، لا يمكن أن أنكر إعجابي بما فعلته ولا بد أن أشكرها.

قال عُدّيّ متهكمًا:-

- كم أنت رائع يا ابن العم، فعيناك تقطر إعجابًا بها بدلا من أن تبحث عنها لتجعلها تدفع ثمن ما فعلته.

لوى ثغره في سخرية وقال بتهكم مماثل:-

-أتريد أن تقنعني إنها ضربتك بدون أي سبب واضح؟

تحمم عدي في خجل أمام نظرات أدهم التي أوضحت بوضوح إنه يعرف جيدًا ما الذي دفع فتاة لفعل هذا به، وبالطبع قد أعجبه الأمر كثيرًا.

ترك أدهم الموضوع ثم تساءل في اهتمام:-

-ما أخبارك مع الدراسة؟

توترت ملامح عُدّيّ فبالطبع لن يخبره أنه لا يتذكر شكل المدرج، وإنه لا يثير اهتمامه في تلك الكلية إلا الفتيات وذلك في المرات القليلة التي ذهب فيها إلى هناك، لذلك فقد أجاب بينما يتجنب مجابهة نظراته:-

-بخير.

رمقه في شك ثم تجلى القلق على ملامحه الوسيمة قائلا:-

-عُدّيّ، أنت تثير قلقي بصمتك المريب هذا.

أردف بجدية:-

-إنه عامك الأخير، ولقد أصبحت في الثلاثة والعشرين من عمرك ولم تتخرج بعد من كلية الحقوق بينما دفعتك فقد...

قال عدي في ذات اللحظة متابعًا حديثه:-

-دفعتك قد تخرجوا وأصبح لهم عملهم الخاص.

أردف غامزًا إياه في مشاكسة:-

-لقد حفظت جيدًا، أليس كذلك؟

زفر أدهم بينما يرمق ابن عمه العابث في ضيق، فهو أكثر الناس علمًا بمدى ذكائه والنجاح الذي يستطيع تحقيقه إذا اجتهد قليلا.

انتزعه من شروده صوت عدي مداعبًا:-

-هل أنا وسيم إلى تلك الدرجة لتظل محملقًا بوجهي يا ابن العم؟!

تحرك عدي راكضًا وصوت ضحكاته يعلو بينما أدهم يطارده في الدهليز، وكأنما قد عادا أطفالا مرة أخرى.

خرجت أميرة من غرفتها المجاورة لغرفة عُدّيّ عندما سمعت صياح أدهم، ابتسمت في ذهول عندما وجدت عدي يركض في اتجاهها ثم جعلها حائلا بينه وأدهم.

توسل بنبرات مشبعة بالمرح قائلا:-

- يا أدهم ليس ذنبي إني قد وُلدت على ذلك القدر من الوسامة .

احمر وجهه في حنق وقال متوعدًا:-

-هل تظن إنك باختبائك خلفها لن أستطيع إمساكك؟

انطلقت ضحكات أميرة لرؤيتهما يتصرفان كالأطفال، وتساءلت:-

- ماذا فعلت هذه المرة يا عدي؟

قال عُدّيّ بدون أن يترك مخبأه خلف جسدها الضئيل:-

-سوف أخبركِ لاحقًا يا عزيزتي، فقط احميني منه.

كادت أميرة أن تتحدث لتحل الأمر، ولكنها شهقت عندما أحاطتها ذراعيه وحملها إلى الجانب الآخر وكأنها لا تزن شيئًا، وتابع ركضه خلف عُدّيّ الذي اتخذ الدرج ركضًا إلى الطابق الأرضي بينما أميرة فقد ظلت في مكانها جاحظة العينين في ذهول، كفها فوق صدرها حيث يقبع قلبها الذي ارتفعت دقاته في عنف، يتوسلها أن ترحمه من عنف تلك المشاعر التي اجتاحتها فجأة، والتي يعاصرها جسدها البالغ من العمر التاسعة عشر لأول مرة، وضعت كفها الآخر بدون وعي على خصرها حيث لامستها يد أدهم، أحمر وجهها خجلا عندما أعادت مشهد حمله لها مرة أخرى ثم دلفت إلى غرفتها وابتسامة تائهة فوق ثغرها، وقد تناست تمامًا شقيقها الذي على وشك أن يُضرب.

ظهر القلق على ملامح مريم عندما وجدت عُدّيّ يهبط الدرج راكضًا، حتى إنه قفز الدرجات المتبقية في قفزة واحدة، ثم ظهر على محياها الفهم والإدراك ولم تستطيع منع تلك الابتسامة المرحة التي اعتلت ثغرها عندما وجدت أدهم في أعقاب ابنها فيبدو إن عُدّيّ قد مارس مشاكساته عليه مرة أخرى.

توقف عدي وانحنى في إرهاق ثم قال في توسل وقد تثاقلت أنفاسه:-

-فلتتوقف قليلا يا رجل فصحتي لا تتحمل كل ذلك المجهود.

قال أدهم بغضب:-

- لن أدعك وشأنك اليوم يا عدي، فتلك نهايتك معي.

اعتدل متراجعًا، وقد رفع يديه أمامه في حركة مستسلمة، وصاح متوسلا:-

-فلتتصرفي يا أمي بدلا من الاكتفاء بمشاهدة ابنك يُقتل.

قالت مريم في استرخاء بدون أن تتحرك قيد أنملة:-

-ليس من شأني، فلتحلوا مشاكلكما معًا.

قال عُدّيّ بغيظ:-

-لن أنسى لكِ هذا الموقف يا مريم.

جذبه أدهم من قميصه قائلا بحنق:-

-فلتخبرني الآن ماذا أفعل بك؟

ابتسم عدي غامزًا إياه في عبث:-

-اعترف يا ابن العم فأنت تحبني، ولذلك لا تستطيع أن تفعل أي شيء.

لم يستطع منع نفسه من الابتسام وتركه ليقول عدي في تباهي:-

-ألم أخبرك إني عدي الحداد الذي لا مثيل له.

قالت مريم بحزم عندما لاحظت وجه عُدّيّ، فلم يكن بجديد أن يعود وعلامات الضرب واضحة على وجهه:-

- إذًا يا عدي الحداد، ما سبب تلك الإصابات على وجهك؟

تحمم في ارتباك ثم قال بينما يتأهب للهرب سريعًا:-

-فلتسألي أدهم، فأنا لدي موعد.

أسرع راكضًا إلى غرفته تاركًا أدهم يبرر لوالدته كالمعتاد، تذمر بينما يدلف إلى داخل غرفته فمن المفترض أنهما قد اعتادا عليه فلماذا كل مرة يسترسلون في أسئلتهم التي لا تنتهي والتي من المؤكد يعرفون إجابتها؟!

إذا كان فن مغازلة الفتيات منهجًا لكان الأول بكل جدارة ولكنهم فقط يدرسون في الجامعات تلك المواد عديمة الفائدة فلا عجب إذًا أن يعيد عامه الأخير في الكلية مرتين بل إنها لمعجزة إنه قد وصل إلى سنته الأخيرة.

استلقى فوق فراشه مستسلمًا للنعاس وقد أصابه الإرهاق من أحداث اليوم، وتكون أخر صورة رسمها خياله هي انتقامه من تلك الفتاة.

***

ابتسمت الجدة بحنان بعدما اختفى عدي صاعدًا إلى غرفته، وقد دفع مرحه ومشاغبته الذكريات إلى ذهنها فقالت في شرود:-

- عندما أراه أتذكر محمد عندما كان في عمره.

ظهرت الحيرة على ملامح أدهم وتساءل في تعجب:-

- أكان أبي مثل عُدّيّ؟

تنهدت الجدة في ألم، وابتسامة لطيفة شاردة ارتسمت فوق ثغرها تسترجع الماضي وكأنه فيلم يُعرض أمامها:-

-والدك يا أدهم، لم يكن كما تراه الآن بل كان شخصية مختلفة تمامًا، وبرغم إنه أكبر أولادي إلا إنه كان أكثرهم جنونًا ومرحًا، كان خفيف الظل ما أن يعود إلى المنزل حتى تعم الفرحة جميع أرجائه، كان يكره أن يصيب الحزن أي شخص تحت سقف منزله.

تساءل أدهم في حيرة وهو يتخيل تلك الصورة التي ترسمها جدته عن والده، والتي بعيدة كل البعد عن الشخص الذي يعرفه منذ الصغر فوالده شخصية جادة إلى حد كبير، ولا تُرى ابتسامته إلا في المناسبات الخاصة:-

-وماذا حدث يا جدتي ليصبح هذا الشخص الذي هو عليه الآن؟!

تنهدت الجدة وتلاقت عيناها بعيني مريم المحملة بالألم والعبرات السجينة منذ سنوات عديدة ثم قالت في هدوء:-

- إنه القدر يا بني، ولم يملك أحدٌ تغييره.

لم يفهم أدهم شيئًا، ولكنه نظر إلى الساعة حول معصمه ثم قال معتذرًا:-

-يجب أن أغادر الآن فلدي اجتماع هام، وعندما أعود يجب أن نتحدث فيبدو أن هناك الكثير الذي لا أعرفه عن والدي.

قبل جبهة كلا منهما في احترام، وما أن غادر أدهم حتى نهضت مريم تتجه إلى غرفتها وقد أثارت شجونها ذكريات الماضي فلم تحتاج الجدة إلا أن تذكر ذكرى واحدة لتندفع البقية بقوة إلى ذهنها، توقفت عندما قالت الجدة بنبرة حانية:-

- لا تحزني يا مريم، لقد كان نصيبك يا ابنتي، ولعله خيرًا لكِ..

لم تملك مريم الشجاعة لتلتفت إليها وتلك العبرات تغرق وجهها، واكتفت بأن قالت:-

-أدرك ذلك يا أمي، فقط ادعِ لي بأن احتفظ بصبري كما فعلت طيلة السنين السابقة.

دعت الجدة لها بينما تراقبها بأعين حزينة، وحانت منها التفاتة إلى صورة زوجها –رحمه الله- وهمست بأسى:-

-لقد دمرتهم جميعًا بدون أن تقصد، ووقعت تلك الفتاة قربانًا في حرب الشقيقين.

الفصل الثاني

أغلقت شيماء المحل ليلا، شعرت بخطوات خلفها تقترب منها تحفزت كل حواسها والتفتت ببطء ثم تنفست في ارتياح بالغ عندما وجدته مراد، ولم تحتاج إلا إلى نظرة واحدة إلى ملامحه الرجولية وأعينه البنية لتعرف إن الكلام قد نُقل إليه فلا بد أن الفتيات في المحلات المجاورة كن أكثر من سعيدات لاستغلال الفرصة للتحدث معه بعذر إخباره بما فعلته بذلك الوغد اليوم، فما زالت تتذكر أول مرة أوصلها بسيارته إلى العمل جاذبًا الفتيات إلى وسامته وسيارته الأنيقة فيهرعن إليها راغبات في معرفة تفاصيل عنه ولكنها حطمت آمالهن عندما أخبرت مراد ألا يوصلها مجددًا تجنبًا لثرثرة الفتيات وفضولهن.

ابتسمت في توتر تحت تأثير نظراته الحانقة حتى قال في عدم تصديق:-

-أنا حتى الآن لا أستطيع تصديق ما أخبروني به!

أردف في تهكم:-

-ربما يجب أن أسألك يوميًا عن عدد ضحاياكِ بدلا من السؤال عن حالكِ.

تسللت ضحكة من بين شفتيها بسبب علامات السخط على وجهه وقالت ببراءة مصطنعة:-

-لقد كان عديم التهذيب يا مراد، أليس من الواجب علي تربيته من جديد؟

لوى فمه في سخرية ورفع كفه أمام وجهها دلالة على اكتفائه بهذا الحوار فشيماء سوف تجادل إلى ما بعد الأبدية، وقال ساخرًا:-

-فلتربيه يا عزيزتي، هيا نغادر.

تمتمت بضيق بينما تتقدمه:-

-صراحة أنا لا أفهم سر ضيقك!

تأملها قليلا، وحرك رأسه في يأس وسرعان ما ارتسمت ابتسامة لطيفة فوق ثغره، فطباع صديقته الأكثر قربًا إليه من شقيقته الحقيقة لن تتغير أبدًا، قال في مرح:-

-هيا لأعيدكِ إلى المنزل قبل أن تقتلي أحدًا اليوم.

سار خلفها خوفًا من أن يزعجها أحدهم في الطرقات المظلمة، وبعد السير لمدة من الوقت توقفا في حارة متواضعة أمام عمارة متهالكة.

التفتت إليه والامتنان في عينيها قائلة:-

-شكرًا يا مراد على اصطحابك لي يوميًا.

لانت ملامح وجهه، وقال في حنان:-

-لا داعي للشكر أبدًا فأنتِ كـ(منى)أختي الصغرى، والآن فلتصعدي إلى المنزل حتى لا يراكِ أحدٌ معي ويسبب لكِ مشكلة مع شقيقكِ.

أومأت ودلفت إلى داخل تلك العمارة لتتسلل إلى أنفها رائحة المجاري التي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من تلك الحارة، صعدت ببطء خوفًا من أن تقع بسبب الدرجات المتهالكة بشدة.

دلفت إلى داخل المنزل لتصدمها رائحة عطر رجالي ثمين، وجدت شقيقها يجلس وأمامه رجل لم ترى ملامحه حيث كان يعطيها ظهره.

صاح شقيقها بلهفة ما أن رآها:-

-ها قد أتت شيماء.

أردف بنبرة لطيفة مثيرة للريبة:-

-فلترحبي بضيفنا يا شيماء.

تعجبت من أسلوب شقيقها، فتلك المرة الأولى التي يحسن معاملتها ويخاطبها بذلك اللطف الذي أثار حفيظتها، نهض الرجل والتفت إليها لتتأمله قليلا لا تنكر فضولها عن السبب الذي دفع رجلا مثل هذا الشخص، والذي يبدو عليه الثراء الفاحش إلى معرفة شقيقها.

أومأت في تحية صامتة ثم اتجهت إلى غرفتها الصغيرة بدون أن تلاحظ نظرات الشهوة المثيرة للاشمئزاز التي لاحقتها حتى اختفت داخل الغرفة.

ابتسم الرجل ببرود والتفت إلى محمود، أخرج من معطفه كيس أبيض وألقاه باحتقار تحت قدميه، لم يبالي محمود بتلك الإهانة وركع أرضًا يلتقط الكيس

في لهفة ويسكب محتوياته فوق المنضدة، بدأ في استنشاقه ليغيب عن الواقع رويدًا رويدًا، قال الرجل وهو يتأمله في احتقار:-

-أنا بالداخل حتى تنتهي.

أومأ محمود بدون أن يرفع رأسه إليه، نزع معطف بدلته ووضعه بعناية على المقعد الذي كان يجلس عليه، واتجه بخطوات بطيئة كفهد يستعد للهجوم، ولكنه لا يريد التعجل حتى لا تفر فريسته منه.

تنهدت شيماء ما أن دلفت إلى داخل غرفتها، وهي تفكر في ضيق إن الوقت قد تأخر، وذلك الضيف الغريب مازال جالسًا مع شقيقها، وضعت وشاح فوق رأسها رغم عدم كونها محجبة، ولكن هناك شيء في نظرات ذلك الرجل يدفعها إلى التخفي.

فتحت الباب لتشهق وهي تجده أمامها تراجعت سريعًا في توتر، ثم سيطرت على مخاوفها فماذا بإمكانه أن يفعل وشقيقها في الخارج؟!

صاحت في غضب:-

-ماذا تفعل أمام غرفتي ؟

ابتسم في صمت ثم رفع يده وجذب غطاء رأسها، تراجعت إلى الخلف في فزع وقالت في تهديد:-

-أقسم إذا لم تخرج من هنا لأستدعي محمود فيطردك بنفسه.

قرب وشاحها إلى أنفه يستنشق عبيرها، وكأنها مخدرات بالنسبة إليه بدون أن يبالي بتحذيراتها الواهية.

لم تشعر قط بالخوف مثل تلك اللحظة، صاحت في خوف:-

-محمود...

اقترب الرجل منها ببطء تاركًا الوشاح يسقط على الأرض في إهمال، وظهر على ملامحه الاستمتاع بخوفها الواضح، وكأنها تؤجج نيران رغبته بها لا تطفئها.

رفعت كفها بتحذير تمنعه من الاقتراب بينما تستمر في التراجع إلى الخلف بأرجل مرتجفة خائفة، قالت في محاولة لإظهار الشجاعة:-

-ابتعد عني، إنه التحذير الأخير لك.

أردفت صارخة:-

-محمود..محمود أنقذني

جذب يدها بقوة مقربًا إياها إليه حتى التصق جسدها به، أخذت تقاوم بقوة وشراسة بينما الدموع تنهمر في خوف، صاحت في ألم:-

-ابتعد عني أيها الوغد، اللعنة عليك.

كانت تكيل له اللكمات التي لم تؤثر به بتاتًا وكأنها تداعبه بكفها لا تضربه بل تعالت ضحكاته في استمتاع واضح.

دفعها لتقع فوق الفراش، تراجعت زاحفة إلى الخلف، تلقي الوسادة تجاهه وكل ما يقع تحت كفها، ولكنه تجاوزها وضحكاته تتعالى، ألتقط وشاحها مرة أخرى، وجذبها بعنف من شعرها لتتأوه بتوجع بدون أن تتوقف مقاومتها، تحرك جسدها بقوة محاولة أن تبعده عنها بدون جدوى.

ترك شعرها الذي كاد أن يتمزق بين يديه وجذب يديها خلف ظهرها بينما هي ما زالت تقاومه، ولكنه قبض عليها بقوة تقتل مقاومتها وعقد الوشاح بقوة حول رسغيها ثم ألقاها لتسقط على ظهرها فوق الفراش تصرخ بألم ودموعها تغرق وجهها ومازال اسم شقيقها على شفتيها تستجديه لينقذها.

لم يظهر عليه أي تأثر بدموعها التي قد ينصهر الحجر بفعل حرارة آلامها، ولا صرخاتها التي يسمع الصم وجعها، فقط أتجه إلى خزانتها وبدأ يبحث قليلا حتى وجد وشاحًا آخر، وأقترب منها قائلا في تأفف وانزعاج:-

-فلتصمتي أيتها اللعينة قد أزعجني صراخكِ.

تابعت صرخاتها تطلب العون من شقيقها، بدون أن تعرف إنه مستلقي فوق الأريكة في الخارج غائبًا عما حوله، دون أن يفكر لحظة بأن تلك التي يُنتهك شرفها هي عرضه وشرفه.

تحركت بعنف بعدما عقد الوشاح حول فمها قاتلا صرخاتها، كانت تقاتل بشراسة لتدافع عن شرفها وتكيل له الضربات بقدمها، مما كان يزيده استمتاعًا؛ فهو ليس من محبي الأنثى المستكينة بل يعشق ترويضهن.

أوقف تحركاتها بثقل جسده فوقها، حركت رأسها بعيدًا عندما اقترب بوجهه منها محاولا تقبيلها، ظهر الغضب على ملامحه عندما أبعدت وجهها عنه، ليجذب شعرها يوقف حركة رأسها.

أَنَّ متألمًا عندما ضربته بركبتها بين قدميه ونهض من فوقها يلعن، استغلت الوضع لتحاول التحرك رغم صعوبة ذلك لكنه الأمل الوحيد أمامها لتنقذ نفسها، حاولت ترك الفراش، ولكنه كان لها بالمرصاد، فما فعلته لم يزيده إلا غضبًا وإصرارًا على الحصول عليها.

دفعها فوق الفراش وقد بدت ملامحه أكثر وحشية، كانت دموعها تنهمر بدون توقف والرعب متجسد على ملامحها، جذبها من شعرها بعنف وصفعها بقسوة أدمت وجهها قائلا في غضب:-

-فلتهدئي أيتها الفتاة فلقد دفعت مبلغًا من أجل تلك الليلة فدعيها تمر بسلام حتى لا أضطر إلى إيذائكِ.

حركت رأسها، ما زالت تقاوم رغم آلامها، ولكن ليس هناك مفر اتسعت عينيها في ألم ورعب حقيقي والدموع تغرق وجهها ممزوجة بدمائها، صرخات صامتة تظهر في عينيها ترغب في التحرر من بين شفتيها.

تمنت أن يأتيها الموت الآن حتى لا تشعر بتلك اللحظة، أو ربما يشفق عليها فيقتلها دون أن يمسها، لكنه لم يشفق على آلامها والتوسلات الصامتة في عينيها، لم يرحم براءتها متابعًا نزع ثيابه لتشعر بعدها بثقل جسده الفظ فوق جسدها، يداه القذرة تنتزع ثيابها، وشفاهه تعتدي على حرمة جسدها.

مر الوقت طويلا مميتًا عليها، اغتصبها مرارًا وتكرارًا وسط مقاومتها الضعيفة فقد أنهكها القتال وما أن اكتفى نهض من فوقها، يرتدي ثيابه في سعادة وكأن ممارسة سلطته كذكر على تلك الضعيفة كان مصدر شرف وبهجة له.

نزع الوشاح عن يديها الموضوعة خلف ظهرها، ثم تأمل وجهها الفاقد للحياة في شغف، وقال بشهوة كانت لتثير اشمئزازها إن كانت على قيد الحياة لا شبه ميتة:-

-تستحقين كل ما دفعته من أجلكِ.

أردف في غرور:-

-لتدركي إني لا أقبل "لا" كجواب.

طبع قبلة فوق شفتيها ثم غادر، يصفر بلحن شهير بينما هي فلم تتحرك، ولم يرف لها جفن.. فقط متسعة الحدقتين، وكأنها لا تشعر بما حولها، حتى دموعها قد جفت وكأنها تنتظر أن يشفق عليها ملك الموت فيقبض روحها المنتهكة.

بعد فترة، دقائق أم ساعات لا يوجد من يحسبها، سقطت أول عبرة تلحقها أخرى فأخرى دلالة على كون هذا الجسد المنتهك على قيد الحياة. حركت ذراعها المتخدرة لتنزع الوشاح عن فمها، سقطت يدها فوق الفراش بجوارها في إنهاك ثم انطلقت صرخاتها تشق عنان السماء، صرخات متألمة باكية،

ارتفعت شهقاتها الباكية، لا تصدق ما حدث لها، فقط ليلة واحدة كانت كافية لتدمير حياتها بأكملها.

لماذا لم يشفق عليها، ولم تترك دموعها وتوسلاتها أثرًا في نفسه؟

حركت جسدها، دون جدوى وكأنه يرفض أن ينصاع إليها بعدما تعرض لأبشع أنواع الاغتصاب، استطاعت ترك الفراش وسقطت أرضًا بجواره، نهضت بتثاقل وبدأت في التحرك بأرجل مرتجفة تلقي بثقلها على كل حائط يجاورها.

اتجهت إلى المرحاض، استندت على الحائط وأنفاسها تتسارع بإرهاق بينما وجهها فقد كان شاحبًا حتى إنه لا يمكن استنتاج ملامحها الحقيقية، كادت أن تفتح الصنبور لعل انهمار المياه فوق جسدها يخفف من شعورها بالتدنيس، ظلت تحت المياه فترة طويلة وبينما تتأمل انعكاس ملامحها انتابتها رغبة في تحرير نفسها من هذا الألم وقتل نفسها لكن قوى غريبة قد دفعتها إلى التوقف فعادت إلى غرفتها بدون أن تلتفت إلى الفراش وبدأت في تبديل ثيابها وما أن انتهت حتى وضعت الأموال التي كان من المفترض أن تبدأ بهم حياة جديدة في جيب معطفها وبرقت عيناها في تصميم برغم ارتجاف ثغرها في محاولة ألا تنهار مجهشة بالبكاء مرة أخرى.

أسرعت تغادر الغرفة حيث شعرت بالاختناق الشديد، وكأن جدران تلك الغرفة تطبق على أنفاسها بشدة، لم تنتبه في لهفتها للخروج منها لتسقط بعدما

اصطدمت قدمها بحافة الفراش، ظهر الألم على ملامحها ولكنها تحاملت لتنهض بمساعدة يديها.

شعرت بشيء تحت كفها، رفعتها لتجدها صورة صغيرة، اتسعت حدقتيها وظهر الألم والكراهية على ملامحها بوضوح عندما تعرفت على هوية صاحب الصورة، لا بد أنها قد سقطت منه.

-الحمد لله على الأقل أملك دليلا الآن.

نهضت مغادرة الغرفة بعدما وضعت الصورة في جيب معطفها، وجدت محمود مازال نائمًا وهناك بودرة بيضاء على المنضدة بجوار الأريكة.

نظرت إليه بألم، كيف هانت عليه؟!

ألم يشفق عليها ؟! لم يلين قلبه وهو يسمع صرخاتها واستنجادها به، أي نوع من الأشقاء هو؟!

غادرت سريعًا إلى وجهتها بدون أن تبالي بالظلام الدامس في تلك الليلة الباردة.

***

تنهدت في ألم يمزق صدرها، دموعها اتخذت مسكنًا فوق وجنتيها، أشرقت الشمس وبدأ الناس يتجهون إلى أعمالهم بينما هي ما زالت تجلس أمام شاطئ البحر، تمتمت متألمة:-

-فلتساعدني يا الله.

نهضت لتغادر ثم توقفت فجأة تشعر بمرارة اليتم، فليس لها مكانًا تذهب إليه الآن، ولن تعود إلى ذلك المنزل الذي سُفكت فيه دماء عذريتها، لن تعيش تحت سقف واحد مع رجل بالاسم فقط، سولت له نفسه ببيع شقيقته الوحيدة، وقد صم أذنيه عن توسلاتها وصرخاتها.

تذكرت كلمات الضابط "هشام" فالقضية شديدة الصعوبة خاصة مع نفوذ المتهم وضعف الأدلة فطبقًا لأقوالها فإن شقيقها هو الشاهد الوحيد الذي لديها ومن المؤكد أنه سوف ينكر، ولكنه تعهد بمساعدتها وقد تعاطف مع حالتها كثيرًا، أعطته رقم هاتفها ليبلغها بالمستجدات لتغادر شاعرة بارتياح بالغ.

تنهدت وتابعت السير في شرود، قدماها تقوداها لا تعرف إلى أين..انتفضت عندما تعالت صيحات من حولها لترفع رأسها، وتكون تلك السيارة القادمة في مواجهتها هي آخر ما تراه عينيها.

سقطت أرضًا في استسلام غريب، وكأنها ترحب بالموت كصديق عاد بعد غربة طويلة، صديق افتقدته طويلا واشتهت قدومه كثيرًا.

الفصل الثالث

في غرفة صغيرة للغاية كانت ملقاة فوق الفراش تتوسل في صوت باكي:-

-أرجوك ارحمني، أتوسل إليك دعني وشأني.

لم يبدو أن توسلاتها لاقت أي صدى في قلبه فقد تابع اقترابه منها ونظراته المليئة بالشهوة تعريها من ثيابها، ولكن ما كاد يلمسها حتى رفعت رأسها تصرخ في ألم، ودموعها تغرق وجهها.

ومن بين الظلام القاتم كان هناك ذلك الضوء الخافت وكأنه يتسلل من نافذة ما، كان الضوء شديد الإلحاح حتى تتبعه وتخرج من ذلك الكابوس المفزع، والذي لا يعد إلا صورة جميلة مقارنة ببشاعة الواقع.

فتحت عيناها ببطء لتلتقي بأعين بنية قلقة، أغلقت عيناها مرة أخرى في استسلام، وخلدت إلى نوم عميق بدون أن تشعر بما حولها.

التفت الشاب صاحب العيون البنية إلى الطبيب متسائلا في قلق:-

-لماذا لم تستيقظ حتى الآن؟

-لا داعي للقلق يا بشمهندس أدهم، إنها.....

قاطعه بنبرة متسائلة اتضح بها نفاذ صبره:-

-إنها ماذا..؟

رد الطبيب بينما يتأملها بشفقة:-

-هناك علامات لإصابات على جسدها يبدو إنه قد مر عليها وقت طويل غير هذا ليس هناك ما يقلق.

تأمل أدهم الفتاة وقد بدت صغيرة للغاية بينما تستلقي باستسلام فوق الفراش الصغير، تنهد متمتمًا:-

-من أين ظهرتي أمامي فجأة؟!

تذكر فزعه الشديد عندما وجدها أمام السيارة، ومن حسن الحظ إنه استطاع التوقف قبل أن تمس بسوء، ولكنها كانت قد فقدت الوعي بالفعل، فحملها إلى أقرب مشفى.

قالت الممرضة مقاطعة تفكيره:-

-لقد وجدت ذلك الهاتف معها ولم يحتوي إلا على رقم باسم مراد إبراهيم .

قال الطبيب:-

-هاتفيه، وأبلغيه بما حدث.

أومأت وخرجت لتجري الاتصال، بينما أدهم فقد ظل يتأمل الفتاة قليلا ثم قال للطبيب:-

-سوف أتكفل بالعلاج وغيره، ولكن فلتبلغها بألا تسيء استغلال الوضع فهناك شهود على إنها قد سقطت قبل أن تمسها السيارة.

أومأ الطبيب دون أن يبد عليه أي تعجب، فهو يعرف "أدهم الحداد" جيدًا فعندما يصل الأمر إلى أي شيء قد يمس سمعة العائلة بسوء يتحول إلى رجل بدون قلب مستعدًا لقتل كل من يقف في طريق أسرته، وإنه لأمر مثير للإعجاب والفزع في آنٍ واحد.

غادر أدهم بدون أن يبالي بأن يطمئن على تلك الفتاة. لم تمر دقائق بعد مغادرته حتى اندفع شاب والقلق يعتلي ملامحه الوسيمة، اتسعت حدقتيه وهو يجدها على الفراش بذلك الوجه الهزيل الشاحب، ضعيفة لا حول لها ولا قوة، تلك الصورة جعلت قلبه يتمزق إربًا فالتفت إلى الطبيب متسائلا بخوف:-

-هل هي بخير؟

أجاب الطبيب مطمئنًا إياه:-

-لا داعي إلى القلق، إنها فقط نائمة الآن، ما صلتك بها؟

رد بحزم:-

-أنا أخوها.

أومأ الطبيب وطمأنه بعدم وجود أي إصابات جدية ثم تركه بجوارها حتى تستيقظ. أتخذ مقعدًا بجوار فراشها، يتأملها في تفحص بنظرات قلقة، لاحظ تململها وتحرك شفتيها بشيء ما، انحنى قريبًا منها وأقترب بأذنه من فمها ليسمع همساتها الخائفة:-

-يكفي أرجوك، أتوسل إليك فلترحمني.

أردفت ببكاء وبنبرة متوسلة ذليلة:-

-أتوسل إليك.

همس بحنان وتعهد:-

-شش... اهدئي يا شيماء، لا داعي للقلق فأنا بجواركِ.

أردف في شرود وبغضب بالغ:-

-سوف يكون آخر يوم في حياتك إذا كنت سبب ذلك.

لم يكن يدرك أن الأمر أكثر سوءًا مما يفكر به، فلو يستطيع اختراقها لأدرك مدى عمق الجرح في روحها.

بعد ساعتين بدأت تعود إلى وعيها، نظرة واحدة إلى تلك الحجرة الغريبة كانت كافية لتدفعها إلى الانتفاض فزعًا، ارتجفت بعنف عندما شعرت بكف يلامس كتفها، استرخت قليلا عندما تعرفت على ذلك الصوت الرجولي، نظرت إليه قليلا يبادلها نظراتها في قلق، وقبل أن يسألها ليطمئن على حالها، اندفعت تبكي بعنف، كان نحيبها يرتفع كطفلة في الخامسة قد وجدت والدها.

بعد فترة من البكاء والعويل الذي مزق قلبه، أجبرها على مواجهة عينيه بصعوبة وقال بنبرة شرسة برغم الحنان في عينيه:-

-من تسبب لكِ بذلك؟ أقسم أن أجعله يتمنى الموت رحمة له، فقط أخبريني بما حدث.

ارتفعت شهقاتها الباكية وهي تخبره بكل شيء وكأنها تعري روحها أمامه، ومع كل كلمة كانت النيران تشتعل في قلبه يتمنى إن كان شقيقها هنا ليقتله.

أنهت كلامها قائلة في ألم وعدم تصديق:-

-لم يحاول مساعدتي يا مراد، لقد صرخت كثيرًا وتوسلت تارة وبكيت تارة.

حاول تهدئتها، ولكنها دفعت يديه بعيدًا عنها وهي تصرخ بهستيرية:-

- لماذا حدث لي هذا، لماذا لم يشفقوا علي؟!

دلفت ممرضة رقيقة الملامح قصيرة القامة ومن ملامحها أدرك إنها سمعت ما قالته شيماء، طلبت منه بحزم أن يبتعد لتحقنها بمهدئ، استرخى جسد شيماء ما أن بدأ مفعوله وساعدتها الممرضة على التمدد بهدوء فوق الفراش.

التفتت لتلمح نظراته القلقة التي يصوبها تجاه شيماء الغير واعية فقالت بنبرة مطمئنة قبل أن تغادر الغرفة:-

-لا داعي للقلق، سوف تكون بخير.

أومأ في صمت ولم يشعر بمغادرتها وقد ظل شاردًا في الطريق الذي اختارته شيماء، فطريق المحاكم طويل للغاية يفترشه هشيم زجاج قد يجرح قلبها الصغير قبل قدميها، ولكنه سوف يكون بجوارها ويتابع معها في هذا

الطريق، ولن يدع أحدًا يصيبها بمكروه، ولعل تلك الفكرة وذلك العهد قد منحاه شعورًا بالطمأنينة.

ما زال يتذكر ذلك اليوم الذي تعرف عليها به، فهي السبب من تحوله من شاب تافه وابن عاق إلى ذلك الرجل الذي يكون عليه الآن.

-لا بد أن الحظ يبتسم لي لأرى مثل هذا الجمال.

كانت أولى كلماته عندما رآها أول مرة، كانت في عامها الأول بينما هو فقد مر سنوات وما زال في عامه الأخير.

نظرت إليه في احتقار ثم غادرت بدون أن تبالي به، تجهم وجهه خاصة وهو يسمع سخرية أصدقائه، اقترب صديقه سيف قائلا بسخرية:-

-لا تحزن يا مراد، تعال معنا لنحاول أن ننسيك تجاهلها لك.

أبعد ذراع سيف عنه وانصرف مغادرًا الجامعة، وقد أصابته تلك الفتاة بالحنق الشديد وهو من أعتاد تساقط الفتيات من حوله كفراشات تجذبهن النيران.

بعد سويعات قليلة وفي مكانهم الذي اعتادوا على الاجتماع فيه، شقة سيف الخاصة والتي اتخذها للابتعاد عن سيطرة والديه الخانقة على حد ظنه.

ابتسم سيف ومنحه عبوة صغيرة قائلا:-

-هذا من أجلك.

تساءل مراد بغباء:-

-ما هذا ؟!

ليقول آخر بضحكات ساخرة تدل على كونه في غير وعيه:-

-إنها حبوب للسعادة، سوف تكون أكثر الخلق سعادة بأخذها.

رفض مراد في بادئ الأمر، ولكن سيف لم يتركه فقد ظل يصر حتى بدأ مراد في ذلك الطريق، وهنا كانت بداية إدمانه.

تنهد عندما تذكر ذلك المنعطف في حياته، تأمل ملامح شيماء مجددًا، فلولا وجودها في الوقت المناسب لكانت جثته الآن متعفنة في أحد صناديق القمامة.

***

تململ عدي فوق الفراش منزعجًا عندما ارتفع رنين هاتفه مقاطعه غفوته، جذب الوسادة الصغيرة واضعًا إياها فوق رأسه بدون أن يفتح عينيه، استرخى جسده عندما توقف الرنين المزعج، ولكن لم تمر برهة حتى ارتفع الرنين مرة أخرى فلم يملك إلا أن يعتدل جالسًا متأففًا وعلامات الانزعاج واضحة على ملامحه.

رد بنبرة متهكمة بدون أن يهتم بالنظر إلى هوية المتصل:-

- أتمنى أن يكون سببًا جيدًا للاتصال بي بمثل هذا الإلحاح، وإزعاج نومي.

ارتفع صوت ساخر من الطرف الآخر قائلا:-

-بالطبع يجب أن تنام وتستريح ولا يهم صديقك الذي ألقيته في الطريق بعدم مبالاة.

أبعد عدي الهاتف عن أذنه سريعًا، مسد شعره في انزعاج وهمس:-

-اللعنة، لقد نسيته تمامًا.

أعاد الهاتف إلى أذنه مرة أخرى ليجد حسن ما زال مستمرًا في سبابه ليقاطعه قائلا بغضب:-

-إذا لم تتوقف الآن لن يعجبك رد فعلي.

استطاع سماعه يزدرد لعابه ثم قال في توتر:-

-لم أقصد، ولكنك ركلتني من سيارتك وكأني حذاء قذر.

ابتسم عدي على هذا التشبيه ثم قال بنبرة معتذرة:-

-أنت محق، وأنا أعتذر حقًا على هذا الموقف.

ابتسم حسن، فعدي برغم أنه قد يبدو مختلفًا عنه بسبب طبيعته العابثة إلا إنه سوف يظل صديقه المقرب، ولعل تلك العلاقة قد توطدت بعدما أنقذه عدي من بعض اللصوص..مازال يتذكر ذهوله عندما اكتشف إن عدي ينحدر من عائلة شديدة الثراء.

قال حسن:-

-إذا أنت تعترف أنك قد أخطأت في حقي؟

صر على أسنانه بغيظ شديد، كفى، لقد طفح الكيل الآن!

قال بنبرة لا تحمل أي مزاح:-

- لقد انتهى الأمر فلا تطيل حتى لا أفعل ما يتطلب أكثر من اعتذارًا شفاهيًا، وسوف تكون الخسائر أكثر من مجرد طردك من سيارتي.

أغلق الخط ينهي تلك المحادثة بدون أن يبالي بسماع إجابة حسن ثم نهض من الفراش متمتمًا في انزعاج شديد:-

-ذلك الأحمق، لقد أزعج منامي.

ألقى نظره على ساعة هاتفه ليجدها تقترب من التاسعة صباحًا، وما زالت كلمات أدهم ترن في أذنه، ربما قد حان الوقت حقًا لزيارة كليته.

***

زفر عدي في ملل للمرة العاشرة في ساعة واحدة، فتلك المحاضرة لا تنتهي، وثرثرة المحاضر تكاد تطيح بالمتبقي من سلامة عقله، ولجعل الأمر أفضل فقد أقبل ذلك الصداع الذي يكاد يمزق رأسه.

تأمل الساعة حول معصمه والتي لم تتحرك عقاربها منذ أن تأملها منذ قليل، وتمتم بنبرة حانقة:-

-اللعنة عليك يا أدهم، لا أعرف ما الذي جعلني أعدك بأن أتخرج هذا العام.

التفتت الفتاة الجالسة بجواره هامسة في ضيق:-

-من فضلك هل يمكنك أن تصمت قليلا لا أستطيع التركيز؟

التفت إليها، ولم يكن قد لاحظها من قبل، كاد أن يصرخ بها غاضبًا؛ أتمتمته الخافتة هي من قد تدمر مستقبلها وتمنعها من فهم تلك الطلاسم التي يتحدث عنها ذلك الرجل؟! ولكنه لم يفعل بل ظل فاهه مفتوحًا على مصرعيه بدون أن ينبس ببنت شفة، تأملها بنظرات خبيرة فقد كانت جميلة، عينين ساحرتين، وشعر ناعم، فاتنة تمامًا، لحسن الحظ أن الإصابات لم تشوه وجهه تمامًا كما أنها خلال أيام سوف تختفي وبالتالي لم يؤثر الأمر كثيرًا على وسامته مما دفعه إلى أن يهمس في خفوت بدون أن تسمعه:-

-يبدو أن قرار العودة إلى الكلية لم يكن بهذا السوء.

رمقها بنظرات متفحصة مردفًا:-

-لا بد إني أبله لعدم حضور محاضرات من قبل.

أردف بلطف مخاطبًا إياها وعينيه الخضراوتين لا تحيد عن وجهها:-

-آسف يا أنسة.

حركت رأسها في تجاهل ليستشيط غضبًا، ولكنه تحكم في مشاعره فلا بد إنها تتدلل، حقها فعلا فإذا لم يتدلل هذا الجمال من سيفعل؟!

تابع محاولا كسب ودها قائلا في غزل بينما يقترب بوجهه منها:-

-هل تدركين مدى جمالكِ أم تسمحين لي أن أخبرك عنه؟

رمقته بنظرات يملؤها الاحتقار وعادت مرة أخرى إلى متابعة المحاضرة.

الصبر يا عدي! اصبر لتنال شيئًا جميلا كتلك الفاتنة، قال وهو لا يحيد عينيه الآسرتان عن عينيها:-

-دعيني أخبركِ إني لا أحب التسرع أبدًا فيجب أن يوفى كل شيء حقه ولذلك دعيني أخبركِ إنكِ جميلة جدًا جدًا.

صاحت الفتاة وقد احمر وجهها في غضب:-

-أنت شخص عديم الأخلاق.

قال المحاضر وقد ارتفع صوت الفتاة كفاية ليصله رغم إنهما في الصفوف الأخيرة من المدرج:-

-ماذا يحدث هنا؟

أجابت الفتاة في ضيق:-

-يا دكتور الشاب بجواري يضايقني بكلماته.

انتفض عدي من مكانه قائلا بحنق:-

-كاذبة! أنا لم أقترب منها.

قبل أن ترد الفتاة قال المحاضر وقد حسم الأمر:-

-إلى الخارج الآن، وللحديث بقية في مكتب العميد.

تأمل الدكتور بنظرات مستهزئة بدون أن يبدو عليه أي تأثر فقد اعتاد على ذلك في المرات القليلة التي كان يحضرها، صاح بنبرة متهكمة:-

-وكأنك تطردني من النعيم.

أزاح الفتاة عن طريقه قائلا:-

-ابتعدي عن طريقي أيتها المشعوذة.

بدأت الهمسات في الارتفاع تتابعه حتى غادر المدرج، حاول المحاضر مرة أخرى استعادة السيطرة على المحاضرة، ليطل عدي مرة أخرى برأسه صائحًا:-

-تلك الفتاة تضع عدسات لاصقة وذلك الشعر الذي تتباهى به ما هو إلا أكسجين.

أردف في تذمر:-

-ماذا كنتي فاعلة إذا كانت هيأتكِ طبيعية؟

غادر سريعًا قبل أن يتحرك المحاضر بينما الجميع في المدرج يضحكون على تصرفات عدي الساخرة، بينما هو فقد اتجه إلى كافتيريا الجامعة، وأخرج هاتفه المحمول يهاتف مساعد والده:-

-لقد حدثت مشكلة في الجامعة، والدكتور استدعاني إلى مكتب العميد، فلتتصرف ولا تدع خبرًا يصل إلى والدي أوأدهم، تبرع لهم بشيك ما ليمروا الأمر.

كان رد الطرف الآخر كالعادة السمع والطاعة، وإلا كانت العواقب لتكون وخيمة فهو يخشى نفوذ عائلة الحداد الذي يمتد إلى ما لا نهاية، رغم معرفته باختلاف عدي عنهم فهو النعجة السوداء في تلك العائلة فاسد ولكنه في بعض الأحيان عادل مزيج غريب ومحير أيضًا، ولكنه يستجيب لأوامره منعًا لحدوث مشاكل بينه وبين والده والذي بخلاف ابنه لا يعرف الرحمة، وإذا تورط عدي في مأزق مع والده سوف يستدعي الأمر تورطه خاصة إذا عرف سيف الحداد بمساعدته لابنه طيلة سنين تعليمه، وتلك المساعدات لم تكن حقًا شرعية.

لم تمر دقائق حتى أقبل حسن، وقد انتهى من إحدى قضاياه في المحكمة التي تقع بالقرب من الكلية، اتخذ المقعد المقابل لصديقه قائلا في مرح:-

-ما أخبار مصائبك اليوم؟

حرك عدي كتفه بعدم اكتراث قائلا بملل:-

-المعتاد، دكتور سخيف طردني من المحاضرة.

قال حسن في يأس:-

-قد أموت قبل أن يأتي اليوم الذي لا تُطرد فيه من المحاضرات.

قال عدي ببرود وعدم مبالاة:-

-لقد قررت أن يصبح ذلك عامي الأخير في الكلية، لذلك فلتساعدني على النجاح هذا العام.

ابتهج حسن وقال بفرحة وعدم تصديق:-

-حقا! أخيرًا يا عدي..

أومأ عدي بدون اهتمام حقيقي لتتسع الابتسامة فوق ثغر حسن بينما يتأمله لقد كان صديقه يستحق لقب وسيم عن جداره خاصة تلك العينين التي ورثها عن والده وجده من قبله، ولعل ثراءه ساهم أيضًا في شعبيته بين الفتيات وجعله ذلك الفاسد الذي هو عليه، ولكنه يدرك الهوية خلف ذلك، إنه شهم عندما يتطلب الأمر لكن ضعفه أمام الجنس الآخر يكون إحدى ثغراته رغم أن الأمر لا يتعدى مغازلات بريئة ولكنهن نقطة ضعفه، وأشدها فتكًا.

***

كان الظلام دامسًا هناك حتى بدأ يظهر ضوء خافت سرعان ما اشتد لتبدأ تستعيد وعيها مرة أخرى، لم تستغرق إلا ثواني لتستعيد ما مرت به خلال السويعات الماضية، التفتت برأسها في إرهاق لتجد مراد يجلس على المقعد بجوارها، يتصفح هاتفه بدون أن يلاحظ استيقاظها.

نادت بصوت أبح مرهق:-

-مراد!

ما أن سمع صوتها حتى ترك هاتفه سريعًا، واقترب منها يتساءل في قلق:-

-هل أنتِ بخير؟

أومأت ببطء ثم قالت في إرهاق:-

-أريد أن أغادر، لا أطيق البقاء هنا.

- سوف أخبر الطبيب، ونغادر.

اغرورقت عيناها بعبرات ترفض أن تسمح لها بالانهمار وقد تذكرت كونها بلا ملجأ تمتمت في خفوت وكأنها تخاطب نفسها:-

-أنا..أنا لن أعود إلى ذلك البيت مجددًا، لن أذهب إلى هناك أبدًا....أبدًا..

قاطعها خوفًا من أن تسوء حالتها وتدخل في حالة من الهستيريا مجددًا:-

-لن آخذكِ إلى هناك أبدًا، سوف تأتين معي إلى منزلي وتبقين مع عائلتي.

استرخت قليلا، وحاولت أن تنهض اقترب مراد بعفوية لمساعدتها، ولكنها صدمته بانكماشها بعيدًا عن يديه ونظراتها الحذرة تجاهه، خمن إنها تمر الآن بصدمة متأخرة مما حدث لها.

ابتعد خطوة عنها، وتصرف كأنه لم يحدث شيء مغادرًا الغرفة بينما هي فقد اشتدت قبضتها حتى إن أظافرها قد جرحت راحتها، تشعر بغضب شديد قد يتغلب على الخوف والألم وربما هو الوسيلة الوحيدة لتحيا مرة أخرى تستمد

قوتها من تلك الصورة التي رسمها عقلها وهي وجود قاتلها خلف القضبان قريبًا جدًا.

اتجه مراد إلى مكتب الطبيب يخبره برغبته في أن يأخذ شيماء إلى المنزل، وافق الطبيب لعدم وجود إصابات جدية ناتجة عن الحادث ثم أضاف في حرج واضح:-

-عذرًا ولكن بشمهندس "أدهم " أمرني أن أبلغ الأنسة ألا تحاول الإبلاغ؛ لأن الاصطدام كان بالفعل خطأها، وهناك شهود على ذلك.

كبح مراد جماح نفسه قبل أن ينطلق لسانه بأبشع أنواع السباب التي لا تليق بمشفى محترم كهذا، وأومأ في صمت مدعيًا البرود.

ترك الحجرة وهو يتمتم في غيظ:-

-إذا كانت حالة شيماء جيدة، أقسم لجعلتها تقدم بلاغًا ضد ذلك الوغد.

-أنت يا أستاذ، يا كابتن.

دفعه فضوله إلى أن يلتفت ليجد الممرضة القصيرة ذات الملامح الطفولية، وقف عاقدًا ساعديه أمام صدره يتأملها في سخرية وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة ثم تذمرت بحنق:-

-لقد ناديتك كثيرًا، ألم تسمع؟

رمقها بنظرات متهكمة لتتجاهلها تمامًا وتتساءل:-

-هل أختك قد استيقظت؟

أومأ وقال بجدية:-

-أجل، وسوف نرحل الآن.

أومأت ثم قالت بتلعثم خجول:-

-هل من الممكن..أعني..هل بإمكاني الحصول على رقم هاتف لأطمئن عليها؟

رمقها بتعجب قد اعتادته فطالما كان تعاطفها الشديد مع مرضاها يزج بها في الكثير من المصائب، ورغم تحذير الجميع لها إلا أنها استمرت في اقتحام حياة مرضاها مدفوعة بطيبة قلبها وقلقها.

ابتسامة جذابة ارتسمت فوق ثغره لتكشف عن أسنان بيضاء تتناقض مع بشرته خمرية اللون ثم قال:-

-بالطبع، سوف أسجل الرقم على هاتفكِ.

أخرجت هاتفها من جيب الزي الرسمي، وأعطته إياه، تفاجأ من هيئة هاتفها الحديث للغاية، وتعجب كيف لممرضة أن تمتلك المال الكافي لشراء مثل هذا الهاتف. سجل رقم شيماء، ثم ابتسم بمكر وسجل رقمه هو الآخر.

أعاد إليها الهاتف قائلا:-

-لقد حفظت رقم هاتف شيماء..

كادت أن تشكره، ولكنها توقفت عندما أردف قائلا ببرود:-

-ورقمي أيضًا.

ظهر الغضب على ملامحها واندفعت قائلة بحنق:-

-أنا لم أطلب رقمك لتسجله.

ابتسم لحمرة الغضب المرسومة على وجهها، وقد بدت كالرسوم المتحركة التي كان يشاهدها في صغره.

أجاب في براءة:-

-ماذا إذا كان هاتف شيماء مغلقًا؟! يمكنكِ التواصل معي لأطمئنك عليها.

رمقته في شك ثم غادرت، ونظراته تتبعها، ثم أبعد عينيه عنها، وزفر بعمق فهناك ما يجذبه إلى تلك القصيرة، تجاوز الأمر سريعًا فهناك مهمة أكثر صعوبة الآن مُلقاة فوق كاهله؛ وهي إقناع والدته بمجيء شيماء إلى المنزل.
أخرج هاتفه واتصل برقم مسجل عليه.
انبعث صوت من الطرف الآخر:-

-أين أنت يا مراد، لقد انتفضت فجأة مغادرًا بدون أن تنطق بحرف؟

أجاب بنبرة مطمئنة:-

-لا داعي للقلق يا أمي، أنا بخير ولكن هناك طلب أحتاجه منكِ..

أردف محاولا تزوير بعض الحقائق قليلا:-

-شيماء صديقتي التي أخبرتك عنها سابقًا، هل من الممكن أن تأتي للبقاء في منزلنا بضعة أيام؟

قالت باستنكار:-

-بالطبع لا يمكن، كيف لها أن تبقى وأنت موجود في المنزل أيضًا!

قال محاولا إقناعها:-

-سوف أقضي تلك الأيام في منزل أحد أصدقائي، فقط مؤقتًا.

تساءلت الأم في شك ولم ترتاح حقيقة لإلحاحه:-

-ألم تخبرني سابقًا إنها تسكن مع شقيقها الأكبر، إذًا أين هو؟!

تلعثم مرددًا:-

-أخوها!

ثم أردف مبررًا:-

-إن شقيقها قد سافر، ومن الصعب أن تسكن وحيدة في الشقة بعد سفره خاصة إنهما لا يملكان أي أقارب.

لان قلبها وامتلأ حنانًا على تلك اليتيمة فلم تملك إلا أن ترد بإذعان:-

-حسنًا يا بني، أحضرها لتبقى مع شقيقتك "منى".

قال بحرارة:-

-سوف أحضرها الآن.

تنفس الصعداء بعمق، وكأن همًا في ثقل الجبال قد انزاح من فوق صدره. اتجه إلى الغرفة ليصطحب شيماء إلى منزله، ولعل بقائها مع شقيقته الصغرى يخفف عنها قليلا.

كانت تسير بجواره في طريقهما إلى خارج المشفى شاردة، مثقلة بالهموم والأحزان كعجوز في السبعين بينما هو فقد كان حريصًا على أن يبقي بينهما مسافة آمنة حتى لا يثير فزعها مرة أخرى.

فتح الباب الخلفي لسيارته لتدلف بداخلها في هدوء بدون أن تعترض كما كانت تفعل في السابق فحالتها لا تسمح بأي نقاش، كان يقود سيارته وبين الحين والآخر يخطف نظرات إليها ليطمئن عليها.

بعد دقائق أوقف السيارة في حي ينتمي سكانه إلى الطبقة المتوسطة يختلف تمامًا عن مسكنها، وترجلا من السيارة، رفعت وجهها ليرى تلك النظرة التي تمزقه إربًا... نظرة ضائعة.

ابتسم لها بلطف مصاحبًا لتلك النظرة المطمئنة في عينيه لتتنفس بعمق وتلحق به إلى داخل المنزل، وما أن فتحت والدته حتى رحبت بها، وكان ترحيب "منى" مضاعفًا حيث احتضنتها وكأنها تعرفها منذ زمن، وقالت بلطف:-

-لقد تحدث مراد عنكِ كثيرًا مما جعلني متشوقة للغاية لرؤيتكِ.

ابتسمت شيماء بشحوب، وقد أدفئ قلبها ذلك الترحيب وطمأنها.

اصطحبتها منى إلى غرفتها وقالت بلطف بينما تقف في منتصف الغرفة:-

- من الآن فصاعدًا سوف تكون تلك غرفتكِ، فلتعتبري نفسكِ في المنزل وتصرفي براحة.

ثم أشارت إلى مجموعة من الثياب الموضوعة بتنظيم فوق المقعد وقالت:-

-تلك مجموعة من الثياب قد تناسبكِ، فقد أخبرني مراد إن هناك أمر قد حدث فلم تستعدي جيدًا للانتقال من المنزل.

أومأت شيماء وشكرتها في امتنان بالغ، وبرغم تعجب منى من صمتها الدائم إلا إن شحوب وجهها كان كافيًا للدلالة على كونها متعبة فأردفت وابتسامة لطيفة فوق ثغرها شديدة الشبه بابتسامة شقيقها:-

- سوف أترككِ لتستريحي، وأخرج للجلوس مع مراد قليلا.

قالت شيماء بخفوت وخجل قبل أن تغادر منى:-

-شكرًا جدًا، وأنا آسفة حقًا لإزعاجكم هكذا.

ردت منى بمرح:-

-ليس هناك أي إزعاج، ويمكنكِ اعتباري كأخت لكِ، حسنًا؟

تمتمت بخفوت وقد بدأت تلك الفتاة بتصرفاتها الحنونة بالتسلل إلى قلبها:-

-حسنًا.

تركتها منى وحيدة في الغرفة فأسرعت شيماء إلى الباب تغلق قفله وبدأت في استبدال ثيابها ثم تمددت فوق الفراش ورويدًا بدأت تستسلم لذلك النعاس بدون أن تشعر بتلك العبرة التي تسللت من بين جفنيها بعدما خلدت إلى النوم وقد تحطمت كل حصونها التي تدعي القوة والصمود.

***

في وقت الظهيرة، وفي منزل عائلة الحداد الضخم، اجتمعوا جميعًا حول مائدة الغذاء، وعلى رأس المائدة كانت تجلس الجدة وقد حرصت على اجتماعهم دائمًا في أوقات الطعام مهما كانت الظروف أو المشاغل كما كان يفعل زوجها -رحمه الله-.

لاحظت الجدة إن المقعدين فارغان بجوار ناهد فتساءلت بحيرة:-

-أين ابنتيكِ يا ناهد، ألن يتناولا الطعام معنا؟

أصدرت ناهد صوتًا متذمرًا من فمها، وقالت بضيق:-

-ابنتي! الكبرى في عملها عديم الفائدة.

ثم أردفت بحنق وهي ترمق أدهم بتلميح واضح:-

-لكن اللوم لا يقع عليها بل على من أقنعها بذلك.

قال محمد بجدية وحزم:-

-جيد إنها تعتمد على نفسها.

كانت نبرته الحازمة كافية حتى لا تستمر في حديثها، ولكن الامتعاض كان مازال يتضح فوق ملامحها خاصة مع صمت خالد ومتابعته لتناول الطعام وكأن الحوار لا يخصه.

قال أدهم وقد تجاهل كلمات زوجة عمه:-

-لقد رأيتها اليوم في عملها.

تساءلت الجدة في قلق:-

-لماذا كنت هناك يا أدهم، هل أنت بخير؟

-لا تقلقي يا جدتي، أنا بخير لقد مررت فقط لإلقاء التحية والاطمئنان عليها.

تجاهلت ناهد كلامه وأردفت كأنه لم يتحدث:-

-أما سارة ففي الجامعة.

قال عدي مداعبًا:-

-يبدو أن تلك الفتاة فائقة مثلي تمامًا، أليس كذلك يا أدهم؟

ضحك أدهم، وقال بسخرية:-

-بالطبع، وأنا أول من يشهد على ذلك.

أردف بجدية عندما لاحظ صمتها:-

-ماذا عنكِ يا أميرة، كيف هي دراستكِ؟

كانت شاردة في ضحكته السابقة التي داعبت مشاعرها، لتنتبه فجأة إلى سؤاله، خجلت من شرودها وقالت:-

- بخير.

قال بلطف:-

-إذا وجدتِ أي صعوبة أخبريني، حسنًا؟

أومأت في حياء، وهي تكاد تتوسل إليه أن يوقف لطفه الذي يزيدها عشقًا له، فمنذ صغرها لم يكن هناك إلا هو، ومع تقدم السنين كان حبها يتفتح كزهرة تحتاج إلى رعاية وحنان.

كم تحلم أن يرى فيها ما هو أكثر من مجرد ابنة العم الصغيرة، أن يراها حبيبة وزوجة...مجرد أحلام فقط تعينها على تحمل واقع حبها من طرف واحد..

لم تعرف أن مشاعرها تكاد تكون واضحة أمام نظرات والدتها "مريم" التي لاحظت شرودها بينما سيف فقد بدأ في محادثة مملة مع خالد عن إحدى الصفقات.

كان الغذاء العائلي يمنح متعة كبيرة للجدة حيث تجتمع بأبنائها وزوجاتهم، وتنطلق ضحكاتها بسبب دعابات أحفادها حتى دلفت الخادمة لتوقف كل هذا قائلة في ارتباك:-

-هناك عسكري بالخارج يريد بشمهندس "خالد".

ظهر القلق على وجه الجميع، واتجه خالد إلى الخارج بينما محمد فقد قال بحزم بينما يلحق به:-

-لا تخرجوا حتى نعرف ماذا هناك.

خرج وتبعه أخوه سيف وكذلك كلا من عدي وأدهم.

قال العسكري بنبرة حازمة:-

-هناك أمر بحضورك إلى قسم الشرطة.

شحب وجه خالد قليلا، ولكنه تماسك وتساءل بنبرة فاترة:-

-ما السبب؟

-سوف تعرف التفاصيل في القسم.

تقدم سيف بجوار خالد، وقال بغضب:-

-ألا يعرف رئيسك هوية الذي يستدعيه بتلك الطريقة كالمجرمين؟

حرك العسكري كتفه بعدم اكتراث، ورد بضيق:-

-أنا لدي أوامر ويجب أن أنفذها، وبالتالي لا أبالي بهويتك.

قال محمد بجدية مانعًا سيف من أن يتمادى في حدته:-

-حسنًا يمكنك الذهاب، وسوف نكون هناك اليوم.

أومأ العسكري، وغادر بينما صاح سيف بحنق وقد بلغ غضبه الذروة:-

-من هذا الضابط الذي يستدعي أحدنا بتلك الطريقة الوقحة؟

قال محمد بدون أن يتزعزع هدوئه:-

-اهدأ قليلا، فلن نربح شيئًا من سب الضابط، يجب أن نذهب الآن إلى القسم لمعرفة سبب الاستدعاء.

قال سيف بلهجة مُهينة:-

-طالما كنت هكذا، متسامحًا مضحيًا كالملاك يا أخي الأكبر.

ثم أردف بنظرات يدرك كلاهما معناها:-

-فعلتها سابقًا، وتفعلها الآن أليس كذلك يا محمد؟

بدأت العروق تتضح على وجهه، وضم قبضته مانعًا تلك الرغبة في لكمه ثم قال بنبرة مشحونة بالغضب:-

- لقد انتهى الماضي، وإذا تحدثت عنه مرة أخرى سوف يكون رد فعلي أعنف مما تتصور.

غادر محمد بينما ارتسمت ابتسامة ساخرة شامته فوق ثغر سيف، ولكن الذهول كان من نصيب كلا من عدي وأدهم؛ فإنها المرة الأولى التي يفقد بها محمد أعصابه بمثل تلك الطريقة.

تركهم سيف بينما خالد والذي قد ألتزم بصمته المريب فقد كان شاردًا مهمومًا قلقًا من ذلك البلاغ؛ فشخص مثله ارتكب العديد من الأخطاء التي قد تزج به في السجن.

قال عدي في قلق بينما يقف أمام سيارته استعدادًا للمغادرة:-

-ماذا تعتقد سبب ذلك الاستدعاء؟

أجاب أدهم بجدية بينما يدلف بداخل سيارته:-

-لا أعرف، ولكنه بلاغ كاذب أكيد، وسوف أحل الأمر إذا تطلب تدخلي فلا تقلق.

لا ينكر عدي إنه في بعض الأحيان يشعر بالخوف من اندفاع أدهم لحماية العائلة، فلا سبيل لمجادلته أو اعتراض طريقه في تلك الحالة، بالتالي لم يستطع أخباره إنه لا يشعر بأي قلق بل حقيقة إنه يفضل أن يُزج عمه الحبيب في السجن مدى الحياة خاصة عندما يتذكر تلك الليلة التي قضت على الطفل الصغير "عدي" وخلقت الرجل الذي هو عليه الآن.

زفر في ضيق ثم تساءل بحيرة عندما تذكر ما سمعه سابقًا:-

-ماذا كانا يقصدان بالماضي؟

-لا أعرف.

كان رد أدهم شديد الاختصار مما جعله يدرك أن ذلك الاستدعاء يحتل الكثير من تفكيره فلوح له، ودلف بداخل سيارته، وغادر كلاهما كلا في عالمه فأدهم عقله يضخ بالأفكار حول ذلك الاستدعاء، بينما عدي فلم يبالي.. يثق أن الأمر سينتهي سريعًا فاسم عائلة الحداد كافي للتخلص من أي عائق خاصة إذا تدخل أدهم.

الفصل الرابع

ارتفع صوت الهاتف لتفتح عينيها ببطء ويظهر التشوش في نظراتها لم تمر ثواني حتى انقشع الضباب عن ذهنها واستطاعت استيعاب مكانها.

التقطت هاتفها ليأتيها صوت يتساءل بنبرات حازمة:-

-شيماء عبد الفتاح؟

ردت بصوت أجش بفعل نومها:-

-أجل!

انتفضت معتدلة فوق الفراش، وابتسامة سعيدة على شفتيها، تتناقض مع عبراتها المنهمرة فوق وجنتيها، وصاحت بفرح:-

-حقًا؟

تابعت بشراسة بعدما استمعت لرده:-

-سوف أكون في الموعد.

أنصتت إلى تحذيراته بانتباه شديد ثم قالت بنبرة متألمة:-

-أنا متفهمة للموقف، وأن الطريق ما زال في بدايته لكني لن أستسلم حقًا.

أنهت المكالمة لتترك الهاتف يسقط بجوارها، وبرغم القوى التي تدعيها لتحصل على حقها إلا إنها تحتضر بداخلها، روحها قد تشوهت بالفعل مع جسدها الذي دنسه ذلك الوغد.

بدأ جسدها يرتجف بعنف، وهناك ثقل يمنع الهواء عنها، وضعت كفها المرتجف فوق صدرها في محاولة يتيمة لالتقاط أنفاسها.

لم تنتبه إلى دخول منى، والتي ما أن رأت وجهها شديد الاحمرار وأنفاسها التي تلتقطها بصعوبة حتى أسرعت راكضة إلى مراد، والذي كان يجمع ثيابه لينتقل إلى بيت أحد أصدقائه.

انتفض مراد عندما اقتحمت منى غرفته، وكاد أن يعنفها لعدم استئذانها، ولكنها عاجلته بصراخها بنبرة قلقة:-

-شيماء.

ترك الثياب بين يديه تسقط أرضًا، وبدا القلق على محياه متسائلا بنبرة فزعة:-

-ما بها شيماء؟!

-إنها لا تبدو على ما يرام.

اتجه سريعًا إلى غرفة شيماء، ليظهر على محياه الفزع، هرع إليها وبدأ يتحدث بصوت هادئ:-

-اهدئي يا شيماء، أرجوكِ، حاولي أن تتنفسي ببطء.

بعد دقيقة كاملة كانت طويلة على كلاهما بدأت أنفاسها تهدئ، واطمئن قلبه عندما عاد وجهها إلى لونه الطبيعي، قال بنبرة لم يفارقها القلق بعد:-

-أصبحتِ بخير الآن؟

أومأت في صمت، جلس على طرف الفراش، يتأمل رأسها المنحني في حنان، وكأنه يواسيها ويشاركها آلامها بمجرد وجوده بجوارها.

دلفت منى في صمت إلى داخل الغرفة، ودموعها تلطخ وجهها البريء خوفًا على شيماء .

قال مراد يحثها على التقدم:-

-اقتربي يا منى.

نهض لتصعد هي على الفراش، وتجلس بجوار شيماء تحتضنها بقوة تضم رأسها إلى جسدها الصغير، لتتنهد شيماء بألم، وتريح رأسها فوق كتفها فقد كانت بحاجة إلى ذلك العناق.

قال مراد بجدية:-

-منى! اتركيني قليلا مع شيماء من فضلك.

أومأت منى، وغادرت الحجرة لترد شيماء على نظرة التساؤل في عينيه:-

-الضابط هاتفني، سوف يكون هذا الوغد هناك في القسم لكتابة المحضر الابتدائي، سوف أذهب لمواجهته أيضًا.

تساءل ويجتاحه شعور بالقلق من أن تنهار عندما تراه:-

-هل سوف تكوني بخير عند رؤيته؟

برقت عيناها بقوة مثيرة للإعجاب، وقالت بتجلد:-

-سوف أتظاهر بأني بخير حتى أكون كذلك، لن تجدد رؤيته إلا مشاعر الغضب والاحتقار لا الخوف.

-وأنا سوف أكون معكِ في كل خطوة.

تأملته وفي عينيها امتنان صامت، لا تجد كلمات تعبر عن شكرها له لوجوده بجوارها طيلة عامين كاملين، ليس بأخاها حقًا ولكنه دائمًا ما ظل يحميها.
تشكر تلك الليلة التي تعرفت عليه بها، وتغيرت حياتهما معًا.

كاد مراد أن يتحدث، ولكن صوت منى التي أطلت برأسها بداخل الغرفة قائلة بطفولية:-

-هل انتهيتما من حديثكما؟

ابتسمت شيماء لتلك الفتاة التي بدأت في اقتحام قلبها بتصرفاتها الطفولية اللطيفة وقالت:-

-ادخلي يا منى.

كادت أن تذهب للجلوس بجوارها، ولكن منعها نداء والدتها الغاضب، أسرعت راكضة إلى خارج الغرفة لتجد والدتها تقف أمام غرفة مراد بوجه محمر غضبًا، وأعين تنفث نارًا.

تألمت منى عندما جذبتها والدتها من ذراعها بقسوة قائلة بغضب:-

-فلتستمعي إلّي جيدًا، طيلة وجود تلك الفتاة هنا سوف تبقين في غرفة شقيقكِ، ولن تختلطي بها أبدًا مفهوم؟

أجابت منى بنبرة باكية، وهي تتلوى لتخلص ذراعها من قبضتها:-

-لكن لماذا؟! إنها لطيفة.

قالت الأم بنبرة حازمة لا تقبل الجدال، وهي تدفعها إلى داخل الغرفة:-

-لا أريد أي اعتراض، سوف تنفذين ما أخبرتك به فقط.

أومأت منى بخوف لتغادر الأم متذمرة من تلك الفتاة والتي وجدت في تصرفات مراد تجاهها ما يثير شكوكها، وخاصة عندما سمعت همساتهما منذ قليل بخصوص ذهابهما إلى قسم الشرطة، فالأمر أكبر من أن يكون شقيقها قد سافر فقط، وحتى تكتشف سر ذلك الغموض الذي يحيط بتلك الفتاة سوف تمنع ابنتها من الاختلاط بها.

***

ما الذي قد يدفع ضابطًا لاستدعاء فرد من عائلة الحداد، لا بد أن الأمر شديد الأهمية والخطورة حتى إن نفوذ عمه لم يصنع فارقًا؟!

كان ذلك السؤال يزعج أدهم كثيرًا بينما يجلس خلف مكتبه في شركته الخاصة، وربما أكثر ما يقلقه هو سمعة العائلة التي قد تُضر إذا تسلل خبرٌ مثل هذا إلى الإعلام.

أزاح الأوراق الملقاة فوق سطح مكتبه، وعقد حاجبيه في انزعاج بسبب شروده الدائم وعدم قدرته على التركيز في عمله.

التقط هاتفه وعينيه تبرق بإصرار، أجرى محادثته ثم قال ببرود، وبثقة رجل لم يعتاد الرفض جوابًا:-

-أريد التحدث مع ضابط يُدعى "هشام".

جاء رد الطرف الآخر:-

-ما سبب تلك المحادثة؟

قال أدهم بنبرة يتضح بها الكبرياء والغرور:-

-فقط أخبره إن "أدهم الحداد" يرغب في التحدث معه.

استطاع أن يسمع تذمر الطرف الآخر ثم صمت قليلا، ليعود متحدثًا بنبرة شامتة وساخرة:-

-لقد أخبرته، ولكنه مشغولٌ الآن، ويخبرك إذا رغبت في لقائه يمكنك أن تأتي إلى القسم لرؤيته.

أغلق بدون أن ينتظر رده بينما أدهم فقد كانت أعينه تنفث نارًا، والغضب يكسو ملامحه، أغلق قبضته بقوة على الهاتف حتى كاد أن يكسره، فمن ذلك الوغد الذي تجرأ على إهانته كما تسبب قبلا في إهانة عمه بذلك الاستدعاء؟!

رن هاتفه مرة أخرى ليجده والده، أجاب بسرعة خوفًا من أن يكون هناك مكروهًا قد حدث، كانت محادثة مختصرة يخبره بها إنه في طريقه إلى القسم بصحبة أعمامه، ما أن انتهت المحادثة حتى ألتقط معطفه المعلق خلف مقعده، وأسرع مغادرًا مخبرًا مساعدته الخاصة على عجل أن تلغي كل مواعيده لليوم، فلن يدع فرصة اللقاء مع المدعو "هشام" تذهب هباءًا.

***

-شيماء عبد الفتاح!

نهضت بأرجل مرتجفة وقد تعرق كفيها ما أن سمعت اسمها، تقدمت إلى غرفة الضابط بخطوات بطيئة، تدرك إنه يجلس مع الضابط خلف ذلك الباب، وربما يخبره بالعديد والعديد من الأكاذيب عنها، انتابها الشك لبضعة لحظات أهي قوية كفاية لتتلاقى نظراتها معه بدون أن تنهار وتسدد له الضربات حتى يصبح جثة هامدة أسفل قدميها؟!

شعر مراد بما يدور في ذهنها، قال مشجعًا إياها:-

-أنا أراهن على قوتكِ، ادخلي إلى تلك الغرفة بكل شجاعة فأنتِ لم ترتكبِ أي خطأ لتخافي منه.

أومأت في صمت، ثم تنفست بعمق، ودلفت إلى داخل تلك الغرفة بينما "مراد" فلم يُسمح بدخوله حيث إنه ليس هناك علاقة تربطه بها كما إنه ليس بمحاميها.

ما إن دخلت حتى شعرت بثقل يجثم فوق صدرها ما أن تعرفت عليه يجلس بكل غرور مرتديًا حلته الثمينة بينما رائحة عطره النفيس تفوح منه وتمنع نفاذ الهواء إلى رئتيها، رمقته بنظرات احتقار وكراهية عميقة، تتمنى لو تملك الشجاعة الكافية لقتله وسفك دمائه القذرة بينما هو بادلها تلك النظرات بأخرى فارغة وكأنه لا يعرفها حقًا.

قال الضابط هشام مقاطعًا نظراتهما:-

-تقدمي يا شيماء.

جلست شيماء في المقعد المقابل لخالد ومحاميه الذي لم تلحظ وجوده عندما دخلت، كان بدينًا يطل المكر من عينيه خلف تلك العوينات الزجاجية.

قال المحامي ببرود متابعًا حديثه الذي قطعه دخول شيماء:-

-يا حضرة الضابط، موكلي هنا يرفض التهم المنسوبة إليه.

استرخى هشام في مقعده قائلا باستفزاز:-

-وهل هناك سبب يدفعني إلى تصديق أن موكلك لم يرتكب تلك الجريمة؟

قال رامقًا شيماء بنظرات مهينة:-

-بالطبع يا حضرة الضابط فالأمر واضح، إن موكلي من عائلة شديدة الثراء فلا يغيب عن أحد ثراء عائلة الحداد وتركهم بصمة في الإنشاءات الهندسية، وبالطبع هناك العديد من الفتيات يرغبن في أن يحصلن على نفحة من تلك الأموال الطائلة وإن كان ذلك عن طريق إطلاق الأكاذيب التي لا صحة لها.

انتفضت شيماء من مقعدها، وقد أفزعتها كلماته المحتقرة، أيظن حقًا إنها قد تدعي اغتصابها لتحصل على بعض الأموال البالية، وازدادت نيران قلبها اشتعالا عندما قابلتها نظرات خالد الخبيثة وابتسامته الباردة وكأنه يخبرها إنها عاجزة عن فعل أي شيء، صاحت بغضب:-

-فلتذهب إلى الجحيم أنت وأموالك الحقيرة..أقسم أن أجعل حياتك جحيمًا كما دمرت حياتي.

قال المحامي ببرود:-

-أنا أذكر الحقائق هنا يا أنسة.

قبل أن تنطق حرفًا انتفض كلاهما عندما طرق هشام على سطح مكتبه بعنف صائحًا:-

-كفى.

لم تتزحزح ابتسامة خالد الواثقة أبدًا، بينما أردف هشام قائلا:-

-وجود صورتك معها، أليس دليلًا كافيًا؟

أجاب في ثقة:-

-تلك الصورة قد مر عليها وقت طويل ربما خمسة عشر عامًا، وسوف يكون غريبًا أن أظل أحملها معي، وكما سبق أن أخبرتك أنا شخصية معروفة ومن السهل الحصول على صوري.

بدأ هشام في إعداد محضر التحقيق الابتدائي الذي سوف يتم إرساله إلى النيابة وقد تقرر خروج خالد بضمان محل إقامته.

بدا على ملامح شيماء عدم الفهم فقال هشام في هدوء:-

- سوف يتم تحويل القضية إلى النيابة وهي سوف تتابع تحقيقاتها وتحدد موعد عرضكِ على الطب الشرعي، ونتائجه سوف تحدد إذا كانت القضية سوف يتم إحالتها إلى المحكمة أم سوف يتم التحفظ عليها.

أومأت شيماء في صمت وما إن خرجت حتى تلاقت أعينها مع رجل ذو حلة غالية يرمقها بغضب شديد ممزوج باحتقار، وما أن اتجه إليه خالد حتى أدركت السبب، تجاوزتهما واتجهت إلى مراد الذي كان يقف قلقًا، قالت بهدوء:-

-سوف يتم عرض القضية على النيابة.

أردفت بينما تنظر إلى المكان حولها، وقد بدأ يراودها شعورٌ بالغثيان:-

-فلنغادر هذا المكان، أشعر بالاختناق هنا.

أومأ، ولكن قبل أن يغادرا تسلل إليهما ذلك الصوت البغيض قائلا بلهجة مهينة:-

-لم يعد هناك أي تربية، فتيات هذا الجيل يفعلن أي شيء من أجل المال.

تسارعت أنفاس مراد في غضب، توقف عن الحركة ثم التفت إليه رافعًا أصبعه في تحذير:-

- إذا لم ترد أن يتشوه وجهك ذلك فلتحفظ لسانك.

ازدرد خالد لعابه في خوف من نظرات مراد الشرسة، ولكن محمد قد تقدم تجاهه صائحًا:-

- هل سولت لك نفسك أن تهدده هنا، يمكنني أن أسجنك إذا أردت؟

ابتسم مراد ببرود قائلا:-

-أعتقد أنه من الأفضل أن توفر مجهودك، وتبحث عن معجزة لتخرجه من تلك القضية.

التفت إلى شيماء التي كانت صامتة، شاحبة الوجه، وقادها إلى الخارج في صمت.

دلف أدهم إلى داخل القسم مارًا بتلك الفتاة الشاحبة يجاورها شاب ضخم الجثة وكأنه حارسها الشخصي، لعل فرق القامة أو تلك النظرة الشرسة في عينيه وكأنه يحذر كل من يفكر في الاقتراب منها هما ما جذبا انتباهه..

استمر في طريقه مرة أخرى؛ ليعرف ما حدث مع عمه. وجدهم على وشك المغادرة فتقدم تجاههما متسائلا في قلق:-

-ماذا كان الضابط يريد من عمي يا أبي؟

أجاب عمه سيف، والذي كان يتابع في صمت وعدم مبالاة، مشيرًا إلى الفتاة التي مر بجوارها منذ قليل:-

-مجرد فتاة ترغب في بعض الأموال فأدعت كذبًا على عمك.

أومأ أدهم ثم التفت إلى حيث خرجت الفتاة، ونظراته برقت بشر خالص مخيف، وقال في فتور:-

-لن تفلت من هذا، أعدك.

ربت محمد على كتف ابنه في فخر، فابنه الوحيد الذي يأخذ مسؤولية العائلة بجدية بالغة، بينما أدهم فقد عقد العزم على أن ينتقم من تلك الفتاة التي ادعت كذبًا على عمه، وحاولت تشويه صورة العائلة بدون أن يتساءل لمرة واحدة أين الحقيقة في تلك المعركة؟

***

دلف عدي إلى داخل المنزل بعد انتهاء يومه الجامعي الطويل، كان الجميع في الردهة، والدته وزوجة عمه بالإضافة إلى جدته العزيزة، حياهم بصوت منخفض ثم اتجه إلى الدرج ليصعد إلى غرفته.

تعجب الجميع من صمته العجيب؛ فهو في العادة عند عودته إلى المنزل لا يتوقف عن مشاغبة الجميع كبارًا وصغارًا، بالإضافة إلى تعليقاته المرحة التي يلقيها يمينًا ويسارًا.

شعرت مريم بالقلق، وقررت أن تنفرد به لاحقًا حتى تعرف سر حالته الغريبة.

في ذلك الوقت تمدد عدي فوق فراشه شاردًا في تلك المكالمة التي تلقاها في طريق عودته إلى المنزل، والتي عن طريقها كان على وشك أن يعرف كل ما يريد عن فتاة المول، ولكنه اندفع رافضًا تلك المعرفة، وقد أثار خوفه تلك الرغبة في التعرف عليها وكأن طبيعة لقائهما جعلتها ذات جاذبية خاصة في عينيه ولذلك قرر أن يتجاهل أمرها أو يدعي ذلك على الأقل.

فأكثر ما يكرهه هو الشعور بأنه تحت سيطرة شخص ما أو مشاعر محددة، ولكن برغم تلك الكلمات التي يلقنها لنفسه إلا أنه ما زال يفكر بها ولا يملك سببًا واحدًا لذلك، أهي رغبة في الانتقام ؟!

حسنًا، لم يكن من أولئك الذين تحركهم رغباتهم، هو مستهتر قليلا وفاسد كثيرًا، ولكنه ليس بأبله حتى يطارد فتاة من أجل ذلك الموقف السخيف والذي يعترف بعد أن هدأ قليلا إنه كان المتسبب فيه.

يثق أنه ليس حبًا، فتراهات الحب من النظرة الأولى تحدث في روايات يعيش مؤلفينها في عالم وردي، أيمكن أن يكون إعجابًا؟!

لكن ليس هناك أي سبب منطقي يدفعه إلى الإعجاب بفتاة كهذه، ليست بمثيرة كالجميلات في حياته، ليست مميزة في أي شيء إلا عينيها الجذابتين.

زفر في حنق ثم نهض من فوق الفراش، واتجه إلى الحمام ليغسل وجهه، ثم تأمل انعكاس صورته في المرآة، حرك رأسه في استنكار، وتمتم محذرًا-:

-فلتتوقف عن تلك التراهات التي يضخ بها عقلك، ولتركز جهودك على أن تتخرج هذا العام لتتخلص من إهانات والدك وتلميحاته خاصة مقارناته بينك وبين أدهم.

تنهد ثم اتجه إلى مكتبه الصغير الذي يأخذ حيزًا من الغرفة، ولا بد أن التراب قد تراكم عليه من قلة استخدامه، لن يتعجب إذا نسج العنكبوت شباكه عليه، ألقى كتبه فوقه وبدأ في الاستذكار بعيدًا عن كل ذلك الهراء الذي يدفعه دفعًا للتفكير في هذه الفتاة.

***

تساءلت الجدة في قلق:-

-ما السبب الذي قد يدفعهم لاستدعاء خالد؟!

أجابت مريم تطمئنها:-

-لا داعي إلى القلق، لا بد أنه سوء فهم.

بينما ناهد فلم تكن تشاركها تفاؤلها بأن الأمر مجرد سوء تفاهم، فلا بد أن خالد قد فعل أمرًا يستدعي مجيء العسكري إلى المنزل، فطيلة فترة زواجهما لم تكن عمياء عن قذارة زوجها، ولكنها فضلت أن تتغافل عنها من أجل المال والمكانة التي تحظى بها وهي زوجة له ومن أجل بناتها.
تعددت خياناته لها، ولكنها دائمًا ما كانت تعلم، فليس هناك امرأة تجهل حقيقة زوجها، وأي نوع من الرجال يكون، كان يملك دائمًا هذا الضعف اللعين تجاه النساء لكن بالطبع لم تكن تستهويه العاهرات كانت الخادمات نوعه المفضل..فكم من مرات شهدت تحرشاته بالخادمة فتتحجج بأي شيء لطردها وهكذا دواليك، لطالما لعنت حظها الذي لم يجعل محمد الابن الأكبر من نصيبها، وكم كانت سعادتها عظيمة في تلك اللحظة قبل أعوام طويلة..اللحظة التي شهدت دمار حياة مريم، وجعلتها تفقد كل ما حسدتها عليه دومًا.
انتزعها من شروها دخولهم إلى المنزل، تأملتهم لم يكونوا متشابهين فقط الأعين ربما، فمحمد رغم كبر سنه إلا أنه مازال وسيمًا بخصلات الشعر الأبيض التي غزت رأسه منذ أعوام، سيف كان أقصر قليلا منه، لم يكن وسيمًا فقط مقبولا، ولكن الخبث كان ومازال في شخصيته، بينما زوجها لم يكن ذلك الرجل الذي تتهافت عليه النساء، فلولا ماله لم تكن هناك عاقلة تتزوج به خاصة مع طباعه البشعة القاسية.

أنصتت في ترقب عندما بدأت أسئلة والدتهم تنهمر عليهم في قلق. قال محمد مطمئنًا إياها بجدية:-

-لا داعي للقلق يا أمي، لقد كان سوء فهم وقد تم حله.

لم تصدق مريم ذلك، فهي أعلم الناس بطبيعة محمد فهو ممن لا يجيدون الكذب، أو ربما هي فقط من تمتلك مهارة كشفه.

تلاقت نظراتهما، لترتسم ابتسامة ساخرة على شفتيه بينما نظراته فتحمل قسوة تولدت بفعل مرارة الأعوام، كانت أول من مزق ذلك الاتصال بين عينيهما، وقد أصابتها نظراته في مقتل، فرؤية الشخص الذي أصبح عليه تؤلمها في كل مرة برغم أنه لم يكن ذنبها أبدًا.

خيم صمت غير مريح، لم يجرؤ أحد على قطعه وقد لاحظوا نظرات كلا من محمد ومريم، تأملت ناهد سيف وقد أصابها الفضول لتعرف رد فعله، لتجده يتأملهما في سعادة وابتسامة قاسية تعتلي شفتيه وكأنه يستمتع برؤية مشاعرأخيه المُحرمه تجاه زوجته.

سيف يشبه كثيرًا زوجها في قسوتهما وأخلاقهما الفاسدة، دائمًا ما شعرت بالحيرة وأصابها التساؤل إذا كان محمد أيضًا يمتلك مثل هذا الجانب المظلم.

اخترق الصمت اندفاع تلك الفتاة الشابة إلى داخل المنزل، وكانت ملامحها تحمل غضبًا شديدًا، وقد تجلى ذلك في احمرار وجهها، واشتعال نظراتها.

تساءلت الجدة بنبرة لطيفة:-

-ماذا حدث يا سارة لتصبحي غاضبة هكذا؟

صاحت سارة في غضب، وكأنها كانت تنتظر ذلك السؤال منذ دهر:-

-ذلك الحقير في كليتي، تجرأ على إهانتي، سوف أجعله يدفع الثمن غاليًا وإلا فلن أكون سارة الحداد.

تأملتها ناهد في سخرية - سارة خالد الحداد - النسخة الصغرى منه؛ امتلكت كلا من غروره واستهتاره.

تساءلت مريم في حيرة:-

-لماذا أهانكِ، ماذا حدث؟

ردت سارة، وما زالت تشتغل غضبًا كلما تذكرت هذا الموقف:-

-تلك الغبية قد سكبت العصير فوق حذائي الثمين الذي أحضره لي أبي من إيطاليا، فأخبرتها أن تنحني وتمسحه، وفجأة تدخل هذا وبدأ بإهانتي رغم أن الأمر ليس من شأنه.

ظهر الاستنكار على ملامح كلا من الجدة ومريم وقد اتفقتا في صمت على إنها المخطئة بينما السخرية كانت واضحة على ملامح سيف وناهد أما محمد فقد بدا غير مبالي.

قال خالد مربتًا على رأس ابنته:-

-لا تقلقي يا صغيرتي، سوف أجلب لكِ حقك منه.

ارتسمت ابتسامة سعيدة فوق ثغرها، وضمته بقوة قائلة:-

-أنت الأفضل يا أبي.

ركضت إلى غرفتها مبتهجة بأن ذلك المغرور سوف يدفع الثمن، وما زالت كلماته ترن في أذنها:-

-إنها ليست خادمتكِ فلتنظفي حذائكِ بنفسك، يكفي إنها قد اعتذرت إليكِ رغم أن شمطاء مثلكِ لا تستحق ذلك الاعتذار.

كادت أن ترد عليه ولكنه قاطعها متابعًا سيل إهاناته:-

-أنتِ فقط فتاة مدللة لا تفعل شيئًا بدون مال أسرتها، أنا أحتقر أمثالكِ حقًا.

ثم أعقب كلامه بإلقاء المحرمة في وجهها.

ابتسمت في استمتاع وهي تتخيل ملامح وجهه عندما يدفعه والدها إلى الاعتذار إليها؛ ليعلم الجميع عقوبة من يتخطى حدوده مع ابنة عائلة الحداد.

***

جلست على حافة الفراش، واضعة رأسها بين راحتيها، وقد أنهكتها المواجهة اليوم، برقت عيناها في غضب وعبرة تسللت فوق وجنتها عندما تذكرت إهانات المحامي، ولكن صبرًا فسوف يروا من سوف يضحك أخيرًا، فالعدالة سوف تتحقق قريبًا جدًا.

-تلك الفتاة يجب أن تخرج من منزلي حالا، ذلك قراري النهائي.

تعجب مراد من حدة والدته، وتساءل في حيرة بينما يتفحص ذلك التعبير الغير مقروء على ملامحها:-

-لماذا؟!

صاحت الأم بغضب:-

-هل حقًا تسأل هذا السؤال، كيف تضع فتاة مثل تلك تحت سقف واحد مع شقيقتك؟

ظلت علامات عدم الفهم على وجهه لتردف بنبرة مهينة:-

-لقد سمعتكما اليوم، لقد تحدثتما عن الذهاب إلى القسم، أي مصيبة قد فعلتها تلك الفتاة تتطلب الذهاب إلى القسم؟

كاد أن يرد بحدة، ولكن دخول منى إلى غرفته منعه، قال بحدة:-

-منى، اتركينا قليلا.

-هل تشاجرتما مع شيماء؟

نظر إليها بحدة وقال:-

-لماذا تقولين هذا؟ إنها في الغرفة منذ أن عدنا من الخارج.

-لقد وجدتها عائدة من غرفتك، وقد كانت تبكي.

رمق والدته بنظرات غاضبة، وقال بمرارة:-

-أنتِ فقط لا تعرفين شيئًا.

أسرع إلى غرفتها ليجدها في كامل ثيابها، تجلس على حافة الفراش بينما نظراتها تائهة في الفراغ، وقد بدت ضائعة للغاية بشكل مزق قلبه.

جلس بجوارها في صمت، وقد كان شديد الإحراج من كلمات والدته الجارحة، لم يعرف كيف يبدأ إعتذره، ولكنها رفعت عنه ذلك الحرج بأن قالت بهدوء:-

-يجب أن أغادر يا مراد.

التفت إليها وقال بنبرة متوسلة:-

- سوف تفهم الحقيقة أعدك بذلك، أنا اعتذر حقًا نيابة عنها، لكن لا تذهبي..

ابتسمت بشحوب، وقالت بدون أن تنظر إليه:-

-لقد كنت دائما أخًا صالحًا يا مراد...

أردفت في تهكم:-

-لكن ليس لأنك تثق في كلماتي، فالجميع سوف يثق أيضًا، وأنا لا أعتقد أن أخبارك لوالدتك بالحقيقة سوف يقلل حذرها مني، ولذلك...

التفتت إليه، وتأملته بنظرات حانية بينما تتابع:-

-لا أستطيع البقاء هنا، لقد تعرضت للإهانة كثيرًا في منزلي فلن أكرر ذلك الخطأ مرة أخرى، يجب أن أذهب.

واجه نظراتها بأخرى حائرة، وكل ما يدور في ذهنه من أفكار هو أن يمنعها من المغادرة بأي طريقة كانت؛ فقد كان أكثر الناس إدراكًا إنها لا تمتلك مكانًا للذهاب إليه.

برقت عينيه بفكرة فنظر إلى عينيها، وسألها بنبرات واثقة وبدون أي تردد:-

-هل تتزوجيني؟!

الفصل الخامس

-هل تتزوجيني؟

جحظت عيناها، وفغرت فاهها في ذهول حقيقي، لو كان الوضع مختلفًا لانفجر مراد ضاحكًا على تعبير وجهها المذهول.

ظلت لحظات على وضعها ثم ارتفعت ضحكاتها في هيسيترية، كان يتأملها في صدمة فهو لم يتوقع رد فعل كهذا.

كانت تضحك بمرارة بدون أي استمتاع حقيقي، ولم تمر دقائق حتى انفجرت باكية، وتعالت شهقاتها مما أصاب مراد بالارتباك كعادة الرجال أمام عبرات النساء.

قال في ارتباك محاولا أن يهدئها:-

-شيماء..أرجوكِ اهدئي، أنا لم أقصد أن أضايقكِ حقًا..توقفي عن البكاء أنا آسف حقًا.

استمرت في نحيبها ليستطرد في توسل:-

-هل سبب بكائكِ هو طلبي؟! أنا أسف، فقط اعتبريني لم أنطق بشيء.

بعد لحظات هدأ نحيبها لتنظر إليه وبقايا العبرات فوق وجنتيها، تتأمل القلق والتوتر الباديان على محياه، وعلى غير المتوقع ارتسمت ابتسامة حانية فوق ثغرها، وقالت بنبرة صادقة ممتنة:-

-أنت أخ رائع؛ وربما لذلك أنا أرفض طلبك هذا، الذي أثق في سببه، وإن...

صمتت برهة ثم تابعت في ألم:-

-وإن كان الوضع مختلفًا لكنت رفضت أيضًا؛ كلانا يدرك إنه يستحيل حدوث ذلك.

تساءل في خزي بينما يتجنب النظر إليها:-

-بسبب ماضيّ، أليس كذلك؟

لم تتغير نظراتها الحانية وأجابت في صدق:-

-بالطبع لا، أنت شخص رائع، وأنا أكثر الفتيات حظًا لوجودك بجواري، ولكنك أخي العزيز والذي أثق إنه سوف يكون بجواري دائمًا.

لم يجد كلمات تعبر عن شعوره الآن، لا ينكر إنه لا ينظر إليها كامرأة، فالأمر كأنه يطلب من شقيقته الصغرى "منى" أن تشاركه حياته، وإن لم يكن هناك رابطة دم بينهما، ولكن جراحها وآلامها تصيبه في مقتل، لو يملك أن يفديها بحياته لما تردد ثانية واحدة.

قال بنبرة حانية بعد فترة من الصمت الطويل:-

- أنتِ تدركين أني لن أتخلى عنكِ أبدًا، أليس كذلك؟

أومأت بدون تردد بينما تكفكف عبراتها بكفها، ليتابع في صدق:-

-مهما قالوا أو فعلوا لن أترك جانبكِ أبدًا.

أطلقت زفيرًا عميقًا، وقالت بنبرة مترددة:-

-أنا أثق في ذلك، ولكن يجب أن أغادر ذلك المنزل.

أردفت عندما ظهر الاعتراض والرفض التام على ملامحه:-

-والدتك لا ترغب في بقائي، وأعتقد إنها محقة، أنا...

قاطعها بنبرة حازمة:-

-لن أسمح لكِ بالذهاب، أنا أستطيع التكفل بوالدتي، لذا لا تهتمي بالأمر.

اعترضت بقلق:-

-لكن...

لم يسمح لها بأن تتابع كلماتها وقال منهيًا ذلك الحوار:-

-ارتاحي قليلا، لقد كان يومًا عصيبًا، ولا تفكري في أي شيء.

خرج تاركًا إياها تستلقي على الفراش في إرهاق نفسي أكثر من كونه بدني برغم عدم اقتناعها بكلمات مراد وقدرته على إقناع والدته ولكنها لم تملك أي خيار، احتضنت نفسها تهدهدها حتى تخلد إلى النوم، مطمئنة إياها أن لها أخًا لن يسمح بإيذائها مرة أخرى.

***

وجد والدته تنتظره في غرفته وقد ظهر عليها نفاذ الصبر، بينما الضيق يعتلي ملامحها، ما أن رأته حتى انتفضت تهتف في غضب:-

-متى سوف تغادر؟

أجاب في فتور بدون أن ينظر إليها:-

-لن تغادر.

-هل تخالف أمري من أجلها؟!

زفر في ضيق ثم قال بجدية بالغة:-

-يا أمي إن تلك الفتاة التي لا ترغبين في بقائها هنا هي السبب في وجودي أمامكِ حيًا الآن.

تابع في ألم، وقد أجبرته على تذكر ماضيه:-

-تذكري تلك الأيام التي كان يصيبكِ الفزع من أن أسبب أي أذي لـ"منى".

اغرورقت مقلتيها بالدموع وهي تستعيد تلك الأيام المؤلمة للغاية، تلك الليالي التي قضيتها ساهدة؛ خوفًا على طفلتها من إدمانه. كانت عندما تقرأ عن فلان الذي قتل شقيقته، وغيرها من الحوادث فتزداد مخاوفها حتى استقرت في غرفة منى، ولم تكن تفارقها أبدًا خوفًا من أن يؤذيها بينما هو تحت تأثير تلك المخدرات التي كان يتناوب على أخذها.

ركع بجوار مقعدها وقال بنبرة متوسلة:-

-لن أستطيع إخباركِ عن سبب ذهابنا إلى القسم، ولكن تأكدي إن شيماء ليست بفتاة سيئة، لقد ساعدتني كثيرًا من قبل، وقد حان الوقت لأدفع ذلك الدين، لذلك أرجوكِ تعاملي معها بطريقة حسنه...من أجلي.

أومأت وكفكفت عبراتها بكفها، فتذكرها لتلك اللحظات من الماضي كان كافيًا لإذابة قسوتها ودفعها إلى الشعور بالامتنان تجاه شيماء.

اتجهت إلى غرفتها في هدوء تاركه مراد وحيدًا تهاجمه الذكريات بكل شراسة، كان يظن بعنفوان الشباب إن المخدرات لن تخضعه أبدًا، وإنه سوف يحتفظ بشخصيته الدافئة رغم كونه لعوبًا، ولكنه كان فقط يتجه إلى الحافة مغلق العينين حتى انتهى أمره بجرعة زائدة كادت تودي بحياته ملقي في صندوق قمامة ضخم.

كان يغازل أي أنثى يقع نظره عليها، ولم تكن بمغازلات بريئة، ما أن ترفضه فتاة محترمة حتى ينعتها بأبشع الألقاب، ويتهمها زورًا، فتبدأ الجامعة بأكملها في تناول قصتها، وتصير كالعلكة في أفواههم.

تنهد في أسى، ألتقط حقيبته الصغيرة وغادر المنزل كما سبق أن أخبر والدته، وقد أطمئن أخيرًا إلى تقبلها لشيماء بدون أن يشعر بأي تأنيب ضمير لكونه استغل ذكريات الماضي ليدفعها إلى ذلك، فذلك كان السبيل الوحيد وقد اتخذه.

***

خزانة صغيرة وخلال بابها النصف مغلق طفلة صغيرة تتأمل ما يحدث في الخارج بأعين جاحظة فزعة، رأتها تصيح بهيسترية بالغة:-

"دعني وشأني، أرجوك..فقط دعني"

كانت تصرخ، تتلوى وتنازع بشراسة حتى تتخلص من ثقل جسده فوق جسدها.

شهقت بعنف، وانتفضت جالسة فوق الفراش تتصبب عرقًا رغم برودة الجو، وجسدها يرتجف بعد ذلك الكابوس المؤلم. ظلت دقائق شاردة، تشعر بالخوف الشديد، وقد بدا ذلك على وجهها الشاحب.

انتفضت مرة أخرى عندما ارتفع رنين هاتفها لينتزعها من مخاوفها، التقطته بأيدي مرتجفة.

لم تتعرف على الرقم، ردت بحذر لتسمع صوت أنثوي رقيق قائلا:-

-هل شيماء معي؟

أجابت في حيرة بدون أن تتعرف على هوية محدثتها:-

-أجل، من؟

-ربما لا تتذكريني، ولكني ممرضة في المشفى حيث تم نقلكِ بعد حادث السيارة الذي أصابكِ.

ظهر عليها التعجب خاصة أن ذلك اليوم لم يكن أفضل أيامها لتتذكره، ولكنها أجابت باختصار:-

-أجل، أتذكر.

قالت شهد في اهتمام انعكس على صوتها:-

-كيف حالكِ الآن؟

- بخير، لم يتغير شيء.

كان رد شيماء المختصر كافيًا لمنع شهد من الاسترسال في حديثها، ولكنها قررت مسبقًا توطيد علاقتها بها مدفوعة بقلبها الطيب القلق دائمًا على الآخرين، قالت بلطف:-

-لقد أخذت رقمكِ من أخيكِ حتى أستطيع أن أطمئن عليكِ.

أردفت في خجل:-

-أتمنى أن هذا لم يضايقكِ.

تساءلت شيماء في حيرة:-

-أخي؟!

-أجل الشاب الضخم الذي كان معكِ.

ظهر على ملامحها الفهم وقالت بتلقائية:-

-إنه ليس أخي الحقيقي، ولا لم يضايقني الأمر، شكرًا على سؤالكِ.

كانت ردود شيماء لا تعبر عن شخصية ودودة، ولكن شهد كانت مؤمنه بأنه يجب عليها أن تصاحبها منذ اللحظة التي سمعت بها صراخها في المشفى وقد جعلها ذلك تكون رؤية عامة عما تعرضت له.

اندفعت قائلة في تلقائية:-

-قد يبدو ذلك غريبًا للغاية، ولكني أرغب كثيرًا في أن نصبح صديقتين.

صمتت شيماء قليلا، وظهر على ملامحها التردد، ولكن لدهشتها فقد استجابت لمحادثاتها بدون وعي فأي شيء أفضل من العودة إلى كوابيسها مجددًا فأخبرتها شهد القليل عن نفسها وفي المقابل تحدثت شيماء عن مراد العائلة الوحيدة التي تمتلكها واعتنائه بها حينها تطرقت إلى وجودها في منزله مع أسرته، ولا بد أن عدم الارتياح قد انعكس في صوتها فقد اندفعت شهد قائلة:-

-لماذا لا تسكني معي؟

أسرعت تردف قبل أن ترفض:-

-أنا أسكن في شقة بجوار المشفى الذي أعمل به أما عطلة نهاية الأسبوع والعطلات الرسمية فأقضيها مع أسرتي.

تذكرت شيماء في قلق كلمات والدة مراد التي ترفض وجودها تمامًا مهما أنكر مراد ذلك، وتمتمت في تردد:-

- لكن...

قاطعتها في حماس:-

-لا تعترضي أرجوكِ، سوف أسعد كثيرًا بوجودكِ، أرجوكِ وافقي.

لم تدرك شهد سر الثقة التي تشعر بها تجاه شيماء ربما تشفق عليها أما الأخيرة فقد كانت تفكر في وضعها الحالي ثم قررت إنها لا ترغب في أن تظل حملا ثقيلا على كاهلي مراد، يكفي أنه سوف يظل بعيدًا عن منزله بسببها، وبسبب عجزها عن إيجاد منزل لنفسها فوجدتها فرصة مناسبة وبرغم الخوف الذي يجتاحها إلا إنها قد قالت بخجل:-

-حسنًا، ولكن بشرط أن نتقاسم كل المصاريف.

- كما تريدين، لن أعترض، أنا سوف أكون سعيدة للغاية بوجودكِ يا شيماء.

ابتسمت شيماء بخفوت للهفتها الواضحة في صوتها، وقالت بلطف:-

-غدًا بعد الذهاب للنيابة سوف ألقاكِ.

لم ترد أن تسبب لها أي حرج بأن تسأل عن تطورات قضيتها، ولذلك فقد اكتفت بأن قالت:-

-سوف أرسل لكِ العنوان في رسالة، وإذا واجهتي أي مشكلة مع العنوان أخبريني، إلى اللقاء.

-إلى اللقاء.

انتهت المحادثة بمشاعر شهد السعيدة بصديقتها الجديدة التي ما أن رأتها حتى رغبت في التقرب منها، بينما على النقيض فقد كانت شيماء قلقة من رد فعل مراد؛ فهي تدرك إنه يأخذ مسؤوليته بجدية بالغة، وكأنها شقيقة حقيقية له بالإضافة إلى قلقها من وجودها في مكان واحد مع شهد فماذا إذا لم تكن شخصًا جيدًا؟!

تنهدت وتمددت فوق الفراش مرة أخرى ربما يجب أن تثق في حدسها هذه المرة، التفتت إلى ساعة الحائط لتجدها التاسعة مساءًا، خرجت من الغرفة في تردد لكن لحسن الحظ لم يكن هناك أحد بالخارج، وجدت طعام موضوع فوق الطاولة وأمامه ورقة من منى تخبرها أن تتناول الطعام وأنه لا يوجد أحد في الشقة حيث ذهبت إلى الدرس بينما والدتها فتزور خالتها.

ابتسمت بتردد رغم الخوف الذي بدأت تشعر به لمجرد وجودها في المنزل وحيدة، جلست وبدأت تتناول الطعام..بضعة لقيمات تكفي لإبقائها على قيد الحياة ثم عادت سريعًا إلى غرفتها، وبعد ساعات طويلة استطاعت خلالها سماع صوت عودتهما إلى المنزل ثم قضت باقي الوقت جالسه تتأمل الفراغ لا تأتي بأي حركة...فقط حركة صدرها الدليل الوحيد على كونها حية، ومع اقتراب الساعة من منتصف الليل استسلمت للنوم وقد وجدت فيه مهربًا جيدًا من كل تلك الأفكار التي تملأ عقلها ضجة وصخبًا.

***

دلفت شيماء إلى مكتب وكيل النيابة لتجد خالد يجلس بكل أريحية واسترخاء، وأمامه كوب من القهوة، يجاوره محاميه الفظ؛ الذي لن يتوانى أبدًا في فعل المستحيل حتى يثبت براءة موكله؛ لذلك كان مكتبه مقصد كبار رجال الأعمال والساسة.

جلست في المقعد المقابل للمحامي، رغم الرجفة التي تسري في جسدها، والخوف المسيطر عليها إلا إنها حاولت التماسك وادعاء قوة لا تمتلكها حقيقة، تجنبت النظر إلى ذلك الوغد حتى لا تفقد السيطرة على نفسها.

قال المحامي ما أن دلفت شيماء:-

-حسنًا، سوف ننتظر في الخارج إذًا.

نهض كلاهما بدون أن يبالي خالد بالنظر إلى شيماء وقد بدت الثقة على ملامحه، وكأنه يؤمن أنه لم يرتكب حقًا أي خطأ يُعاقب عليه.

ما أن خرجا حتى التفت وكيل النيابة إلى شيماء، وبدأ التحقيق قائلا بروتينية بينما يدفع بطاقتها الشخصية إلى سكرتير التحقيق الذي يجلس بجواره:-

-ما سنك وتخصصك الوظيفي تحديدًا يا شيماء؟

-عشرون عامًا، كنت أعمل بائعة في متجر لبيع الملابس النسائية في مركز للتسوق.

-هل يمكنك إخبارنا بما حدث في تلك الليلة؟

تنفست بعمق، وقالت بهدوء:-

-لقد عدت من منزلي لأجده يجلس مع شقيقي، لم أهتم في بادئ الأمر، دلفت إلى غرفتي وبدلت ثيابي ثم وضعت وشاح فوق رأسي لتقديم مشروب له، ولكنه اقتحم غرفتي وقيدني في الفراش وكمم فمي ثم...

أردفت والعبرات تتجمع في عينيها:-

-ثم اغتصبني.

كان كل حرف تنطق به يتم تدوينه، قال وكيل النيابة بينما يتفحص محضر الشرطة الابتدائي:-

-ولكنكِ لم تذكري إنكِ بدلتي ثيابكِ قبل أن تخرجي له في محضر الشرطة.

ظهر التشوش وعدم الفهم في عينيها ثم قالت بنبرة تائهة:-

-آسفة، أنا مرتبكة قليلا، ولعلي نسيت بعض التفاصيل.

-أين وجدتي الصورة مرة أخرى؟

-كانت على الأرض بجوار الخزانة.

تساءل في شك:-

-ألم تكن بجوار الفراش؟

نظرت إليه في حيرة ليتجاوز الأمر ويقول منهيًا التحقيق:-

-هل لديكِ أقوال أخرى؟

وما أن حركت رأسها في رفض وارتباك حتى طلب منها أن تنتظر في الخارج حتى ينتهي من استجواب خالد، خرجت وما زال ذلك الشعور يكتنفها منذ أن أوضح وكيل النيابة ذلك الخطأ الذي ارتكبته، فكيف لها أن ترتبك وتنسى بعض التفاصيل عن ليلة مثل تلك الليلة التي وضعت بصماتها على حياتها بأكملها.

- ما سنك وتخصصك الوظيفي تحديدًا؟

-خمسة وأربعون عامًا، شريك في شركات الحداد للمنشآت الهندسية.

-ما قولك فيما هو منسوب إليك من أنك متهم باغتصاب الضحية/شيماء عبد الفتاح في منزلها، وتحت استخدام العنف الجسدي معها؟

أجاب خالد في هدوء بدون أي ارتباك:-

-لم يحدث.

- ما تفصيلات ما حدث وما هي ظروف عرضك علينا؟

أجاب خالد بفتور:-

-لقد كنت في منزلي ثم جاء شرطي بطلب استدعاء إلى قسم الشرطة، ولقد كانت صدمة لي فأنا حتى لم أرى تلك الفتاة في حياتي.

-أين كنت في ليلة الأربعاء الموافقة الثاني من مارس؟

رد بهدوء:-

-كنت في شركتي فقد كان العمل كثيرًا ذلك اليوم، واضطررت للبقاء في الشركة لوقت أطول.

تساءل وكيل النيابة:-

-هل هناك أي شهود على ذلك؟

أجاب خالد وابتسامة واثقة تعتلي ثغره:-

-أجل، مساعدي الشخصي والقليل من موظفيني.

-هل لديك أقوال أخرى؟

-لا

أومأ وكيل النيابة في هدوء وقد بدا على ملامحه التفكير العميق حتى قال المحامي بحزم:-

-كما أخبرت سيادتك إن تلك القضية مُلفقة فموكلي لا يعرف تلك الفتاة.

أردف مشيرًا إلى ما ذكرته شيماء في محضر الشرطة، والذي قد حصل على نسخة منه سابقًا، بأن خالد همس لها بأن ذلك عقاب من ترفضه أثناء اغتصابه لها:-

- كما هو واضح أن أوساطهما الاجتماعية مختلفة فبالتالي يستحيل لقائهما كما ادعت من قبل.

دلفت أخيرًا شيماء، وجلست في مواجهة خالد ومحاميه، جرحت أظافرها باطن كفها؛ حيث ضمت قبضتيها بقوة في توتر.

قال وكيل النيابة بحزم:-

-في يوم الأحد الموافق السادس من مارس حضر أمام سرايا النيابة كلا من شيماء عبد الفتاح وخالد الحداد، والذي قد تم اتهامه من قبل الأولى بالاعتداء الجنسي، ولذلك قد قررنا الآتي:- عرض المجني عليها/ شيماء عبد الفتاح على الطب الشرعي يوم الاثنين الموافق السابع من نفس الشهر، وإفادتنا بالنتيجة وعلى أثرها سوف نقرر ضرورة استدعاء شقيقها السيد/ محمود عبد الفتاح، بالإضافة إلى إخلاء سبيل المتهم/خالد الحداد بضمان محل إقامته.

اعترضت شيماء في غضب:-

-كيف تتركوه يغادر هكذا؟!

صاح وكيل النيابة:-

-أنا هنا وكيل النيابة ليس أنتِ.

كزت على أسنانها في غضب وبعدما انتهى المحضر حتى غادرت سريعًا قبل أن تخذلها قوتها الواهية، لم تلتفت إلى نداء مراد بل اتجهت مباشرة إلى سيارته، جلس بجوارها في صمت، حتى هدأت رجفاتها وانتظمت أنفاسها، وقبل أن يسأل قالت بغضب شديد:-

-لقد أمر وكيل النيابة بأن يغارد بضمان محل إقامته، كيف يفعل ذلك، كيف يسمح له بالرحيل؟

قال بنبرة هادئة:-

-لا داعي للقلق يا شيماء، فقط بعدما تخضعين لفحص الطب الشرعي سوف يكون لدينا دليلا قويًا لوضعه في السجن.

كان تقرير الطب الشرعي هو أهم خطوة في القضية فحينها سوف يتم أخذ قضيتها بجدية وربما استدعاء محمود وإجباره على الاعتراف بما حدث.

كلماته كانت كافية لتمدها بالشجاعة لتومأ بعدما ابتسم مشجعًا إياها، يبتهل أن تنتهي القضية في صالحها.

أضافت بخجل فجأة:-

-لقد وضعت عنوانك في البيانات، لم أعرف ماذا أفعل غير هذا؟

ابتسم بدفء قائلا يطمئنها:-

-لقد أحسنتي بفعل هذا.

نظرت إليه في امتنان واضح ثم نظرت إلى الطريق أمامها تفكر في اليوم الذي سوف تتخلص فيه من تلك الكوابيس عند وضع خالد الحداد في السجن.

***

تساءل في قلق مجددًا بينما يتفحص وجهها بحثًا عن إجابة صادقة وقد عجز عن تصديق إنها تريد حقًا ترك المنزل للبقاء مع الممرضة التي لا تعرفها:-

-هل ضايقتكِ والدتي مرة أخرى؟

حركت رأسها في رفض، وقالت:-

-لا، لكن شهد كلمتني واقترحت ذلك علّي، وأنا شعرت بالراحة أثناء التحدث معها كما إنها تعيش وحيدة في تلك الشقة.

رمقته في توسل واستطردت:-

-أرجوك وافق من أجلي، سوف أشعر بالراحة أكثر هكذا.

تنهد بضيق فقد كان راغبًا في الاعتناء بها، ولكنه أومأ موافقًا؛ لعل وجودها مع فتاة في مثل عمرها يساعدها على تجاوز المحنة التي مرت بها رغم إنه ليس شديد الثقة باندفاع تلك الفتاة "شهد"، ربما قد بدت بلهاء قليلا في لقائهما الأول، ولكن الأمر مثير للشك أن تعرض على فتاة لم تراها إلا مرة واحدة أن تسكن معها.

رمق شيماء بطرف عينيه ليدرك إنها قد اتخذت قرارها بالفعل ولا سبيل إلى إقناعها بالتراجع فلم يملك إلا أن يتابع القيادة في استسلام.

بعد دقائق أوقف السيارة في منطقة راقية، ثم تساءل بحيرة:-

-هل أنتِ على يقين إنه العنوان الصحيح؟

أومأت بتأكيد، ليتأمل المبنى أمامه مرة أخرى، فتلك الممرضة تثير حيرته للغاية، كيف لها أن تمتلك المال لتسكن في مثل هذه المنطقة؟!

ترجلا من السيارة، واتجها إلى مدخل البناء ليعترض طريقهما الحارس مستفهمًا عن وجهتهما.

-نحن من طرف شهد التي تسكن في الطابق الثالث.

ردت شيماء كما لقنتها شهد، بينما مراد فقد اطمئن قليلا لوجود حارس هنا يتكفل بسلامتهما.

ابتسمت شيماء بضعف عندما رأت شهد، برغم إنها لم تتذكر ملامحها سابقًا عندما تحدثت معها، وقد نزلت بنفسها لاستقبالهما ما أن أبلغها الحارس.

احتضنت شيماء بسعادة لا يمكن تزيفها، ورحبت بمراد بحركة من رأسها وقد ظهر الامتعاض على وجهها مما دفع ابتسامة متسلية إلى شفتيه.

ابتسمت شهد بسعادة طفولية، وهي تصيح:-

-أنا سعيدة للغاية إنكِ قد جأتِ.

بادلتها شيماء الابتسامة بشحوب، لتتابع شهد قائلة بجدية للحارس:-

-شيماء سوف تسكن معي فلتجعلها تصعد فورًا بعد الآن.

أومأ الحارس، بينما شهد فقد جذبت شيماء خلفها إلى الطابق العلوي حيث تقع شقتها بدون أن تبالي بمراد لتتسع ابتسامته، ويتجه خلفهما، والفضول يقتله

لمعرفة أسرار تلك الممرضة الغريبة، ويتمنى أن يعرفها قبل أن تُحدث أي ضرر ممكن في حياة كلا من شيماء وهو.

الفصل السادس

-أما هذه فسوف تكون غرفتكِ، يمكنكِ تغيير ما تشائين بها.

قالت شهد وقد جذبت شيماء في نهاية جولتهما في الشقة إلى تلك الغرفة الواسعة التي تضم فراش ويجاوره كومود بالإضافة إلى خزانة كبيرة تجاورها نافذة تطل على الطريق.

أردفت أمام صمت شيماء:-

- إذا لم تعجبكِ يمكنكِ الحصول على غرفتي أنا لا أمانع حقًا.

كان مراد يلحق بهما في صمت، وما زالت الحيرة تسيطر عليه؛ فتلك الشقة الأنيقة لابد إنها تُكلف مبالغ طائلة، لم يشعر بالارتياح تجاه شهد، فالأمر قد أثار العديد من التساؤلات من حولها، انتفض من أفكاره عندما قالت شيماء في امتنان:-

-إنها جميلة، ومن المؤكد لن أحب أن أغير شيئًا بها، شكرًا...

قاطعتها شهد في حزم، وهي تسبقهما إلى الخارج:-

-لا أريد أن أسمع كلمات الشكر مرة أخرى، سوف أذهب لإعداد العصير.

أسرعت إلى المطبخ بدون أن تنتظر ردهما.

لاحظت شيماء شرود مراد منذ وصولهما، رمقته بنظرة متسائلة ليبتسم لها مطمئنًا ثم قال:-

-هل سوف تكونين بخير هنا يا شيماء؟

ترددت قليلا ثم قالت:-

-أعتقد ذلك.

ثم تابعت بشرود:-

- يجب أن أعيد ترميم المتبقي من حياتي، وأتحمل تلك المسؤولية بمفردي.

تأملت الغرفة وقالت:-

-هذه سوف تكون أولى خطواتي.

تنهد شاعرًا باليأس من إقناعها لتتراجع عن قرارها وتعود معه ثم قال بجدية:-

-أعتني جيدًا بنفسكِ، إذا حدث أي شيء مهما كان صغيرًا أخبريني وسوف أكون أمامكِ في ثوانٍ.

قالت تطمئنه بدون أن تشعر بذلك حقًا:-

-لا داعي للقلق...

أردفت عندما رمقها بنظراته الحازمة:-

-لكن إذا حدث أي شيء سوف أخبرك.

أومأ بدون أن تسترخي عضلات وجهه المتوترة ثم أخرج حزمة نقود، وقال بجدية وبنبرة لا تقبل الجدال:-

-أبقيهم معكِ.

أردف في حزم عندما وجدها فتحت فاهها استعدادًا للاعتراض:-

-لن أسمح بأي اعتراض، أو فلتعودي معي الآن.

تنهدت في يأس، وأخذتهم منه، رغم إنها لا تمتلك إلا النقود التي خرجت بها من المنزل في تلك الليلة إلا إنها لم ترد أن تزيد من ثقل دينها تجاه مراد.

-شيماء، هل أنتِ تشعرين بالارتياح تجاه تلك المسماة "شهد"؟

-وما شأنك أنت أيها المتطفل؟! هل كانت لتبقى معي إذا لم تكن تثق بي؟

قالت شهد بغضب، وعينيها تنفث نارًا ثم تابعت بضيق:-

-هل تجدني شخصًا مثيرًا للشك إلى تلك الدرجة؟

لم يهز غضبها شعرة واحدة من رأسه، وقال ببرود واستفزاز:-

-أجل أعتقد ذلك، ولا أرتاح لكِ أبدًا، ولا بد أن يكون هناك سببًا منطقيًا لذلك، ألا تظنين؟

ارتجفت من شدة حنقها وغضبها ثم صاحت به:-

-أنا لا أهتم برأيك من الأساس، من أنت حتى أهتم برأيك عديم الأهمية؟!

رمقها في برود ثم رد بعدم اكتراث:-

-إذا لم تكوني مهتمة برأيي فلماذا أغضبكِ الأمر؟!

فتحت فمها، لكن لسانها الطويل خذلها لأول مرة فلم تجد ردًا لكلماته، ضربت الأرض بقدميها وصاحت في غضب طفولي:-

-أنت شخص مستفز، ووقح أيضًا.

عقد ساعديه أمام صدره مبتسمًا ببرود قائلا:-

-ماذا أيضا، أكملي؟

رمقته في غضب وحنق ثم ركلت الأرض بقدمها كطفلة في السادسة وخرجت من الغرفة تتمتم في تذمر، وازداد غضبها عندما وصل إلى أذنها ضحكته المستمتعة.

كان الشعور المسيطر على شيماء هو الذهول الحقيقي بينما تتابع ذلك الصراع بالكلمات، فمراد ليس بالشخصية المستفزة في العادة، ولكنه أبدا استمتاع كبير وهو يثير غضب شهد.

تأملت ضحكته الرنانة، والتي مر وقت طويل على سماعها لها، فدائمًا ما كان يبتسم ابتسامة هادئة حنونه أما الضحك فقد فارقه منذ فترة.

اعتلت الحمرة وجنتيه أمام نظراتها المتعجبة وقال مرتبكًا:-

-هي من أثارت حنقي.

ابتسمت شيماء بهدوء ثم خرجت من الغرفة، تبعها إلى الردهة ليجد شهد تجلس عاقدة ساعديها أمام صدرها، وتضم فمها في ضيق طفولي، تعلقت نظراته بها لفترة لا بأس بها، حتى شعر بنظرات شيماء التي ما زالت تتعجب من تصرفاته الغريبة والتي تشهدها لأول مرة فأرتبك وقال:-

-سوف أغادر الآن.

كانت إجابة شيماء ابتسامة لطيفة بينما شهد فقد حركت رأسها متجاهله إياه مما أشعره بالذنب؛ لأنه ضايقها إلى هذا الحد فقال بتردد:-

-هل يمكنني أن أكلمكِ على انفراد يا شهد؟

رمقته بتعجب من هذا الطلب المهذب، بالأخص وهو يخرج من فمه الوقح، تغلب فضولها على غضبها لتتبعه إلى خارج الشقة، وقفت أمامه بينما يعطي ظهره للمصعد.

صمت برهة ثم قال بنبرة معتذرة:-

-لم أكن أقصد أبدًا أن أثير غضبكِ إلى هذا الحد، ولكن...

صمت قليلا يرتب كلماته بينما هي فقد كانت مذهولة من ذلك الاعتذار الذي لم تتوقعه أبدًا.

أردف بنبرة حانية:-

-أنا أعتبر شيماء كأخت صغيرة لي، وما حدث لها قد أصابني في مقتل؛ لأني عجزت عن حمايتها، لذلك أريدكِ فقط أن تتفهمي مشاعري، فربما هذا ما قد دفعني إلى أن أكون وقحًا ومشككًا كما سبق وأن قلتي..

كلماته البسيطة حازت على احترامها؛ وهي الفتاة التي لم يكن لها يومًا أخًا أكبر يحنو عليها أو أبًا يحميها مثله.

انتصرت طباعها اللطيفة في نهاية المطاف، وأجابت بدون أي ضغينة:-

-لا داعي للقلق، أنا أهتم لأمرها حقًا، سوف أعتني بها جيدًا، ولن أتسبب قط في إيذائها.

ابتسامة ارتسمت فوق ثغره دافعه دقات قلبها إلى التسارع، وكأنها في سباق، بينما عيناها فلم تجد مشهدًا أجمل من ابتسامته التي زادت من وسامته فظلت تحملق به في بلاهة.

قال بنبرة لطيفة كادت أن تُهلكها:-

-شكرًا يا شهد.

صمتت قليلًا في شرود ثم ردت بعدما تمالكت نفسها حتى تتوقف عن الحملقة به، وكأنها المرة الأولى التي ترى بها رجلًا:-

-لا تقلق أبدًا، ولا داعي إلى الشكر..

لم تتزحزح ابتسامته بل اتسعت بينما يلتفت مغادرًا، وقال:-

-إذا حصل أي شيء فقط هاتفيني، إذا لم يكن رقمي مازال معكِ فيمكنكِ أخذه من شيماء.

أومأت في صمت، وظلت واقفة أمام الشقة حتى تحرك المصعد به للأسفل تاركًا إياها تحت سطوة إعجاب بشخصيته العجيبة كأنها لم تتعامل مع رجلًا من قبل بذلك المزيج المجنون من الحنان والوقاحة والتعابيرالباردة، ترى أيمتلك صفات أخرى خفية؟!

دلفت إلى الداخل حتى تقضي الوقت مع شيماء، فهي سعيدة للغاية لوجود فتاة أخرى بجوارها. تنهدت في أسى ترجو أن تستطيع مساعدتها لاسترداد حياتها مرة أخرى، وقد غمرها شعورٌ طاغي بالشفقة تجاهها.

***

تربعت شهد فوق الأريكة في غرفة المعيشة بعد أن بدلت شيماء ثيابها إلى منامة بسيطة أخرجتها من تلك الحقيبة الصغيرة، التي صممت منى سابقًا أن تحصل عليها بما تحتويها من ثياب ومستلزمات أساسية رافضة أي اعتراض لشيماء، وكم كانت شاكرة لها من أجل ذلك برغم خجلها من ارتداء ثياب منى لكن الخوف منعها من العودة إلى الشقة لجلب أشيائها ففكرة مواجهة محمود مرة أخرى أو رؤية ذلك المكان تثير فزعها.

قالت شهد بحماس:-

- لنتعرف قليلا، ونتسامر؛ فأنا أشتاق للتحدث مع فتاة في مثل عمري.

جلست بجوارها، وفي خجل أخذت تخبرها عن حياتها قبل الحادث والتي تعتبرها خالية من الأحداث، متجنبة ذكر فصل الاغتصاب؛ فتلك الذكرى ما زالت مؤلمة وجرحها لم يلتئم بعد، وكذلك تجنبت شهد أن تسألها عن ذلك اليوم الذي شَهد أول لقاء بينهما.

أنصتت إليها في اهتمام شديد، وقد ارتسم التعاطف على ملامحها فهي يافعة جدًا لتمر بكل هذا، ولكنها تجنبت أن تبوح بأي كلمة قد تسيء شيماء فهمها على إنها شفقة، وبدأت في تعريفها بنفسها قائلة بنبرة مرحة:-

-الآن دوري، أنا شهد، وكما تعرفين أعمل ممرضة، ولكن السبب لم يكن أبدًا المجموع كالكثيرات ممن حولي.

أردفت في شغف أضفى عليها جمالا من نوع خاص:-

-لقد أحببت تلك المهنة كثيرًا وما زلت أحبها؛ القدرة على مساعدة الآخرين والتخفيف عنهم لها سحر خاص، رغم أن تلك المهنة لم تحصل على حقها كثيرًا في مصر، ولكني أعشق ما أفعله حقًا.

لم تتوقف شيماء عن النظر إليها في انبهار شديد طيلة حديثها، وربما طبيعتها الصادقة تدفعها إلى أن تعترف بشعورها بالقليل من الغيرة منها؛ فكرة أن يعمل المرء ما يريده وما هو شغوف به بعيدة تمامًا عنها، ولعلها لا تعرف حقًا ما تريد تحقيقه في مستقبلها، إن وجد ذلك المستقبل!

أردفت شهد في نبرة مرحة بدون أن تلاحظ صخب الأفكار في عقل شيماء:-

-حسنًا.. بعيدًا عن عملي، أنا في الخامسة والعشرين من عمري، لدي شقيقة صغرى ما زالت تدرس، في نهاية الأسبوع والعطلات الرسمية أذهب إلى منزل عائلتي أما باقي الأيام فاسكن هنا لقرب الشقة من مكان عملي، وبرغم صعوبة إقناع أسرتي بذلك إلا أن ابن عمي تكفل بالأمر وها أنا هنا أمامكِ.

ابتسمت شيماء فلا يمكنها أن تنكر أن أسلوب شهد يدفعها إلى أن تشعر بأن علاقتهما قد مر عليها سنوات؛ فهي شخصية لطيفة تتسلل إلى القلب سريعًا. انتفضت عندما رن هاتفها، أجابت على مراد الذي كان يؤكد عليها موعد عرضها على الطب الشرعي غدًا حتى يأتي لاصطحابها برغم محاولاتها أن تثنيه عن ذلك فمراد دائمًا ما يأخذ أمر الاعتناء بها بشكل جدي.

تساءلت شهد في قلق بعدما انتهت من المكالمة:-

-هل حدث شيءٌ ما؟

أخبرتها عن محتوى المكالمة بصدق وباختصار لتبتهج ملامح الأخرى وتقول بثقة:-

-سوف يكون الأمر بخير لا تقلقي.

أومأت شيماء في هدوء، لتتأملها شهد.. لم تكن شديدة الجمال لكن وجهها الخمري، وعينيها في لون الشوكولاتة لهما سحر خاص وبريق ناعم ينبعث منهما، كانت تتعجب من هدوئها الواضح على ملامحها فقط لمحات من الألم

تظهر بين الحين والآخر في مقلتيها، ترى أهي تمر بحالة من إنكار الواقع مما يفسر صمودها العجيب حتى الآن؟!

لاحظت نظرات شيماء المتسائلة حينما طال شرودها لتبتسم بخفة وتقول بنبرة محرجة:-

-عذرًا، لقد شردت قليلا.

-لا بأس.

ثم أضافت بنبرة معتذرة بينما تترك مكانها:-

-أنا أرغب في الحصول على قسط من الراحة إن أمكن.

-بالطبع، إنه منزلكِ يا شيماء.

ابتسمت لها بخفوت ثم اتجهت إلى غرفتها، حاولت الاسترخاء فوق الفراش، تلك أسوأ اللحظات في يومها عندما تشعر بالتعب، ورغبة شديدة في الهروب من الواقع عن طريق النوم فتبدأ الهواجس تطاردها ما أن يلامس رأسها الوسادة، ترى وجهه القبيح والشهوة المقززة في نظراته، وابتسامته الباردة، فتشعر بلمساته مرة أخرى ورائحة أنفاسه القذرة.. ليلة واحدة ذُبحت بها بسكينة باردة دون أي شفقة، لتتلوى بجراحها ليالي كثيرة من بعدها.

أسوف يأتي اليوم الذي تخلد فيه إلى النوم بدون خوف من كوابيسها التي تطاردها أم حُكم عليها كمثيلاتها بالعيش تحت رحمة الخوف؟!

أنهكتها الأفكار التي تتجول بلا قيود في رأسها، وتراخى جفنيها في استسلام للنعاس الذي حاولت مقاومته كثيرًا دون جدوى.

***

كانت تتأمل العالم الخارجي من النافذة المجاورة لها بنظرات ضبابية بدون أن يترك ذلك النهار المشرق أي أثر بها، لاحظ ارتجافها في مرآة السيارة الأمامية، كانت شاحبة بشكل مؤلم منذ أن غادرا مصلحة الطب الشرعي، صمتها يؤلمه ولا يملك الشجاعة لأن يسألها سؤالا بسيطًا كـ"هل أنتِ بخير؟"

كانت ترتجف تحت وطأة الألم؛ فقد كان الكشف مهينًا بقدر ما كان مؤلمًا، وكان الأمر مخيفًا أيضًا بتلك الأسئلة التي سألها الطبيب، وقد كانت مماثلة لما سُئلت عنه في كلا من النيابة وقسم الشرطة، وذلك التعبير على ملامحه وكأنه يشكك في صحة كلامها لكنه لم ينطق بحرف أبدًا واكتفى ببدأ الفحص في صمت.

لاحظت مراد الذي لا يبعد عينيه عنها والقلق على ملامحه. تتمنى لو تملك القوة لتبادله نظراته مطمئنة إياه، تثبت له إنها ما زالت قوية، ولم تتحطم بعد. إصراره على مرافقتها وضعها في موقف حرج للغاية فرؤيته لها في تلك الحالة كان آخر ما أرادته.

قرر أن ينتزعها من ذلك السكون المُقلق فتساءل بنبرة تحمل من المرح ما يتناقض تمامًا مع قلق ملامحه:-

-كيف حال تلك النارية معكِ؟

نظرت إليه لأول مرة وتساءلت في حيرة:-

-النارية؟!

انفرجت شفتاها عن ابتسامة شاحبة عندما قال موضحًا:-

-أقصد شهد.

- إنها لطيفة.

-جيد.

خيم الصمت مرة أخرى، وعادت إلى شرودها، انتفضت في قلق عندما رن هاتفها ثم استرخت قليلا عندما وجدتها شهد، تلقت المكالمة بدون أن تلاحظ التوتر والارتباك الذين سيطرا على مراد ما أن أدرك هوية المتصل.

حاول التركيز على الطريق أمامه، وبعدما أنهت شيماء المكالمة التفتت إليه قائلة في توتر:-

-إنها تريد أن أخرج معها اليوم.

أدرك عدم رغبتها في التجول في الشوارع، فمنذ الحادثة كان يلازمها خوف من الناس من حولها في الأماكن العامة، وقد لاحظ ذلك في كل مرة يتجه معها إلى التحقيق فتنكمش لمجرد مرور شخص بجوارها.

قال بجدية:-

-أعتقد إنه يجب عليكِ أن تذهبي، أنتِ تحتاجين إلى هذا.

رفعت أعين قلقة ليبتسم بلطف مشجعًا إياها، ترددت قائلة:-

-سوف أكون أكثر ارتياحًا إذا كنت موجودًا أيضًا.

- حسنًا، إذا كان هذا سوف يطمئنك، أرسلي لي عنوان المكان وسوف ألحق بكما.

حاول أن يسيطر على تلك الابتسامة البلهاء التي تجاهد لسرقة مكان فوق ثغره، فذهابه من أجل شيماء فقط، وليس له أي علاقة بوجود شهد، وجودها لن يغير أي شيء.

***

- إننا في المقهى الآن، حسنًا إننا في انتظارك.

أنهت شيماء المكالمة، لتتساءل شهد في ارتباك:-

-هل مراد قادم؟

أومأت شيماء ثم تساءلت في قلق:-

-هل يضايقكِ هذا؟

أضافت في شرود:-

-أنا أطمأن أكثر في وجوده.

ربتت على يدها في حنان وقالت بلطف:-

-لا بأس، وجود مراد لن يضايقني أبدًا.

ابتسمت لها ثم شردت بينما تنظر إلى شاطئ البحر المواجه للمقهى الذي كان راقيًا جدًا بدرجة أخجلتها بثوبها المتواضع، بينما شهد فقد شعرت بالقليل من السعادة، فقط القليل، عندما أدركت إنها سوف تراه مرة أخرى اليوم، فهو مزيج غريب من الشخصية الساخرة والأخرى الحانية..

تتلهف للتعرف عليه أكثر، بعد الليلة السابقة التي قضيتها تفكر في سبب واحد لتلك المشاعر التي تجتاحها عند رؤيته فلم تجد إلا الفضول، ربما شخصيته الغامضة بالنسبة إليها تدفعها إلى التقرب منه لاستكشافه.

لم تمر دقائق حتى رأته يترجل من سيارته، أبعدت عينيها سريعًا عندما لاحظت ابتسامته الكسولة الموجهة إليها.

ابتسمت شيماء عندما لاحظت قدوم مراد، ومرغمة اتسعت ابتسامتها عندما وجدت نظراته مُعلقة بشهد التي تنظر فيما حولها بارتباك واضح.

قال بينما يتخذ مقعدًا بينهما:-

-مساء الخير يا فتيات.

ثم التفت إلى شيماء متسائلا في اهتمام:-

-كيف حالكِ الآن؟

ابتسمت قائلة:-

-أنا بخير.

أضاف ببراءة مصطنعة:-

-وماذا عنكِ يا شهد؟

ردت باختصار، وما زالت تتجنب النظر إليه:-

-بخير.

ابتسم ملاحظًا حركة أصابعها الموضحة مدى توترها، فلم يرد أن يزيد من ارتباكها الواضح بشدة وقال بمرح:-

-إذا ماذا تطلبون؟

صاحت شهد بغبطة:-

-أريد عصير برتقال.

قالت شيماء بهدوء:-

-وأنا سوف أطلب عصير فراولة.

أشار مراد إلى النادل، وما أن أقترب حتى بدأ يملي عليه الطلبات بينما عادت شيماء إلى تأملها مرة أخرى.

-آنسة شيماء، كيف حالكِ؟

ساد صمت عميق وارتسم الذهول على ملامحهم، وقد كانت شيماء أكثرهم ذهولا فقد اتسعت حدقتيها وفغرت فاهها بينما تحملق في النادل بدون أن تتعرف عليه، ولم يبد عليه إنه لاحظ دهشتهم فقد أردف بلطف:-

- لقد مر وقت طويل منذ آخر مرة، فلم نعد نراكِ كثيرًا كما في السابق.

استطاع مراد أن يستجمع شتات نفسه وتساءل بحيرة:-

-هل تعرف شيماء؟!

-بالطبع، فأنسة شيماء زبونة دائمة هنا، ولكنها توقفت عن القدوم منذ فترة طويلة، أعتقد إنه منذ وفاة والدتها السيدة/أحلام.

أردف في مواساة:-

-البقاء لله، لقد كانت سيدة لطيفة للغاية.

ازدردت شيماء لعابها بينما شهد فقد كانت تتأمل ما يحدث بدهشة وقد اتضح من ملامح شيماء إنها لا تعرف عن أي شيء يتحدث النادل وأدركت مدى ذهولها من كلامه، وصح ظنها عندما قالت شيماء:-

-أنا آسفة، ولكن لا بد إنك مخطئ، أنا لم أكن هنا من قبل كما إن والدتي لا تُدعى أحلام بل سمية.

بدا على النادل الارتباك، وحملق في وجهها لحظات طويلة ثم اعتذر وقد ظهر التشوش في نظراته:-

-أنا آسف، ربما أنا مخطئ.

استطرد في توتر بدون أن يبعد عينيه عن وجهها:-

-سوف أحضر لكم طلباتكم في الحال.

غادر النادل تاركًا إياهم يتخبطون في الصمت حتى مزق حدته مراد قائلا:-

-حسنًا، كان هذا غريبًا للغاية.

اتفقتا معه فأردف:-

- ولكنه مجرد سوء فهم لا داعي لأن نفكر فيه، ونعكر يومنا.

وبالفعل تجاهلوا الموضوع وبدأت المواضيع تتشعب بدون مشاركة فعالة من شيماء فقد كانت تتابع حديثهما في ذهن شارد وحديث النادل يشغل عقلها.

-شيماء!

انتفضت من أفكارها لتتقابل نظراتها مع مراد الذي أردف:-

-لقد ناديتكِ كثيرًا، هل أنتِ بخير؟

أومأت ثم قالت:-

-سوف أذهب إلى الحمام.

غادرت طاولتهما متجهة إلى الحمام، وبينما هي تغسل وجهها أمام المرآة تجمدت فجأة وكأن فوق رأسها الطير، واتسعت حدقتيها كشخص قد عرف

للتو إن الأرض لا تدور، وسؤال واحد يصرخ في عقلها طالبًا إجابة، كيف عرفت مكان الحمام؟! هي لم تأتي إلى هذا المكان من قبل فكيف لم تحتاج إلى أن تسأل أحد أو تتبع أي إرشادات؟! فقط شقت طريقها مباشرة إليه، وكأنها تعرف المكان جيدًا وكأنها...

زفرت بعمق، فذلك مستحيل ربما المكان بدا مألوفًا لديها، ربما يماثل مكان قد ارتادته سابقًا، لم يكن تفسيرًا مقنعًا ولكنه كان أكثر من كافي لإيقاف الضجة في ذهنها والعودة إلى التفكير في قضيتها التي تستحق أن تنشغل بها في الوقت الحالي.

عادت إلى الطاولة، وحاولت أن تشترك معهما في الحديث بدون أن تشعر بنظرات النادل الذي مازال يتابعها في دهشة حقيقية، وبعد دقائق طويلة قال مراد:-

-لقد تأخر الوقت، هيا لأعيدكما إلى المنزل.

غادروا جميعًا وقد سار مراد بجوار شيماء كحارسها الشخصي بينما شهد فقد تبعتهما، وشعور بالضيق بدأ يجتاحها، وهي تلاحظ مدى اهتمامه بشيماء، فهو يخشى عليها من نسمات الهواء.

تأملته في مرآة السيارة أثناء قيادته، بينما هو يلقي نظرات قلقة على شيماء مما دفعها لتتساءل أهو واقع في حبها؟!
لكن لم لا يعترف لها، ويصر على سجن نفسه في دور الأخ؟!

شعرت بالاختناق وكأن الهواء قد نفذ من السيارة عندما تخيلت مراد وشيماء كحبيبين ثم زوجين. أهي معجبه به حقًا؟! لا تملك إجابة واضحة، فقط الأيام قد تنزع الحجاب عن الحقيقة حول مشاعرهما.

***

رن هاتفها لتجده مراد، تنهدت بعمق تحاول السيطرة على دقات قلبها المتسارعة ثم ردت عليه ليأتيها صوته دافئ:-

-هل أيقظتكِ؟

أجلت حلقها وقالت بخفوت:-

-كلا، أنا ما زلت مستيقظة.

- كيف حالها؟

لم تكن بحاجة إلى أن تستفسر عمن يقصد، وحاولت أن تتحكم في موجة الضيق التي صدمتها عندما أدركت سبب اتصاله، وبخت نفسها على ظنونها إنه متصلٌ من أجلها.

-لا تقلق إنها بخير، لقد جلسنا معًا قليلا بعد أن أوصلتنا إلى المنزل ثم ذهبت إلى غرفتها لتنام.

أجاب في ارتياح واضح:-

-جيد جدًا، إذا حدث أي شيء أخبريني.

- حسنًا، لا تقلق.

أنهى المكالمة بدون أن يبالي أن يسأل عن حالها، بدأت تعاتب نفسها على رغبتها العميقة في أن تكون سبب اتصاله وأن تكون محور قلقه كشيماء بل أكثر أيضًا.

ألقت الهاتف جانبًا في ضيق، وحاولت العودة إلى النوم عاقدة العزم على ألا تفكر به أبدًا، فالرابط الوحيد بينهما هو شيماء فقط لا غير.

***

مر يومين برتابة شديدة فشهد تذهب إلى عملها بينما شيماء تهتم بمتطلبات البيت والطبخ وغيرها من أمور المنزل، وقد صممت على أن تدفع ثمن إقامتها في الشقة رغم اعتراض شهد حينها والتي أوضحت إنها تعتبر شيماء ضيفة وصديقة إلا إن الأخيرة قد أصرت وبدأت تشاركها الدفع من مدخراتها والتي أصبحت على وشك النفاذ مما دفعها إلى أن تقرر إنه بعد الانتهاء من القضية سوف تتفرغ للبحث عن عمل لكي تبدأ أيضًا في رد الصنيع الذي فعله مراد، فقد تورط في مشاكلها حتى أذنيه بدون أن يعترض أو يفكر في الانسحاب أبدًا.

***

في قسم الشرطة ألقى هشام نظرة كسولة على هاتفه عندما أعلن عن قدوم رسالة، ثم انتفض واعتدل في جلوسه عندما وجد رسالة بنتيجة تقرير الطب

الشرعي، وقد استغل علاقاته الشخصية لطلب إرسال نسخة من النتيجة إليه أيضًا فور ظهورها مدفوعًا باهتمامه الشخصي بتلك القضية، لتتسع حدقتيه ويظل لدقائق طويلة يتأملها في ذهول وصدمة، فقد كانت النتيجة بحق مُخالفة لكل توقعاته.

الفصل السابع

- صباح الخير يا شهد.

مجددًا لم تستطيع منع ابتسامتها البلهاء عندما هاتفها مراد في الصباح، رغم علمها إن سبب اتصاله لابد أن يكون متعلقًا بشيماء.

أجابت بلطف:-

-صباح النور يا مراد.

- هل بإمكانكِ أن توقظي شيماء، وتخبريها أني سوف أمر لأخذها إلى النيابة؟

أجابت بنبرة متعجبة:-

-حسنًا، ولكن لماذا لم تهاتفها بنفسك؟!

رد بارتباك واضح:-

-لأن..لأن هاتفها مغلق فلم أستطيع مهاتفتها.

تفهمت الوضع وقالت بجدية تنهي المحادثة:-

-حسنًا يا مراد، سوف أيقظها في الحال.

ما أن انتهت المحادثة حتى نعت نفسه بالغباء، فبعد تفكير طويل بحثًا عن عذر يدفعه إلى مهاتفتها تذكر مكالمة شيماء ليلة أمس تخبره بموعدها مع

وكيل النيابة حيث ظهرت نتيجة الطب الشرعي مما جعله عذرًا مناسبًا له حينها.

***

تأملت شهد ملامح وجه شيماء، وقد بدت سعيدة للغاية منذ أن استيقظت في الصباح، ولأول مرة كانت مفعمة بالحيوية والبهجة كأنها تتوقع الأفضل اليوم.

رغبت شيماء في أن يمر الوقت سريعًا لتذهب إلى هناك، فقد حانت اللحظة الحاسمة، وسوف تحصل على حقها بظهور نتيجة الطب الشرعي، والتي لا بد إنها سوف تثبت جريمته، فالحقيقة لا يمكن إخفاؤها أبدًا.

***

جلست في استرخاء شديد في مكتب وكيل النيابة، تواجه نظرات خالد ومحاميه بثقة بالغة، فقد انتهى الأمر الآن فتقرير الطب الشرعي سوف يحسم القضية، وسوف يكون خالد الحداد في السجن لبقية حياته البائسة.

تابعت وكيل النيابة بنظرات متلهفة، وهو يتفحص بعض الأوراق أمامه حتى اعتدل خالد بثقة خاصة بعدما تأكد محاميه من دفع الرشوة اللازمة لتزوير تقرير الطب الشرعي تجنبًا لأي مفاجآت، وقد ضاعف من طمأنته أن وكيل النيابة في صفه وقد أوضح إنه لا يريد أن يرهق نفسه بقضية نتائجها

مضمونه متجاهلا خطوات القضية المعتادة من فحص مسرح الجريمة وغيرها.

تساءل خالد بعفوية مصطنعة:-

-إذًا ما هي نتيجة التقرير؟

-التقرير الطبي يثبت إنه وبمقارنة النتائج الخاصة بإظهار البصمة الوراثية للحمض النووي المستخلص من العينات تبين أن البصمة الوراثية للحمض النووي المستخلصة من جسد المجني عليها "شيماء عبد الفتاح" لا تتطابق مع البصمة الوراثية للحمض النووي المستخلص من أستاذ خالد.

غير متطابق!

بهتت ابتسامتها ببطء، وتلك اللهفة غادرتها تاركة إياها ترتجف، لم تلقي بالا لحديثهم الذي لم تسمع منه حرفًا، وانتفضت من مقعدها تجذب تلك الورقة من بين يديه، لم تهتم بصياحه الغاضب أو تهديده بحبسها فقط شعور بعدم المبالاة قد سيطر عليها، قرأت التقرير لتجد الكلمات التي أظلمت حياتها، وفي لحظة فقدت السيطرة التي مارستها على ذاتها.

صاحت بغضب بينما تلوح بالورقة:-

-التقرير مزيف، إنه خاطئ.

صاح بحزم بينما يصدم سطح المكتب بقبضته في غضب:-

-توقفي عن الصياح أيتها الفتاة أو أقسم أني سوف أضعكِ في السجن.

تمتمت بجنون:-

-إنه خاطئ، إنه مزيف....من المؤكد أنه خاطئ، إنه مزيف.

كانت لا تشعر بما حولها، فلم تلقى كلماته صدى لديها بينما هي لا تشيح نظرها بعيدًا عن التقرير حتى جذبه منها ليرفقه في ملف القضية والتي على وشك أن تُغلق الآن.

....براءة السيد/خالد الحداد مما نُسب إليه....

استعادت وعيها فجأة، وانتفضت صارخة بعنف وألم:-

-إنه كاذب، أقسم إنه كاذب، هو من فعل بي هذا، لقد دمر حياتي هذا الوغد.

تجاهلها تمامًا وكيل النيابة وقال بجدية موجهًا حديثه إلى خالد الذي حافظ على ابتسامته بدون أن تؤثر به انفعالات شيماء:-

-يمكن أن تذهب الآن يا سيد خالد، ونعتذر على إزعاجك.

تدخل المحامي معترضًا:-

-نحن لا نتقبل تلك الإهانة التي تعرض لها موكلي، ونطالب برفع قضية سب وقذف ضدها.

-إنه حقكم بالطبع.

كانت شيماء تتأملهم بعدم تصديق.. كيف تحول الجاني إلى ضحية؟! لقد أصبحت ظالمة وليست مظلومة، كانت القشة التي قسمت ظهر البعير عندما قال خالد بلهجة حانية مصطنعة:-

-بالطبع لا، لن أتسبب في أذى لفتاة في عمر ابنتي تقريبًا كما أني أقدر تمامًا خوفها من الفضيحة التي اضطرتها إلى ذلك.

هجمت عليه تصرخ بغضب وكأنها نمرة شرسة قد أُطلقت بعد جوع شديد:-

-أيها الحقير، سوف أقتلك أيها الوغد إنك...

خدشته بقوة ليجذبها العسكري، الذي استدعاه وكيل النيابة، بعيدًا بينما هي تتحرك في هياج بين ذراعيه، ولا ينقطع صراخها.

هدر وكيل النيابة في غضب بالغ:-

-إن لم تغادري الآن سوف أحرص على ألا ترين ضوء الشمس مرة أخرى.

جذبها العسكري مشفقًا وأخرجها ليتلقاها مراد الذي قد بلغ قلقه الذروة عندما سمع صوتها من الخارج، قيدها بذراعه بقوة مخرجًا إياها من مقر النيابة فقد كان صوت وكيل النيابة المهدد شديد الوضوح إليه.

تحمل في صبر جميع لكماتها التي تلقيها في عشوائية لتتحرر منه، كانت تسب وتلعن بينما تقف أمام مقر النيابة:-

-سوف أقتلك، إذا لم تستطيع حكومتك أن تأخذ حقي فسوف أنتزعه منك ومن الجميع أيها الحقير، هل تسمعني يا خالد الحداد سوف أقتلك؟

أردفت في نحيب وقد أنهكها الصراخ:-

-لماذا منحتوني أمل في العدالة إذا كنتم سوف تسلبوني إياه بتلك السهولة؟!

كان مراد يقف بجوارها عاجزًا عن مساعدتها بينما هي تنتحب بوجع، وتتعالى صرخاتها المتألمة التي جذبت انتباه الجميع من حولها، ليخرج وكيل النيابة صائحًا في غضب:-

-أجلبوا تلك الفتاة إلى هنا، فبضعة ليالي في السجن سوف تهذبها.

لم تهتم بصراخه أو تخشى تعابير وجهه الغاضبة فالألم بداخلها كان عميقًا حتى إن في الموت رحمة لها..

في هذه اللحظة وبينما ترى خالد ومحاميه يخرجان ضاحكين، لا بد أنهما سعيدان للغاية بعد تزوير تقرير الطب الشرعي بتلك السهولة، رفعت أصبع الاتهام في وجه وكيل النيابة بدون أن تبالي بمراد ومحاولاته العقيمة لردعها:-

-أنت خائن لتلك المهنة، فقد منحته تلك البراءة والاعتذار كأنه ضحية بدون أي مبالاة بما فعله بي.

أضافت بضحكة ساخرة ونبرة مهينة والعسكري يجذبها إلى داخل النيابة بينما أحاط اثنين آخرين بمراد الذي يحاول جاهدًا التخلص من قبضتهما:-

-إن كنت أملك من الأموال ما يملك لأصبحت كلبًا يلهث أسفل قدمي، ولجلبت حقي قبل أن يرف لي جفن.

ابتسمت بمرارة وهي تلاحظ الغضب على وجهه، وتتأكد إنه لولا الجموع من حولهما لم يكن ليتردد في ضربها.

استسلمت للعسكري، فلن يضر الشاة سلخها بعد ذبحها، رفعت رأسها عندما توقف فجأة لتجد رجلا يحادث وكيل النيابة، لم ترى ملامح وجهه ولكنها استطاعت أن تلاحظ الضيق على وجه وكيل النيابة، وسرعان ما أشار إلى العسكري ليتركها والتفت عائدًا إلى مكتبه، ما أن التفت الرجل حتى تعرفت سريعًا على ملامحه والذي لم يكن إلا هشام، الضابط الذي عاونها في بادئ الأمر، لم تلفت إليه، وتحركت ببطء تجاه سيارة مراد، غير مبالية إذا كان يلحق بها أم لا.

شعرت بالاختناق وكأن الهواء لا يصل إلى رئتيها، وقفت أمام السيارة لتشعر بنظرات مراد التي تتفحصها في قلق، ثم فتح الباب الخلفي لتدلف إلى الداخل بدون أن تنطق ببنت شفة، ولم تهتم بالالتفات إلى هشام وقد اتخذ المقعد الأمامي بجوار مراد بدون أي استئذان، وكان الصمت هو سيد الموقف.

لقد انتهى كل شيء، وقد خسرت فماذا تبقى لتبالي به الآن؟!

أغلقت جفنيها ببطء، تتهرب من نظراتهما المشفقة، تسللت عبرة على وجنتها، لقد كانت سعيدة للغاية عندما فكرت إنها على وشك أن تحصل على

حقها وتتحقق العدالة لكنها غفلت عن أن الحكم الحقيقي ليس بالحقيقة والأدلة بل بمال وسلطة خالد الحداد، شعرت بالإنهاك، وكأن جسدها فاقدًا للحياة.

أرتجف جفنيها علامة على الاستيقاظ عندما قال هشام بجدية:-

- أنا متفهم لمشاعركِ يا شيماء ربما أكثر مما تتصورين، ولكني لا أريدكِ أن تفقدي الأمل فأمامكِ حياة لا يجب أن تهدريها أما خالد الحداد فأنا لن أتركه يذهب في سلام هكذا، شخص مثله هناك بالتأكيد الكثير من المصائب خلفه وسوف أحرص على أن يكون في السجن قريبًا.

فتحت عينيها الدامعتين وقالت ساخرة بدون أن تنجح في إخفاء ألمها:-

-لا يجب أن تكون واثقًا هكذا، فسلطة خالد الحداد لن تتغير أبدًا.

-سوف يتطلب الأمر الكثير من الوقت لن أنكر هذا، ولكن يجب أن تتحلي بالأمل.

نظرت إليه في محاولة أن تثق بكلماته التي تبث بها الأمل مرة أخرى ليستأنف:-

- تابعي حياتكِ الطبيعية مرة أخرى فلن ينفع أي أحد أن تدمري نفسكِ، وأعدك إنه سوف يأتي قريبًا اليوم الذي سوف تقفين به في قاعة المحكمة تنظرين إلى خالد الحداد يُقاد إلى حبل المشنقة.

كانت كلماته مفعمة بالأمل مما دفعها إلى أن تومأ في موافقة رغم أن كلمة حياة طبيعية قد أثارت شجونها فقد فقدت معنى تلك الكلمة منذ زمن.

قضت طريق العودة تفكر في حياتها المحطمة تمامًا، وكيف سوف تبدأ في ترميمها من جديد؟!

***

لم تشعر بالسيارة تتوقف حتى تسلل إليها صوت مراد يوقظها، فتحت عينيها ببطء، وخرجت من السيارة مترنحة مازال النعاس مسيطرًا عليها.

عاونها على الوصول إلى شقة شهد، واستطاعت ملاحظة أن هشام لم يتبعهما، سمعت شهقة شهد الفزعة ولاحظت نظراتها القلقة تتأمل وجهها الشاحب، وعينيها التي لطختها الحمرة، والعبرات التي جففها الهواء فوق وجنتيها. لم تكن في حالة تسمح بطمأنتها فقط ترغب في الاستلقاء على الفراش، وتهرب بعيدًا عن تلك الضغوطات عن طريق النوم.

تمتم مراد بكلمات لم يفهم عقلها الناعس منها إلا أنه يخبر شهد أن تقودها إلى غرفتها، شعرت بأيد مراد الخشنة تستبدل بأيدي شهد الناعمة، قادتها إلى غرفتها وساعدتها على تبديل ثيابها، كانت مغيبة تمامًا عما يدور حولها، وكأنها تتعرض لصدمة متأخرة نتيجة لكل ما حدث لها مؤخرًا.

- هل نامت؟

أومأت شهد ثم تساءلت بقلق:-

-ما الذي حدث وجعلها على هذه الحالة؟

تنهد مراد بحزن ثم أخبرها باختصار بما حدث في مكتب وكيل النيابة، اغرورقت عيناها بالدموع حزنًا على تلك الفتاة التي يعاندها القدر.

تنهد في حزن هو الآخر وقال مودعًا إياها:-

-يجب أن أذهب، إذا حدث أي شيء أبلغيني في الحال.

أومأت شهد، ثم دلفت إلى غرفة شيماء بعد مغادرته لتطمئن عليها، تأملتها أثناء نومها وقد شعرت بالحزن الشديد من أجلها. أغلقت الأضواء، وخرجت من الغرفة مغلقة الباب خلفها بدون أن تشعر بشيماء التي ارتعش جفنيها في توتر، وتحرك رأسها يمينًا ويسارًا، تتمتم بكلمات بين أنفاسها المتسارعة لا يمكن سماعها إلا عند الاقتراب منها كفاية وبنبرة طفولية غريبة:-

-ماما، ماما استيقظي أرجوكي.

أردفت بتساؤل بريء بينما عبراتها لا تتوقف عن التسلل من بين جفنيها المغلقين والانهمار فوق وجنتيها:-

-هل تتألمين يا ماما؟

كانت تذرف الدموع أثناء نومها والخوف على ملامحها...يوم آخر لن تستطيع النوم به في سلام بدون أن تلاحقها الكوابيس الغريبة وكأنها لا تمتلك حق السعادة حتى في نومها.

***

كانت في كامل ثيابها، تأملت وجهها الشاحب في المرآة وأعينها الجامدة بخلاف ما كانت عليه منذ بضعة ساعات، تنفست ببطء ليجرح الهواء الدافئ حنجرتها.

وجودها على قيد الحياة بعد ما تعرضت له كان لتهب حياتها في سبيل الانتقام بدون أن تفكر في المستقبل، ولكن كلمات هشام كانت كافية لتنبهها إلى تلك الحياة التي يجب أن تحياها حتى وإن كانت مرغمة على هذا.

تنهدت بألم تفكر.. لعل البداية سوف تكون بالبحث عن عمل خاصة وإن مدخراتها على وشك النفاذ.

خرجت من الغرفة لتتسلل لأنفها رائحة شهية تصدر من المطبخ، تتبعتها لتجد شهد مندمجة في إعداد الطعام فلم تشعر حتى بتواجدها.

قالت شيماء بجدية بدون سابق إنذار:-

-يجب أن أذهب، وربما سوف أتأخر.

شهقت شهد فزعة، وأوقعت الوعاء بين يديها، التفتت إليها متمتمة في فزع:-

-لقد أفزعتيني يا شيماء.

ردت في اعتذار:-

-أعتذر لم أقصد ذلك.

غادرت لتهرع شهد خلفها صائحة بقلق:-

- أين ستذهبين؟

-سأبحث عن عمل.

قبل أن تعترض شهد أو تحاول أن تثنيها عن موقفها غادرت بدون أن تبالي بنظراتها التي تخترقها من الخلف، تعرف إنها تشعر بالقلق من تصرفها الذي ناقض تمامًا حالتها المنهارة قبل نومها، وربما تنتابها تساؤلات كثيرة لكنها لن تستطيع أن تعبر عن تلك الحالة التي تنتابها بكلمات يسهل فهمها، فتلك النيران بداخلها مفعمة بالكثير من الآلام والدموع والعديد من المخاوف، وتلك الشجاعة التي تدعيها الآن ليست إلا مجرد واجهة، لكن ما يلهمها الصبر كلمات هشام ووعده بأن يبذل قصارى جهده لإيقاع خالد الحداد فلا تملك إلا أن تثق بوعده.

***

كانت ناهد تقضي وقتها في التحدث مع مريم وحماتها، برغم عدم تقبلها لمريم إلا إن الملل كان يدفعهما في بعض الأحيان إلى تبادل أطراف الحديث سويًا.

دلف خالد وشقيقيه إلى داخل المنزل، لتلاحظ الارتياح الظاهر على وجهه، والذي اتضح في اختفاء خطوط التوتر حول صدغيه، تأملت كلا من سيف ومحمد لتجد أن حالتهما لا تختلف كثيرًا عنه.

لمحت بطرف عينيها نظرات مريم المتحيرة أيضًا، لتدرك إنها كذلك قد لاحظت توترهما طيلة الأيام الماضية.

انطلق سؤال الجدة كانعكاس لحيرتهما الداخلية:-

-ما تلك السعادة اليوم؟!

ابتسم خالد وهو يسترخي في مقعده بجوارها قائلا بسعادة:-

-لا شيء يا أمي، فقط الحقيقة تنتصر دائمًا.

رغم عدم فهمهن لفحوى كلامه إلا إنهن استسلمن لحقيقة أن المشكلة التي أثارت قلقهم قد انتهت تمامًا.

دلفت أميرة إلى المنزل، وقد ظهر عليها الإرهاق بعد حضور الكثير من المحاضرات، ألقت بنفسها بجوار والدتها واضعة رأسها فوق كتفها لتمسد مريم رأسها في حنان.

قالت أميرة بإرهاق وسخرية:-

-لقد قررت أن أترك التعليم، وأتزوج أنا لا أعرف حقًا من صاحب فكرة تعليمي.

ابتسمت مريم بحنان قائلة:-

-تشجعي كما أن أدهم قد أخبركِ أن ذلك طبيعي للغاية في أول عامين.

أومأت ببطء، وذكر أدهم كان كافيًا لتتسارع دقات قلبها حتى كاد يخرج من صدرها، اعتدلت في جلستها، وخشيت كالعادة أن تكشفها ملامح وجهها، التفتت إلى والدتها لتجدها قد اندمجت في محادثة مع الجدة وناهد بينما خالد وسيف فقد أخذا يتناقشان في أمور العمل.

ارتبكت عندما لاحظت نظرات عمها محمد العميقة التي ارتكزت عليها، ارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيها وقالت في ارتباك بينما تسرع إلى الدرج متجهة إلى غرفتها:-

-سوف أذهب إلى غرفتي.

غادرت سريعًا بدون أن تلاحظ نظرات محمد المفكرة في تلك المشاعر الذي لمحها على وجه أميرة عند ذكر اسم ابنه، أيمكن أن تكون أميرة الطفلة الصغيرة واقعة في حب أدهم؟!

التفت إلى مريم الغير منتبهة إلى نظراته، وبدأ سؤال يراوده ويثير حيرته فإذا بادل أدهم أميرة مشاعرها هل سوف يتقبل أن تصبح زوجة ابنه هي ابنة مريم؟!

***

تنهدت بتعب، وهي تتجول في الطرقات بحثًا عن عمل بدون جدوى، دلفت إلى آخر متجر في ذلك الطريق لتخيب آمالها كالسابق. خرجت منه شاعرة بخيبة أمل وحسرة لاذعة، فقد مرت بضعة ساعات منذ أن خرجت من

المنزل تستجمع شجاعتها وتحاول التغلب على مخاوفها في التواجد بين الناس مجددًا، وها هي لم تجد أي فرصة حتى في المتاجر الصغيرة، ولن تعود أبدًا إلى عملها السابق لن تقترب من تلك المنطقة أبدًا.

تباطأت خطواتها في إرهاق، وتسللت إلى أنفها رائحة أطعمة شعبية من المحلات المجاورة، لتتلوى معدتها من وطأة الجوع، ولكنها تحاملت فالمال الذي بحوذتها يكفي فقط لبضعة أيام، خاصة بعد أن دفعت أغلبه لإيجار الشقة، ويمنعها كبريائها أن تطلب المساعدة من مراد رغم إدراكها إنه لن يتوانى أبدًا عن مساندتها.

جلست فوق أحد الأرصفة بتثاقل، نزعت حذائها البالي ودلكت قدميها وقد ظهرت بهما التشققات واشتد احمرارهما كنتيجة لفترة سيرها الطويلة. ظلت دقائق قليلة تستريح، لم تهتم بنظرات الجميع من حولها التي تتنوع ما بين نظرات فضولية، وأخرى مشفقة.

نهضت سريعًا بعدما ارتدت حذائها خوفًا من أن تعود بذاكرتها إلى ذلك اليوم فنظراتهم كانت كذلك أيضًا، ابتسمت في سخرية لا بد أنه من المستحيل لهم تخمين قصتها الحقيقية، فقط فروض وتخمينات قرروا تصديقها.

عادت إلى المنزل بخطوات متحسرة خائبة الأمل، فقد فشل سعيها في اليوم الأول، تنهدت بإرهاق وابتهلت في داخلها أن يكون اليوم التالي أفضل ومثمرًا أكثر.

الفصل الثامن

تسللت أشعة الشمس إلى داخل الغرفة لتزعج نوم شيماء، لترتجف جفونها ثم تفتح عينيها، ظلت دقائق شاردة في السقف ثم غادرت فراشها، وبعدما انتهت من الاغتسال اتجهت إلى الخارج تبحث عن شهد لكنها لم تجدها في أنحاء المنزل مما أشعرها بالقلق الشديد.

عادت إلى غرفتها لتهاتفها ولكنها وجدت تلك الورقة الملتصقة بباب غرفتها والتي لم تكن لاحظتها سابقًا، ابتسمت بضعف عندما وجدتها رسالة من شهد تخبرها إنها في العمل وقد تعود عصرًا. تنهدت في ارتياح واضح وقد اطمأنت عليها ثم اتجهت إلى حجرة الطعام لتعد بعض الطعام لإفطارها.

بعد دقائق قليلة كانت تجلس أمام التلفاز وبدأت تأكل لقيمات قليلة بينما تنظر إلى الشاشة في شرود، يزعج عقلها العديد من الأمور تتنوع ما بين قضيتها وحقها المسلوب، وفكرة عودتها إلى الحياة الطبيعية مرة أخرى خاصة وهي لم تلقى أي نجاح في إيجاد عمل بعد.

ابتهلت في داخلها أن يكون حظها اليوم أفضل وتجد عملا مناسبًا حتى تستقل بحياتها بعيدًا عن شهد ومراد، فقد كثر إحسانهما تجاهها مما يزعجها كثيرًا بسبب ذلك الشعور الذي يراودها دائمًا إنها تستغل كرمهما.

ارتفع رنين هاتفها لتنبسط أساريرها عندما وجدت مراد يتصل.

ردت ليرتفع صياحه القلق:-

-أين كنتِ يا شيماء؟ لقد هاتفتكِ عدة مرات ولكنكِ لم تجيبي كما اتصلت بشهد وكان هاتفها مغلقًا.

وضعت كفها فوق جبهتها متذكرة إنها تركت هاتفها على الوضع الصامت البارحة، تمتمت في اعتذار:-

-آسفة جدًا يا مراد، لقد نسيت الهاتف على الوضع الصامت، أعتذر حقًا.

-أتعرفين مدى القلق الذي أصابني عندما لم تجيبي؟

نبرة صوته فضحت مدى القلق والخوف الذي عاصرهما مما أشعرها بالذنب فقالت بنبرة آسفة:-

-أنا حقًا آسفة يا مراد، لم أقصد أبدًا أن أثير قلقك.

زفر بعمق، وقال بنبرة هادئة:-

-لا بأس، المهم إنكِ بخير.

صمت قليلا ثم أردف بنبرة متسائلة:-

-هل أنتِ بخير حقًا؟

تنهدت ثم قالت:-

-لا أعرف حقًا، ولكني قررت أن أنفذ نصيحة الضابط، وأن أبدأ في الاعتماد على ذاتي وإعادة ترميم حياتي مرة أخرى.

قال بتشجيع:-

-أحسنتِ يا شيماء، إنه القرار الصحيح، فلا يجب أن تتوقف حياتكِ أبدًا، هكذا أريدكِ دائمًا قوية، وأنا بجواركِ متى تحتاجيني.

صمتت قليلا ثم قالت بامتنان واضح:-

-أنا لن أعرف أبدًا كلمات كافية لكي أشكرك على وجودك بجواري ومساندتك الدائمة لي...

قاطعها في ضيق:-

-شيماء! أنتِ أختِ الصغرى، ولا فرق بينك وبين "منى" أبدًا لدي لذلك لا أرغب في سماع تلك الكلمات منكِ مرة أخرى، حسنًا؟

- حسنًا.

استطاعت سماع صوت آخر ثم أعقبه مراد معتذرًا:-

-يجب أن أنهي المكالمة، إنهم يحتاجونني في العمل.

- حسنًا، لا بأس.

وعدها قبل أن ينهي المحادثة:-

-سوف أهاتفكِ مرة أخرى عندما أنتهي من العمل.

أردف بنبرة تحذيرية:-

-والأفضل أن يكون هاتفكِ متاحًا.

ابتسمت بخفة وقالت:-

-حسنًا حسنًا، لا داعي للتحذير.

انتهت المحادثة وقد استطاع مراد بث المزيد من شجاعته وإصراره في جسدها، لتنهض سريعًا في همة ونشاط وقد قررت البدء في بحثها منذ الصباح الباكر.

***

اجتمعت أسرة الحداد حول مائدة الإفطار، التي امتلأت بأصناف متعددة من الأطعمة والمشروبات، في صمت، قالت الجدة بتعجب:-

-من الغريب يا أميرة إنكِ تركتي مكانكِ المفضل بين عمكِ خالد ووالدكِ.

نظرت أميرة إلى عدي ليتولى مهمة الرد قائلا بنبرة حازمة بدون أن يبعد عينيه عن خالد:-

-لقد رغبت في التغيير قليلا، والجلوس بجواري هذه المرة.

أومأت الجدة بينما مريم فقد بدا عليها عدم الاقتناع فقد لاحظت قبل الإفطار همسات عدي لشقيقته التي سرعان ما جلست بجواره على غير العادة كما أن نظرات عدي لعمه كانت غريبة للغاية.

نهض أدهم سريعًا عندما رن هاتفه ورأى هوية المتصل ثم تمتم باعتذار:-

-طرأ أمرٌ ما، ويجب أن أذهب إلى الشركة في الحال.

تساءل محمد في قلق:-

-أي مشاكل؟

- كلا، إنه مجرد مشروع جديد لشركتي ويحتاجون إلى إشرافي الآن.

غادر أدهم تتبعه نظرات محمد المليئة بالفخر؛ فأدهم قد أسس شركته الخاصة في سن صغيرة كما كان جده من قبله، وباسم أدهم محمد بدون أي استعانة بلقب عائلة الحداد حتى إن بعض موظفي شركته لا يعرفون إنه ينتمي إلى عائلة الحداد.

نهض خالد أيضًا فلم يتحمل نظرات عدي التي يرمقه بها خلسة بين الحين والآخر، والتي تثير توتره وضيقه.

تعجبت ناهد من مغادرة خالد المتعجلة، وقطبت جبينها عندما لاحظت نظرات عدي التي تبعته حتى اختفى من أمامه، واشتعل فضولها لمعرفة ماذا حدث ليصبح عدي المرح بمثل هذه الجدية؟!

***

- إنها تتشارك المنزل مع فتاة ما، ولكني لم أبحث في خلفية الفتاة بعد، واليوم فعلت نفس الشيء كالبارحة خرجت منذ قليل وبدأت تتجول في الطرق والمحلات بحثًا عن عمل.

رد أدهم بحزم:-

-دعك من هذا، ولا تدعها تبعد عن ناظرك ثم أبلغني بالتفاصيل لاحقًا.

- حسنًا يا بشمهندس.

أنهى أدهم المحادثة، وأتجه إلى سيارته، كان يقود إلى شركته بذهن شارد في تلك الفتاة ومخططاتها التي يثق أنها لن تتوقف، فهو يدرك نوعية الفتيات من أمثالها عندما يسيطر الطمع عليهن قد يفعلن كل شيء ليحصلن على رغباتهن..

***

وقفت أمام شاطئ البحر يداعب الهواء البارد وجهها، تنهدت في إرهاق ثم نظرت إلى هاتفها لتجدها الرابعة عصرًا، لقد مر وقت طويل منذ مغادرتها للمنزل.

تجولها بين المحلات كان رحلة لا نهاية لها بدون أن تحقق أي نجاح.
ابتسمت في سخرية هي لم تطمح إلى تقلد منصب ما في إحدى الشركات، فقط ترغب في أي عمل يمنحها مالا كافيًا لتعتاش منه حتى تبدأ حياتها مرة أخرى.

التفتت عائدة إلى المنزل فلا بد إن شهد قد عادت من عملها، حالتها لم تختلف كثيرًا عن أمس متحسرة متألمة من القدر الذي يستمر في معاندتها.

كانت تسير بخطوات بطيئة متألمة، انهمرت دموعها رغم محاولتها الواهنة لمنعها وقد شعرت بالشفقة على نفسها وهي الآن مشردة تائهة في أحزانها، وأحلامها التي كانت تتمحور حول تخرجها من كلية الهندسة والزواج من فارس أحلامها تحولت الآن إلى مجرد الرغبة في فرصة للعمل في أي متجر للحصول على مال كافي للعيش.

تساءلت بمرارة ترى ماذا تحمل لها الأيام أيضًا؟

لم تلحظ ذلك الذي يتتبعها في حذر، يراقب تحركاتها بأعين كالصقر، وما أن وصلت إلى منزلها حتى ألتقط هاتفه قائلا بجدية بالغة:-

-إنها في طريقها إلى المنزل الآن، وكما البارحة لم تحصل على أي عمل.

رد الطرف الآخر بسعادة:-

-جيد جدًا، هل أكدت على جميع المحلات المحتمل أن تبحث عن عمل بها؟

- بالطبع يا بشمهندس، فما أن تقرر دخول المحل أسرع قبلها وأدفع لهم حتى لا يمنحها أحد فرصة العمل، لا تقلق.

أنهى أدهم المحادثة مع محققه الخاص، شاعرًا بالسعادة البالغة فقد حانت لحظة انتقامه من تلك الفتاة التي وقفت أمام عائلة الحداد وحاولت أن تدنس سمعة أسرته التي امتدت لأعوام طويلة شريفة بدون أن يجرؤ أحد على أن يمسها بسوء.

لم يشك أبدًا في أن تكون على حق فعمه خالد الحداد رجل شريف، كيف لا ولقب الحداد يُلحق باسمه. تلك الفتاة كما أثبتت النيابة زانية طامعة في ثروة الحداد، ويجب أن تُعاقب قريبًا.

ابتسم يفكر كيف سوف يجعلها لا تنسى أبدًا اسم عائلة الحداد، وسوف يلقنها درسًا قاسيًا لإقدامها على ذلك التصرف الحقير.

استدعى مساعدته الشخصية، وما أن أصبحت أمامه حتى قال بنبرة حازمة جدية:-

-هاتفي كل الجرائد، والمواقع على الأنترنت أريد أن ينزل أعلان غدًا بحثًا عن مساعدة شخصية وغير مطلوب أي خبرة، فقط يكفي أن تكون على معرفة بالقراءة والكتابة.

فغرت فاهها في صدمة، وبحثت في وجهه عن أي دلاله أن تكون كلماته مجرد دعابه فما يقوله غير منطقي أبدًا:-

-لكن يا بشمهندس ...

قاطعها صائحًا في غضب:-

-نفذي ما أمرت به فقط.

أومأت في صمت وأسرعت تغادر المكتب فرئيسها للمرة الأولى منذ عملها معه يصيح بها، طالما كان شخصية هادئة، لا تعرف ما أصابه فمنذ أيام كان يبدو متوترًا وغاضبًا للغاية.

حركت كتفها في عدم اكتراث والتقطت هاتفها تنفذ أوامره، وفي نفس الوقت تحادث شقيقتها على الواتس آب تخبرها عن جنون رئيسها الغير معتاد.

***

لاحظت شهد الإحباط على وجه شيماء بينما تعبث في طعامها بدون أن تتناول منه شيئًا. شعرت بالحزن من أجلها، وانتابها شعورًا بالعجز عندما لم تعرف كيفية التخفيف عنها، لقد أخبرتها إنها لا ترغب بأي إيجار فالشقة ملكها على أية حال لكن شيماء عنيدة ورفضت تمامًا لذلك فلم تملك إلا أن تطلب منها مبلغ بسيط.

رفعت شيماء رأسها عندما شعرت بنظراتها الحزينة ثم ابتسمت في ضعف وقالت:-

-أنا لست جائعة، سوف أنام قليلا.

أومأت شهد في صمت بينما تتابعها حتى دلفت إلى غرفتها، تأملت الطعام قليلا ثم نهضت تجمع الأطباق التي لم تُمس.

اتخذت مكانها المعتاد فوق الأريكة، وبدأت تفكر في طريقة لمساعدتها بدون أن تضايقها أو تدفعها للشعور بأنها تشفق عليها.

التقطت هاتفها ودلفت إلى حسابها على الفيسبوك تبحث عن صفحات الشركات التي تحتاج إلى موظفين رغم صعوبة الأمر كون شيماء حاصلة فقط على شهادة المرحلة الثانوية كما أخبرتها سابقًا، فالقليل من قد يرغب في توظيفها، ولكن لا يوجد ضرر من المحاولة.

لولا مخاوفها من أن تسبب لها الضيق لكانت ساعدتها في العمل عند والدها في شركته، ولكنها تعرف أن شيماء ذكية وسوف تلاحظ أن عملها في شركة لم تعلن قط عن حاجتها إلى موظفين غير واقعي تمامًا، وسوف تعرف الحقيقة وربما تغضب منها إلى الأبد.

ظلت ساعتين تتفحص العديد والعديد من الصفحات، تجاورها ورقة تدون بها أسماء الشركات التي تبحث عن موظفات.

اعتدلت في جلستها فجأة في حماس بعد فترة طويلة من البحث الفاشل، وقد وجدت غايتها فقد نشرت إحدى الصديقات المشتركات حاجة رئيس قريبتها إلى مساعدة شخصية إذا كانت إحداهن مهتمة.

ابتسمت بسعادة بالغة، وأخيرًا ابتسم الحظ من أجل شيماء، أسرعت تراسل تلك الفتاة للمرة الأولى رغم صداقتهما الممتدة على الفيسبوك منذ أعوام، ولكن علاقتهما لم تتخطى تبادل التعليقات.

بعد دقائق تنهدت في ارتياح بالغٍ عندما أنهت المحادثة مع الفتاة، والتي أخبرتها بتفاخر أن قريبتها هي الساعد الأيمن للمدير وسوف تجعلها تتوسط لشيماء، أعطتها اسم شيماء الكامل والذي تذكرته بصعوبة من ذلك اليوم في المشفى.

نهضت بحماس تتلهف لإخبار شيماء ما فعلته، دقت على باب غرفتها لتتأكد من استيقاظها ارتفع صوت شيماء يأذن لها بالدخول.

دلفت شهد إلى الداخل لتجد شيماء على فراشها، وقد بدت على وشك النوم فقالت باعتذار:-

-آسفة على إزعاجكِ.

ثم أردفت بحماس وهي تتخذ مكانًا على طرف الفراش:-

-لكن حقيقة لم أستطع أن أنتظر إلى الغد.

اعتدلت شيماء وفي عينيها تساؤل صامت حتى أخبرتها شهد بنتيجة بحثها لتهتف شيماء في عدم تصديق:-

-حقًا؟!

ثم استطردت في امتنان بالغ:-

-أنا حقًا لا أعرف الوسيلة المناسبة لأشكرك...

قاطعتها شهد بمشاعر صادقة:-

-لا تقولي شيئًا، فأنتِ صديقتي ويجب أن أساعدك.

أردفت بسعادة وهي تتجه إلى باب الغرفة:-

-فلتنامي الآن، وإذا هاتفتني الفتاة بأي جديد سوف أخبركِ.

أومأت شيماء في صمت، وتنهدت بإرتياح بالغ بينما تتمدد مجددًا فوق الفراش، وبدأت زهرة الأمل تتفتح مرة أخرى في حياتها البائسة.

أغلقت جفنيها تبتهل في داخلها أن تحصل على تلك الوظيفة رغم خوفها من أن يرفض رئيس الشركة عملها بسبب عدم حصولها على شهادة جامعية.

***

-هل فقدتي عقلكِ يا سحر، هل ورثنا تلك الشركة عن والدنا حتى أخبره أن يعين صديقتكِ؟!

زفرت في ضيق وقالت تنهي إلحاح شقيقتها اللامتناهي:-

-حسنًا، يجب أن أغلق الآن فلدي عمل.

أنهت المحادثة تتأفف من شقيقتها الصغرى وطلباتها التي لا تنتهي خاصة وهي تعرف كيف تديرها حول أصبعها الصغير وتدفعها بإلحاحها إلى الاستجابة لطلباتها الكثيرة.

تحركت إلى مكتب أدهم تتمنى أن يكون أكثر هدوءًا، دلفت إلى داخل المكتب ما أن سمح لها.

كان في مكانه المعتاد خلف مكتبه، وبين يديه ملف ما فقالت في تردد:-

-هناك أمر ما أريد التحدث إليك عنه يا بشمهندس إذا كان هذا ممكنًا الآن ؟

أومأ أدهم بحيرة ينتظر أن تتابع فأردفت تخبره عن تلك الصديقة لشقيقتها ومدى احتياجها للعمل بضرورة بالغة، وبالغت قليلا حتى تقنعه بالأمر.

شعر أدهم بأنه أصبح في وضعٍ حرجٍ لذا فقد قال مجبرًا:-

-حسنًا أبلغيها أن تأتي غدًا مع الباقيات، وأبلغيني باسمها قبل ذلك.

ردت في امتنان:-

-شكرا جدًا يا فندم.

لوح بيده علامة عدم الاكتراث، لتغادر سريعًا قبل أن يعود إلى عصبيته مرة أخرى بينما أدهم فقد دق بقبضته فوق المكتب في غضب شديد؛ يشعر أن خطته مهددة بالفشل، وبرغم كل شيء لن يتخلى عن فتاة في أشد الحاجة إلى الوظيفة من أجل تلك الحثالة وإن كان انتقامه غرضًا ساميًا في نظره.

برقت عينيه بشراسة وتمتم بوعيد-:

-لن تفلتي مني مهما حدث.

***

تململت شيماء في فراشها شاعرة بكسل على غير العادة بسبب الخبر السعيد الذي زفته إليها شهد.

غادرت الفراش شاعرة بالجوع، نظرت إلى الساعة لتجدها تخطت منتصف الليل، تمتمت في تعجب:-

-لقد نمت لوقت طويل جدًا!

اتجهت إلى المطبخ ومن الظلام المخيم على المكان أدركت أن شهد قد نامت.

أعدت وجبة خفيفة ثم اتجهت إلى غرفة المعيشة تتناولها أمام التلفاز، تنهدت بارتياح وبرقت عينيها في حماس وهي تفكر في تلك الوظيفة. أيمكن أن تحصل عليها، ويصبح لها راتب خاص بها؟!

كانت تائهة في خيالاتها عن حياتها الجديدة، حتى أدق التفاصيل كانت تفكر بها، تتسع ابتسامتها تارة وتتنهد في ارتياح تارة أخرى.

فجأة قطبت جبينها بألم، رفعت يدها تدلك رأسها، تشعر بألم قاتل، شردت قليلا لتتحرك ذكرياتها كفيلم سينمائي أمام عينيها، وكأنها تخص شخصًا آخر.

اقترابه منها وانتهاكه لجسدها بين صرخاتها التي تزيده استمتاعًا وهناك ...

- شيماء!

انتفضت وكأنها كانت في كابوس مؤلم، والتفتت إلى شهد التي أفزعتها رؤيتها جالسة بدون أي حركة، جاحظة العينين وعبراتها تنهمر في صمت.

التفتت شيماء تنظر من حولها في ارتباك واضح تحاول أن تتذكر ما الذي حدث بدون جدوى، فهي لم تنتبه إلى عودتها للماضي.

ابتسمت في شحوب:-

-أنا بخير، فقط شردت قليلا.

تأملتها شهد بقلق ثم قالت:-

-لماذا تبكين؟!

رددت بتعجب:-

-أبكي!

رفعت كفها إلى وجنتيها لتتفاجأ بتلك العبرات، نظرت إلى كفها المبلل بدموعها في تعجب بالغ ثم تمتمت بشرود:-

-أنا لم أشعر...

جلست شهد بجوارها وربتت على كتفها قائلة بهدوء رغم قلقها البالغ من أن يكون درع شيماء القوي قد بدأ في التشقق الآن:-

-حسنًا لا يهم طالما إنكِ بخير.

استطردت في بهجة:-

-البنت راسلتني، وقالت إن المقابلة الشخصية غدًا.

تناست تمامًا ما حدث تتساءل في بهجة مماثلة:-

-حقًا؟!

أومأت شهد بسعادة ثم قالت:-

-والآن أيتها المساعدة الشخصية، حاولي أن تحصلي على قسط كبير من الراحة لتستعدي جيدًا من أجل الغد.

اتجهت شيماء إلى غرفتها ثم التفتت إليها تتساءل بقلق:-

-هل تعتقدين إنه من الممكن أن يتم تعيني؟

- أثق في ذلك.

وكأن كلماتها قد أزاحت حملا ثقيلا عن كاهلها فتنهدت في ارتياح بالغ وعادت إلى غرفتها، وبرغم ساعات نومها الطويلة التي اتخذتها وسيلة للهرب حتى الآن إلا إنها للمرة الأولى تتمنى مجيء الصباح سريعًا تتعجل الرد على سؤالها:-

هل سوف يبتسم لها القدر؟!

***

دلفت شيماء بخطوات متوترة وجلة إلى داخل الشركة، ولم تستطيع منع نفسها من الانبهار بذلك البناء الضخم.

كانت تسير بحذر فوق الأرضية الرخامية، واتجهت إلى مكتب الاستقبال قائلة بحزم رغم توترها البالغ:-

-من فضلك، أنا هنا من أجل المقابلة الشخصية لوظيفة المساعدة.

ردت الفتاة الجالسة خلف المكتب بروتينية مملة، وقد أجابت على هذا السؤال كثيرًا هذا الصباح:-

-الطابق الأول أول مكتب يمينًا.

شكرتها بهدوء ثم اتجهت إلى الدرج، وقد وجدتها فرصة لتهدئة أنفاسها المتسارعة من شدة الخوف. تنهدت بعمق ثم دخلت إلى المكتب لتتوقف قدماها في ذهول، وهي ترى العديد من الفتيات ويبدو إنهن هنا من أجل الوظيفة.

ازدردت لعابها في خوف، فلا مجال أبدًا لتوظيفها فإذا خاضت أي مقارنة بينها وبينهن لن تكون النتيجة في صالحها أبدًا.

تأملت ثيابها البسيطة وقد شعرت بامتنان عميق تجاه شهد التي وضعت لها تلك البدلة الرسمية في غرفتها قبل أن تذهب إلى عملها في المشفى.

رمقتها الفتاة الجالسة خلف المكتب بنظرات متفحصة واستطاعت بوضوح قراءة عدم الرضا على وجهها أو هكذا ظنت.

حاولت تجاهلها، وأخذت الاستمارة التي أعطتها إياها.. تفحصت المكان بنظرة سريعة حتى وجدت مقعدًا خاليًا في نهاية الغرفة فاتجهت إليه، وبدأت في ملأ البيانات، شعرت بحرج شديد عندما وجدت أسئلة تتعلق بمؤهلها، والدرجات العلمية التي حصلت عليها من دكتوراه وغيرها.

انتهت من تعبئة الاستمارة سريعًا بعدما تركت العديد من الأماكن الفارغة ثم أسرعت تجاه المساعدة والتي كانت على وشك التوجه إلى مكتب المدير تحمل العديد من الاستمارات التي انتهت من تفحصها.

اعترضت طريقها قائلة بسرعة:-

-فلتأخذي استمارتي أيضًا، لقد انتهيت من تعبئتها.

أخذتها على عجل، ووضعتها بين الورق بدون أن تنظر إليها.

تنهدت شيماء بارتياحٍ بالغ، وهي تراها تتجه إلى المكتب واستمارتها معها ثم عادت مرة أخرى إلى مقعدها.

تمر الدقائق ببطءٍ شديدٍ حتى تعالى صياح المدير الكهل في المكان، واندفع خارجًا من مكتبه كالعاصفة قائلا بغضب:-

-أنتن هنا في شركة لها مكانتها في الأسواق لا في روضة للأطفال.

استطرد بحنق:-

-كيف لفتاة بدون شهادة جامعية أن تتقدم لتلك الوظيفة؟!

انكمشت في مكانها ترغب في الاختفاء، وترقرقت عبرات الإهانة في عينيها، ولكنها لم ترفع رأسها وكأنها تخشى نظراتهم إذا تعرفوا عليها.

انتفضت عندما أردف بغضب ملوحًا بتلك الورقة بين يديه:-

-أين تلك المدعوة شيماء عبد الفتاح؟!

ذكره لاسمها زاد من شعورها بالخزي، نهضت سريعًا وركضت خارجة من ذلك المكان تلحقها ضحكاتهم الساخرة. لم تتوقف عن الركض أو تبالي بنظرات الموظفين التي لاحقتها حتى وصلت إلى الشارع ليرتجف بدنها في صدمة متأخرة وتنهمر دموعها في صمت.

***

ظلت تسير في شرود وقد جفت دموعها فوق وجنتيها مع مرور الوقت، ألقت نظرة عابرة على هاتفها والذي لم ينقطع رنينه للمرة الثالثة على التوالي، لم تكن في رغبة للتحدث مع أحد، ولكنها لم ترغب أيضًا في إثارة قلق شهد.

صدح صوت شهد القلق:-

-أين أنتِ يا شيماء، لقد أصابني الجنون من شدة قلقي؟

ردت بحزن واضح رغم محاولاتها لإخفائه:-

-أنا بخير، لا داعي للقلق، سوف أسير قليلا ثم أعود.

تساءلت شهد بتوتر:-

-حسنًا لكن ماذا حدث في المقابلة؟

منعت دموعها بصعوبة عندما أعادت مشهد إهانتها في ذلك المكان وأجابت بخفوت:-

-عندما أعود سأخبركِ.

أنهت المحادثة بدون أن تنتظر إجابة شهد. رفضت أن تركب أي وسيلة نقل لتؤخر ذهابها إلى المنزل، فكانت تتألم تحت وطأة الإهانة.

كففت عبراتها في غضب وامتعاض، رغم كل الآلام إلا إن أكثر ما تبغضه هو ذلك الضعف الذي تخلل أوصالها حتى صار جزءًا منها. تريد أن تعود إلى شخصيتها القوية اللامبالية بالآخرين وكلماتهم المؤذية.

وصلت أمام المبنى لتتفاجأ بتوقف سيارة مراد أمامها مباشرة، ترجل ليظهر وجهه الرجولي الذي اعتلاه القلق في تلك اللحظة وصاح:-

-هل أنتِ بخير؟

أومأت في صمت، وتساءلت بحيرة متعجبة من قلقه:-

-لكن ما الذي تفعله هنا؟!

- لقد هاتفتني شهد؛ كانت قلقة.

استطرد مشيرًا إليها أن تتقدمه:-

-فلتصعدي إلى المنزل الآن.

تقدمته بخطوات بطيئة ثم لاحظت أنه لا يتبعها فتساءلت:-

-ألست قادمًا؟

هز رأسه نافيًا وقال في حزم:-

-لا أستطيع، يجب أن أعود إلى العمل، لقد أردت أن أطمئن عليكِ فقط.

ابتسمت لأول مرة منذ هذا الصباح، ورمقته في امتنان واضح ثم اتجهت إلى داخل المنزل بدون أن تلاحظ إنه لم يغادر فورًا بل انتظرها حتى دلفت إلى داخل المبنى قبل أن يتحرك بسيارته مبتعدًا.

***

- أنا آسفة حقًا يا شيماء، أقسم أني لم أقصد أبدًا أن تكوني في مثل هذا الموقف.

اعتذرت شهد للمرة الألف وهي ترمق شيماء بتأنيب ضمير ثم أردفت:-

-أقسم أني أوضحت لتلك الفتاة الوضع قبل أن أخبركِ بالوظيفة، أنا آسفة حقًا لما حدث.

ابتسمت شيماء رغم ضيقها وقالت بينما تربت على كف شهد بلطف:-

-أعرف هذا، وبالطبع لا ألومك فليس ذنبكِ ما حدث.

شردت قليلا ثم أردفت بحزن:-

-أنا فقط ألوم تلك الظروف الذي دفعت شخصًا كهذا أن يهينني.

جلست شهد بجوارها وأحاطتها بذراعها قائلة بحنان:-

-سوف تمر تلك الأزمة قريبًا لا تقلقي، سوف يكون كل شيء بخير.

لم تستطيع شهد رؤية ابتسامتها الساخرة، فتلك الأحلام بعيدة تمامًا عن مثيلاتها فالحياة لهن تتحول إلى مجموعة من الأزمات فقط، كارثة ثم كارثة أخرى وهكذا...

ابتعدت عنها قائلة:-

-سوف أذهب إلى غرفتي لبعض الوقت.

لم ترغب شهد في تركها وحيدة إلا أن النظرة في عينيها أخبرتها عن مدى حاجتها إلى تلك الوحدة، وكما خمنت فقد ظلت شيماء تنتحب بخفوت في غرفتها فتلك الشفقة التي تهيأت لها في نظرات شهد تقتلها وتمزقها أربًا.

بعد ساعات هدأت شهقاتها ثم ارتفع رنين هاتفها لتجده مراد شعرت بالقلق من اتصاله فأجابت سريعًا ليأتي صوته قائلا بلهفة:-

-شيماء! لقد وجدت الوظيفة المناسبة لك.

كادت أن تعترض وقد شعرت بالاكتفاء من الإهانات لكنه استطرد في حماس:-

-هناك شخص يطلب مساعدة شخصية بدون أي مؤهلات أو خبرات غير معرفتها بالقراءة والكتابة واللباقة كما أن الشركة معروفة ولها سمعة جيدة، لقد سألت رئيسي عنها.

فغرت فاهها في ذهول وصاحت بتعجب:-

-هل أنت متأكد؟!

- سوف أرسل لكِ رسالة بها صورة للإعلان.

أنهى المكالمة لتصل إليها رسالة تتضمن صورة ذلك الإعلان، لم يكن مراد موهومًا فما أخبرها به كان حقيقة، لكن أي نوع من أرباب العمل يتطلب مساعدة شخصية بتلك المتطلبات الضعيفة.

تأملت رقم الهاتف المرفق بالإعلان في تردد ثم قررت المخاطرة مرة أخرى، فلا يوجد ما تخسره.

هاتفت الرقم ليرد صوت أنثوي، وما أن أخبرتها بخصوص الإعلان حتى قالت بجدية:-

-حسنًا، أرسلي بياناتك في رسالة إلى هذا الرقم أو على الإيميل الخاص بنا، وعندما يتم تحديد موعد المقابلة الشخصية سوف أهاتفكِ.

- حسنًا، شكرًا.

أنهت المحادثة، وتنهدت في إرهاق تتمتم:-

-يا الله وفقني هذه المرة فلقد أرهقني البحث ولن أتحمل أي إهانة مرة أخرى.

نهضت وارتدت ثيابها مرة أخرى لتعاود البحث في المحلات عن وظيفة ما فلن تنتظر اتصال تلك السيدة حتى لا تتحطم آمالها مرة أخرى على صخرة

الواقع كما أن موعد الدفع الشهري سوف يقترب وهي لا تملك المال للدفع لذلك يجب أن تحصل على وظيفة قبلها.

نفضت عنها خيبة الأمل التي تعرضت لها اليوم وحاولت أن تتحلى بالإصرار مرة أخرى حتى تبدأ في رحلة جديدة من البحث.

***

شعرت شهد بالشفقة على شيماء التي عادت منذ بضعة دقائق متعبة للغاية وقد ظهر ذلك بوضوح على وجهها وشعرها الأشعث. لم تتخلص من إحساسها بالذنب؛ لأنها تسببت في إهانتها دون قصد، كما ضايقها شعورها بأن شيماء تختلي بنفسها في قوقعة بعيدة عنها، وقد لاحظت ذلك منذ يومين أي منذ ذلك اليوم الذي عادت فيه متألمة من إهانة مدير الشركة لها، فكانت تقضي طيلة اليوم في الخارج بحثًا عن عمل، وتعود ليلا فتدلف إلى غرفتها وتقضي ليلتها في النوم وقد أنهكها السير.

***

جلست شيماء على حافة الفراش ورفعت قدمها، ولمست باطنها برفق لتقطب جبينها وتتأوه بألم فتقرحات قدميها تؤلمها للغاية، اعتدلت وتركت ما تفعله عندما ارتفع رنين هاتفها، التقطته لتجد رقم غريب بدون هوية ردت بحذر ليرتفع صوت أنثوي قائلا:-

-شيماء عبد الفتاح؟

ردت بحيرة:-

-أجل!

-معكِ شركة آيزيك للمشروعات الهندسية، نهاتفكِ بخصوص المقابلة الشخصية سوف تكون غدًا في التاسعة.

أجابت شيماء بمزيج من السعادة وعدم التصديق:-

-سوف أكون في الموعد.

انتهت المكالمة بدون أن تغيب ابتسامتها، شكرت الله كثيرًا، وابتهلت أن تكون تلك بداية جديدة، رغم أنها فقدت القدرة على تعداد المرات التي ظنت فيها إنها على وشك الحصول على بداية جديدة وانتهى الأمر بطريقة سيئة للغاية، إلا إنها لا تملك إلا الأمل.

***

دلفت المساعدة الشخصية إلى داخل مكتب أدهم تحمل العديد من الأوراق وقالت:-

-هناك الآلاف من الفتيات قد قدمن على تلك الوظيفة لذلك فقد جعلت التقديم عن طريق محادثة تليفونية، وحددت معهن موعدًا للمقابلة الشخصية.

وضعت الورق بين يديها فوق المكتب واستطردت:-

-وقد أرسلت لأيميلك شيت أكسيل بأسماء المتقدمات كما طلبت.

أومأ أدهم، لتغادر في صمت بينما هو فقد التفت إلى حاسوبه المحمول يتفحص القائمة جيدًا، وفي شريط البحث كتب اسم "شيماء عبد الفتاح".

استغرق الأمر ثواني قليلة، ولكنها كانت كافية لتثير قلقه، خوفًا من أن تفشل خطته برغم حرصه على أن يتوفر الإعلان في كل مكان ممكن أن تتفحصه شيماء وساعد في تسهيل ذلك مراقبته لها التي عرفته على عاداتها في البحث عن عمل والصحف التي تتطلع عليها أيضًا، سرعان ما ابتسم في سعادة عندما ظهر اسمها على شاشة حاسوبه.

تمتم ببرود:-

- وأخيرًا حان الوقت!

الفصل التاسع

انتظرت "شيماء" دورها وقد انعكس التوتر في عينيها خاصة وهي تلاحظ كثرة المتقدمات للوظيفة، تنفست بعمق، وفي محاولة منها لتشغل نفسها تأملت بنظرة متفحصة الغرفة حتى انتهبت على اسمها يُنادى فتركت مكانها سريعًا، ومسدت ثيابها بحركة عفوية ثم تحركت خلف المساعدة بخطوات بطيئة حتى تمنح نفسها فرصة لتهدئة دقات قلبها.

انتظرتها أمام المكتب حتى خرجت بعدما أبلغت مديرها ثم سمحت لها بالدخول. دلفت بأرجل مرتجفة، رفعت رأسها وابتسامة باهتة على شفتيها لتظهر الدهشة في عينيها فقد كان المدير فتيًا أكثر مما توقعت ربما يكون في أواخر العقد الثالث تقريبًا.

أبعدت عينيها سريعًا عندما لاحظ تفحصها له، ليلتوى ثغره بابتسامة ساخرة وهو يراها أمامه تدعي كونها الفتاة الطيبة البريئة وكأنها تستطيع خداعه، فهو يعرف مكايد مثيلاتها، وحان الوقت لتلقينها درسًا مناسبًا.

قال بجدية:-

-تفضلي بالجلوس.

جلست سريعًا وقد كاد التوتر أن يسقطها أرضًا.

استأنف بنبرة عملية:-

-ما سبب رغبتكِ بهذه الوظيفة؟

صمتت قليلا ثم أجابت في صدق:-

-أنا بحاجة إلى وظيفة أيًا كان نوعها.

وكأنها اكتشفت إن إجابتها بعيدة تمامًا عن المثالية، ولا تُرقى لمعايير شركة كتلك فانتصبت جالسة، وأردفت بحماس:-

-لكن أنا مجتهدة وسريعة التعلم، وسوف تعجب بعملي أنا متأكدة.

أومأ في صمت بدون أن تشف ملامحه عن أي رد فعل ثم قال بنبرة فاترة:-

-حسنًا، لقد انتهينا يمكنكِ المغادرة وسوف نتواصل معكِ في القريب العاجل.

ظهرت الدهشة على ملامحها، وسرعان ما تحولت إلى خيبة أمل فلا بد أنه قد تم رفضها لا محالة، غادرت المكتب منكسة الرأس تجر قدميها جرًا في أسى، وتوبخ نفسها، فبلاهة إجابتها دفعته إلى عدم متابعة المقابلة.

ما أن غادرت حتى استدعى مساعدته، مخبرًا إياها أن تأتي بقريبتها وسوف يختار لها قسمًا آخر من الشركة مناسبًا لتعمل به ثم استطرد بحزم:-

-اطلبي من الفتيات في الخارج أن ينصرفن، وأخبريهن إننا قد اخترنا المساعدة المناسبة.

تعجبت للغاية؛ فهو لم يقابل إلا فتاتين فقط من المتقدمات للوظيفة، ومن وجهة نظرها لم تكن أيًا منهما مؤهلة كفاية، ولكن كالعادة نفذت الأوامر، وغادرت الفتيات ما بين متذمرة وحانقة.

***

- هل تنتظرين مكالمة ما؟!

قالت شهد بينما تلاحظ تفحص "شيماء" لهاتفها بين الحين والآخر.

ردت شيماء بتعجب بدون أن تبعد عينيها عن شاشة هاتفها، وكأنها تتوسله أن يرن:-

-لماذا تظنين هذا؟!

-ربما لأنكِ تنظرين إلى هاتفكِ كثيرًا، ولا تشاهدين الفيلم معي.

تركت هاتفها وابتسمت بحرج:-

-آسفة يا شهد، لم أتعمد مضايقتكِ، إنه فقط...

صمتت قليلا ثم زفرت بضيق وقالت بنبرة محبطة:-

-لقد قدمت منذ أسبوع في شركة أرسل مراد لي عنوانها، وأنا في انتظار ردهم متعلقة بأمل ضعيف..

فهمت شهد أخيرًا سبب توترها الأيام الماضية فلم تملك إلا أن تقول بنبرة مطمئنة:-

-لا تقلقي، من المؤكد أنهم سوف يتصلوا بكِ قريبًا.

لم تجد شيماء فرصة للرد فقد قاطعها رنين هاتفها لتلتقطه في لهفة، وتقول بسعادة:-

-رقم غريب.

حثتها شهد قائلة:-

-ردي سريعًا.

ردت شيماء ليأتيها صوت رجولي قائلا:-

-شيماء عبد الفتاح؟

-أجل...

استطرد المتصل ببرود واضح:-

-أنا مدير شركة آيزيك، غدًا يمكنكِ المجيء لاستلام وظيفتك في الثامنة تمامًا، وممنوع التأخير.

أنهى المحادثة سريعًا مثيرًا ضيقها حيث إنه لم يتح لها أي فرصة للرد، ألقت الهاتف جانبًا فتلك بداية لا تطمئن.

أخرجها من تفكيرها صوت شهد القلق:-

-ماذا قالوا؟

ابتسمت شيماء قائلة:-

-من الغد سوف أبدأ.

ظهرت الفرحة على ملامحها ثم تساءلت بتعجب:-

-إذا ما سبب ضيقكِ الآن؟

ردت شيماء بتذمر:-

-المدير أغلق الهاتف بدون أن يمنحني فرصة للرد حتى.

ابتسمت شهد وقالت بلطف:-

-من المؤكد إنه لا يملك وقًتا، هؤلاء الأشخاص أوقاتهم من ذهب فأبي وأعمامي هكذا أيضًا.

تربعت شيماء فوق الأريكة وتساءلت في فضول لأول مرة:-

-لم تخبريني من قبل عن عائلتكِ أعني غير شقيقتك الصغرى؟

اتسعت ابتسامة شهد لرؤية شيماء تخرج أخيرًا من حزنها وتحاول التقرب منها فقالت بمرح:-

-حسنًا، أنا أعيش مع أمي وأبي ولدي شقيقية صغرى تدرس في كلية تجارة، وأعمامي الاثنين يعيشون معنا أيضًا، كل عائلة لها طابق خاص بها.

قاطعتها شيماء قائلة:-

-مبنى عائلي؟

لم ترغب شهد في أن تتسع الفجوة بينهما إذا ما علمت شيماء عن مستواها الاجتماعي لذلك فقد قالت:-

-شبيه بذلك.

- حسنًا، تابعي.

أومأت شهد وما زالت محتفظة بابتسامتها المرحة ثم استطردت:-

-عمي الأكبر لديه ابن واحد من زوجته المتوفاة، وقد بدأ ابنه عمله الخاص في وقت قصير بينما عمي الأوسط فلديه ابن وابنة من زوجته والتي تعتبر أقرب شخص في المنزل إلى قلبي.

تساءلت شيماء بتردد:-

-ماذا عن والديكِ؟!

صمتت شهد قليلا، واختفت ابتسامتها ثم ردت بشرود:-

-إنهما مشغولان دائمًا..

لم تريد شيماء أن تثير حزنها لذلك فقد قالت:-

-فلنتابع مشاهدة الفيلم.

ابتسمت شهد بشحوب، وتابعت المشاهدة بأعين شاردة بدون أن تلاحظ شيماء التي ترمقها بين الحين والآخر بنظرات قلقة ومذنبة لكونها السبب في إثارة شجونها.

***

كان للظلام السيادة في قصر عائلة الحداد، اعتدل عدي جالسًا وقد شعر بالظمأ، تأفف عندما وجد الأبريق بجواره فارغًا اتجه بخطوات متكاسلة وأعين لم يفارقها النعاس بعد إلى المطبخ في الطابق السفلي، بينما يهبط الدرج لاحظ الضوء الخافت في الردهة مما أثار فضوله فاتجه إلى مصدر الضوء ليجد زوجة عمه "ناهد" وقد بدا على ملامحها القلق الشديد بينما تحاول الاتصال بأحدهم ولكن لا يبدو أنها تُوفق في ذلك.

رغم إنها ليست من الشخصيات المفضلة لديه ولم تكن علاقتهما على وفاق لكن كان قلقها مخيفًا له خاصة إنها من الشخصيات الغير مبالية في العادة فتساءل بقلق:-

-هل حدث شيئًا ما؟

انتفضت عندما ارتفع صوته ممزقًا الصمت المهيب، كان القلق واضحًا في نظراتها وانعكس في ردها المتوتر:-

-"سارة" لم تعد بعد إلى المنزل، وهاتفها مغلق بينما خالد فهو لا يجيب.

اختفى تمامًا النعاس من عينيه، وأصبح يقظًا تمامًا، وصاح بحنق:-

-وإلى متى كان من المفترض أن تتأخر قبل أن تقرري أن تبلغينا؟

لم ينتظر ردها بل أسرع إلى غرفة ابن عمه أدهم، والذي سرعان ما اندفع يبلغ أباه، ولم تمر ثوان حتى اجتمع الجميع في ردهة المنزل والقلق على ملامحهم.

ألتقط محمد هاتفه طالبًا رقمًا ما، ولم تمر ثواني حتى رد الطرف الآخر ليقول بحزم:-

-أنا محمد الحداد، ابنة أخي لم تعد إلى المنزل منذ الصباح ولا نعرف أين هنا.

صمت قليلا ثم أردف:-

-سوف أرسل لك صورتها.

انتهت المحادثة ليلتفت إلى نادية قائلا:-

-لا داعي للقلق، سوف يجدها.

أومأت نادية بدون أن يفارقها القلق، واستقبلت مواساة مريم الجالسة بجوارها في صمت وهدوء على غير المعتاد.

أردف محمد بحزم:-

-أدهم وعدي، فلتذهبا للبحث في جميع المشافي.

أومأ كلاهما، وقد كانا مستعدين للذهاب، أتجه عدي إلى المشافي الواقعة على شاطئ البحر بينما اتجه أدهم إلى داخل المدينة، شعر كلاهما بالقلق الشديد

فمن غير المعتاد أن تتأخر إلى ذلك الوقت، ولعل قلق نادية كان كشعلة صغيرة أشعلت قلقهم أيضًا.

زفر عدي بعدما خرج من المشفى الرابع في تلك الليلة بدون أي أثر، كان الأمر مريحًا إنها لم تصب بأذى، ولكنها ما زالت مفقودة.

رن هاتفه ليجدها أميرة، ارتفع صوتها تتساءل في أمل:-

-عدي! هل وجدتموها؟

تنهد بيأس وقال:-

-ليس بعد يا أميرة.

بدت خيبة الأمل على صوتها عندما أجابت:-

-حسنًا، إذا توصلتوا لأي شيء أبلغونا.

-حسنًا.

اتجه إلى سيارته، وقبل أن يتحرك ارتفع رنين هاتفه مرة أخرى ألتقطه بنفاذ صبر فقد أسقمه التسبب لهم بخيبات الأمل في كل مرة يجيب إنه لم يجدها، ولكن تغيرت حالته عندما وجده أدهم، رد بلهفة:-

-هل وجدتها؟

رد بنبرة غير مطمئنة:-

-لقد هاتفني أبي، وقد أبلغه أحدٌ من قسم الشرطة بوجودها في أحد المشافي، سوف أرسل لك العنوان.

أنهى المحادثة بدون أن ينتظر ردًا ثم تلقى رسالة تحمل العنوان، عقد حاجبيه فقد كان العنوان يبعد عن جامعة سارة..اتجه بسيارته إلى هناك يأمل أنها بخير.

***

استند على الحائط خلفه، أغلق جفنيه فصورتها لا تفارق ذهنه أبدًا منذ أن أحضرها إلى المشفى، جسدها العاري لا يستره إلا ثيابًا ممزقة، والكدمات تغطي جسدها كانت كجثة هامدة بين ذراعيه، لم تتحرك.. ظلت فقط مغلقة العينين مستسلمة حتى ظن أنها قد فارقت الحياة بعد ذلك الحادث البشع الذي أصابها.. ارتجف جسده فتلك الليلة لن تُمحى أبدًا من ذاكرته.

خرج الطبيب سريعًا من غرفة العمليات ولم تبدو ملامحه مبشرة أبدًا قائلا:-

-يجب أن يوقع أحد من أسرتها على التقرير، فلقد تهتك جدار الرحم، ولا نستطيع إيقاف النزيف، قد نحتاج إلى إزالة الرحم إذا استمر النزيف.

انحنى كتفيه في عجز، وأجاب بأسى:-

-أنا لم أرى وجهها جيدًا، ولا أعتقد إني أعرفها.

كاد الطبيب أن يتكلم لكن الممرضة خرجت من نفس الغرفة تستدعيه ليغادر سريعًا تاركًا إياه وقد شعر بالقلق على حال تلك الفتاة، ربما لا يعرف هويتها

ولكن تلك الجريمة البشعة قد أصابته في الصميم، يشعر بالغضب مشتعلا في قلبه عندما يفكر في هوية من فعل بها ذلك، منتهكًا جسدها بدون أي شعور بالذنب أو أن يشفق على شابة في مقتبل العمر لم ترى من الحياة شيئًا.

توقفت أفكاره عن الاسترسال عندما تقدم إليه شابًا بملابس غير رسمية وسلاحه معلقًا على جانبه الأيسر وتخفي سترته جزءًا منه، يصاحبه عسكري بملابسه الرسمية.

قال الشاب بجدية ونبرات حازمة بينما يتأمل هيئته:-

-الرائد هشام الشيال...

أومأ في صمت وقال:-

-أنا قاسم محمود...

أشار إلى الغرفة مستطردًا:-

-أنا من وجدها وأحضرها إلى هنا.

أومأ هشام بينما نظراته ترصد كل هفوة تصدر عنه ثم قال بينما يشير للعسكري ليسجل كل حرف ينطق به:-

-هناك بعض الأسئلة أرغب في طرحها عليك.

أومأ قاسم في هدوء، ليبدأ في إلقاء سيل من الأسئلة وكان قاسم يجيب بما يعرفه-وما أقل معلوماته!- بهدوء وثقة، وبعد دقائق توقف عن طرح الأسئلة

وقد ظهر على ملامحه خيبة الأمل فلم تكن المعلومات التي جمعها حتى الآن مفيدة، ولم يملك إلا أن ينتظر تقرير الطب الشرعي بعدما يرسل إليه العينات التي سوف يجمعها الطبيب من جسدها بالإضافة إلى بقايا ملابسها، ولعلهم يظفروا بنتيجة ويلقوا القبض على ذلك الوغد.

خرج الطبيب من الغرفة يلحق به سريرًا متحركًا لنقل الفتاة إلى غرفة عادية، ألقى هشام نظرة عابرة عليها بدون أن يستطيع منع نفسه من الشعور بالأسى من أجلها فإنها الضحية الثانية في هذا الشهر، وكأنه قد وقع عقدًا لتولي مثل هذه القضايا.

حانت منه التفاتة ليلاحظ ذلك الذهول المرتسم على ملامح قاسم، وقد اتسعت حدقتيه وشحب وجهه بينما يرى وجهها لأول مرة في ذلك المساء رغم اختلاف ذلك الوجه عن المعتاد، وقد زينته الكدمات بدلا من مستحضرات التجميل الباهظة.

تساءل هشام بلهفة:-

-هل تعرفت عليها؟

ظل صامتًا لبرهة ثم رد بدون أن يفارقه ذهوله:-

-إنها سارة..

أردف لتكون الصدمة الحقيقية من نصيب هشام:-

-سارة خالد الحداد.

وها هو القدر يجمعه بطريقة ساخرة مرة أخرى بعائلة الحداد.

حاول أن يتجاهل كل شيء ويتصرف كأي قضية أخرى، التفت إلى العسكري قائلا:-

-فلترسل خبرًا إلى عائلة الحداد.

أومأ العسكري في طاعة وغادر لتنفيذ الأمر، ولم تمر دقائق حتى كان المشفى مزدحمًا بأفراد عائلة الحداد.

أدرك غياب خالد الحداد بنظرة ثاقبة بينما تقدم محمد الحداد منه متسائلا بقلق:-

-ماذا حدث لسارة؟

كان الجميع يقف مترقبًا للإجابة وقد وقف عدي بجوار والدته وعمته "ناهد" في دعم..

حاول أن يجد الكلمات المناسبة لأخبارهم بما حدث، ولكن أعفاه قدوم الطبيب عن الرد، بعدما تعرف على أهل الضحية قال:-

-لقد تعرضت الضحية للاغتصاب، ويبدو إنه كان أكثر من شخص مما سبب نزيفًا.

سقطت ناهد أرضًا بعد سماعها تلك الكلمات، ولم تملك القدرة على الوقوف على قدميها بينما شحب وجهها وجحظت عيناها وهي تنظر إلى الطبيب في

عدم فهم، ساعدتها مريم الدامعة على النهوض بينما شحب وجه البقية، استأنف الطبيب بعدما ترك لهما برهة لاستيعاب الخبر:-

-لقد استطعنا السيطرة على النزيف، وبالتالي لم يكن هناك داعيًا لإزالة الرحم، ولكنها سوف تحتاج إلى طبيب نفسي بعد استيقاظها.

تركهم الطبيب فجلس محمد وسيف في إرهاق وذهول، مسح محمد على وجهه بأسى بينما حاول سيف الاتصال بخالد مرة أخرى بدون جدوى، ارتفع نحيب ناهد المكتوم في أحضان مريم بينما أدهم وعدي فقد كانا يراقبان في صمت وقد استبد بهما الأسى على حال ابنة عمهما.

***

ارتفع رنين هاتفه مرة أخرى ليزفر بملل ما أن رأى اسم سيف مجددًا، وضع هاتفه على الوضع الصامت وقد أزعجته اتصالاتهم المتكررة فلا بد إن ناهد دفعته للاتصال عندما لم يجيب على اتصالاتها سابقًا.

ركز انتباهه على الطاولة أمامه، تأمل الأوراق بين يديه فيبدو أن الحظ سوف يكون حليفه الليلة، وضع الأوراق وابتسامة ظافره على شفتيه لترتفع صيحات الاعتراض وتنطلق ضحكاته قائلا لأحد الرجال المجتمعين حول المائدة:-

-إذًا فإن مشروع الساحل قد أصبح ملكي الآن.

رمقه الرجل ببغض شديد لتتسع ابتسامة خالد، وأبتلع مشروبه في رشفة واحدة ثم غادر تلك الشقة التي اعتاد اللجوء إليها للاستمتاع، قاد سيارته ببطء يتناسب مع ثمالته.

لم يشعر إلا بتوقفه أمام الشركة، ترجل من السيارة بخطوات مترنحة، واتجه إلى باب الشركة بدون أن يكلف نفسه عناء غلق السيارة. لم يحاول أحد من الحراس إيقافه وكأنهم اعتادوا على ذلك ما عدا الحارس الجديد الذي شعر بتعجب شديد من قدومه في تلك الساعة المتأخرة من الليل لكن زملائه حذروه من ذكر ذلك لأي شخص مبررين إنه الرئيس ولا يمكن أن يُعدل عليه أحد فحافظ على صمته.

ابتسم ما أن دلف إلى الردهة متذكرًا تلك الطفلة ذات الجسد المغوي للقديس نفسه، ففي ذلك اليوم كان يجلس خلف مكتبه معقود الحاجبين يركز على قراءة الأوراق بين يديه حتى جاءته رسالة فنهض مغادرًا مكتبه مبكرًا على غير العادة مما استدعى نظرة متعجبة من مساعده.

قال خالد ببرود بينما يمر أمام مكتبه:-

-أرسل الأوراق فوق مكتبي إلى مكتب محمد.

أومأ بطاعة ليتابع خالد طريقه مصفرًا بلحنه المفضل، وقد بدا مزاجه جيدًا للغاية، وبينما يغادر الشركة توقف قليلا عندما دلفت بتنورتها الرمادية، وقميصها الأبيض الذي يتنافس في لونه مع بشرتها بينما شعرها فقد كان على هيئة ضفيرة على كتفها وبعض الخصلات المتمردة فوق جبينها.

ابتسمت بطفولية تتلاءم مع عمرها هاتفة بلهفة:-

-أبي!

مرت بجانبه راكضة، ليطيع فضوله ويلتفت ليجدها بين أحضان رجل قد غزا البياض شعره، ما أن التفت الرجل حتى أدرك إنها ابنة مساعده العجوز الذي ترك مكتبه لاستقبالها، تعجب إنه لم يعرف بها من قبل.

ظل واقفًا برهة يتأملها ونظراته تتركز على جسدها الذي يفوق عمرها نضجًا، ولم تكن ثيابها المدرسية حائلا له بل زادتها حلاوة في نظره.

رن هاتفه ليبعد نظراته الماكرة عنها ويتذكر وجهته فالتفت مغادرًا لكن ليس قبل أن يلقي نظرة أخيرة عليها.

تذكر تلك الصغيرة دفعه إلى الاتجاه إلى غرفة مليئة بشاشات الحاسوب، ولم تمر دقائق حتى خرج من الشركة وقاد سيارته إلى وجهته.

توقفت السيارة أمام مبنى متواضع للغاية يكاد يكون متهالكًا وقد ترك الزمان آثاره عليه، كان الشارع خاليًا من المارة في تلك الساعة المتأخرة من الليل. صعد الدرج بخطوات بطيئة مترنحة حريصًا على عدم جذب الأنظار ثم توقف أمام شقة محددة وبدون أي تفكير دق الباب.

فتحت الباب ترمقه بنظرات قلقه متسائلة ليقول:-

-هل هناك أحد كبير هنا يا صغيرة؟

ردت ببراءة بينما تتأمله في فضول:-

-لا، فوالدي في عمله المسائي.

اتسعت ابتسامته متمتمًا:-

-لعل ذلك من حسن حظي.

ثم أردف ببراءة ذئب:-

-هل يمكن أن أحتسي كوبًا من الشاي في انتظار والدكِ؟

ترددت قليلا ليردف:-

-لا تقلقي يا صغيرة، فأنا صديق لوالدك.

ربما كلمة "صغيرة" قد ساهمت في دفعها للثقة به، خاصة إنه قد بدا غير مؤذي ولم تلاحظ أن أكثر الذئاب شراسة قد يبدو كالحمل الوديع، وأن بعض الكلاب الأليفة هي في أصلها ذئاب اسئنسها البشر، أفسحت له ليدخل، وما أن أغلق الباب حتى ظهر الذئب على حقيقته بعدما كان يتوارى خلف ستار من البراءة ولتقع ضحيته وتُسفك قطرات دماء معلنه نهاية كل شيء.

***

فتحت عينيها ببطء لتقابل نظراتها اللون الأبيض يحيطها من جميع الجهات، كانت هادئة إلى حد ما حتى رأت أحدهم أمامها يحاول أن يقيدها مرة أخرى

ليعيد الكرة وينتهك جسدها مجددًا لكن تلك المرة لم يخرج صوتها من حلقها، تفتح فمها ولكن فقط صمت لعين يخرج.

قاومت بعنف رغم الألم الذي يمزق جميع أنحاء جسدها، لم تبالي بالألم الذي تسببه لنفسها كانت تخدشه بأظافرها يمينًا ويسارًا حتى شعرت بألم في ذراعها لتهدأ حركاتها رويدًا وتعود مرة أخرى إلى تلك الغيبوبة.

لم تستطيعا نادية ومريم منع عبراتهما من الانهمار بينما يشاهدا سارة تقاوم الطبيب بكل تلك الشراسة وكأن حياتها تعتمد على ذلك.

ارتفعت شهقات ناهد وهي ترى حطام ابنتها لتضمها مريم وقد اغرورقت عيناها بالعبرات أيضًا، بينما رجال العائلة فقد كانوا يراقبوا الموقف في إشفاق بدون أن يستطيع أحدهم تصديق إن تلك هي سارة.

خرج الطبيب ولم يكن بحاجة إلى توضيح الحالة فقد كان الأمر شديد الوضوح لكن كان من واجبه أن يقول:-

-أنصح بعرضها على طبيب نفسي، فالتجربة كانت مؤلمة بالنسبة إليها، ومن الأفضل أن نسرع في معالجة الوضح قبل أن تتدهور الحالة.

قال محمد بصفته كبير العائلة الموجود الآن ولغياب والدها:-

-سوف نعرضها على أشهر الأطباء وإن اضطررنا لأن تسافر إلى الخارج.

-لن يكون هناك داعي لذلك، أعتقد أن وجودها معكم سوف يكون له عامل أسرع في علاجها.

أومأ محمد وزفر بعمق فالمصائب لا تنفك تلاحق أسرته، التفت إلى سيف قائلا:-

-فلتتصل بأمنا تطمئنها، ولا تخبرها بالحقيقة فقط اكتفي بقول إنها بخير.

أومأ سيف وأسرع في تنفيذ الأمر على غير المعتاد لكن الموقف الحالي لا يحتمل أي جدال.

تابع محمد بحزم:-

-أدهم وعدي، فلتأخذوا مريم ونادية إلى المنزل الآن.

رفعت نادية رأسها والعبرات تغرق وجهها قائلة في إصرار:-

-أنا لن أترك ابنتي.

قال أدهم بنبرات هادئة:-

-لا داعي لوجودنا هنا يا عمتي، فسارة نائمة ولن تستيقظ إلا في الصباح.

أردف عدي بصدق:-

-وأنا سوف أحضركِ إلى هنا في الصباح الباكر، أعدكِ بذلك.

بعد محاولات طويلة، رضخت ناهد وغادرت بصحبة كلا من أدهم وعدي بينما سيف ومحمد فقد بقيا لمتابعة إجراءات التحقيق وإن تطلب الأمر سوف يستخدموا سلطة اسم العائلة لإيجاد الفاعلين فنفوذهم أكثر من كافي ليحقق العدالة لأبنتهم.

لم يتوقفا عن الاتصال بخالد ليعرف ما حل بابنته ويكون سندًا لزوجته لكن كل محاولاتهما كانت بلا جدوى فقد كان يتجاهل مكالماتهما مما أغضب محمد للغاية وأحنقه كون خالد مستهترًا إلى ذلك الحد.

***

تثاءب عدي بإرهاق ثم عدل من وضعه ببطء حريصًا على ألا يفزع أميرة التي هاجمها النعاس واسترخى رأسها بتكاسل فوق كتفه، تأمل الجميع من حوله؛ عمه محمد وأدهم يجلسون معًا وقد انضم إليهما والده بعد اختفائه لبضعة ساعات بينما بجوار والدته الدامعة وجدته، التي لم تعرف إلا أن حفيدتها قد أصيبت في حادث سيارة وتمزق قلبها ألمًا ولم تتوقف عبراتها، كانت تجلس ناهد شاحبة للغاية بينما حدقتيها فقد أصبحتا شديدتي الاحمرار وبرغم ذلك فما زال هناك المزيد من العبرات تنهمر في صمت.

مزق ذلك الصمت المؤلم صفير مرح بلحن شهير، دلف خالد مترنحًا ليقف متفاجئًا من اجتماعهم في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وبرغم إنه قد التقى سيف منذ ساعات إلا أنه لم يعرف بعد بما أصاب ابنته.

كانت رؤيته مشوشة قليلا بفعل الخمر الذي اجترعه، ولكنه استطاع رؤية ناهد تتقدم إليه بخطوات بطيئة ونظراتها تطلق أسهم قاتلة تجاهه.

قالت بنبرات باردة:-

-أين كنت؟

أطلق ضحكة عابثة، وتقدم بخطوات متعثرة يحتضنها صائحًا بهذيان:-

-انظروا من هنا، إنها زوجتي العزيزة!

دفعته بقوة ليتراجع إلى الخلف مترنحًا، وصاحت بنبرة باكية مشبعة بالغضب:-

-اللعنة عليك! أين كنت، ولماذا لم ترد على هاتفك؟

تمتم بغضب بينما يحاول أن يقف متزنًا:-

-هل جننتي لترفعي صوتكِ أمامي؟! لقد تجاوزتي حدودكِ، ويبدو إنكِ بحاجة إلى التأديب.

تقدم تجاهها بخطوات متوعدة مترنحة، ولكنه اندفع فجأة إلى الخلف وسقط أرضًا بعدما تلقى لكمة قوية تركت أثرها فوق وجنته اليسرى، نهض ليرد اللكمة إلى محمد الذي كان يرمقه بنظرات تقطر شزرًا، ولكن محمد لاحقه بأخرى بدون أن يبالي بصرخات والدته، فقد أحنقه عدم مسؤوليته وتجاهله لمكالماتهم.

جذبه من ثيابه بقوة، وفتش فيها حتى وجد هاتفه، وضع الهاتف أمام عينيه صائحًا:-

-فلتنظر إلى عدد المرات التي اتصلنا بها بك، ألم تفكر بضرورة الأمر؟!

دفعه صائحًا بنبرة ساخطة:-

-ماذا تريد مني اللعنة عليك؟ ليس من شأنك أي من تصرفاتي.

أردف بلهجة متشفية وقد ترك العنان لغضبه وحقده:-

-فلتنظر إلى تصرفات ذلك من حصل على حبيبتك رغم معرفته بكل شيء، ولم تفعل شيئًا.

اشتعل الغضب في نظرات محمد، وأحمر وجهه وضم قبضته استعدادًا ليلكمه مرة أخرى أمام نظرات الجميع، ولكن توقفت قبضته أمام وجه خالد مباشرة ثم اخفضها متمتمًا في استنكار:-

-إنك فقط لا تستحق أي جهد.

لوح خالد بيده بعدم مبالاة، ثم اتجه إلى غرفته بدون أن يبالي بنظراتهم المستنكرة.

توقف فجأة وجحظت عينيه في ذهول وارتجف كفه المستند على الدرابزين، ثم التفت ببطء وفي نظراته أمل أن تكون مجرد دعابة عندما صاحت ناهد بكل الألم في قلبها وبنبرة مريرة-:

-لقد اغتصبوا ابنتك يا خالد.

أردفت بنحيب وقد عجزت قدماها عن حملها لتسرع مريم إليها تساعدها:-

-اغتصبوا طفلتنا "سارة".

الفصل العاشر

وقفت أمام سيارتها تودع صديقاتها بخيلاء، ركبت سيارتها وبدأت بالقيادة ولكن لم تكن إلا دقائق حتى توقفت السيارة عن الحركة تمامًا، حاولت مرة أخرى بدون أي نجاح.

ترجلت من السيارة، فتحت غطاء المحرك تحاول أن تفهم أين الضرر بدون جدوى..

تمتمت بسخط:-

-اللعنة على ذلك!

التفتت حولها لعلها تجد أحدًا، ولكن الطريق كان هادئًا في فترة الغروب، لعنت حماقتها لاختيارها ذلك الطريق دونًا عن غيره لتجنب الزحام.

عادت إلى السيارة فتشت في حقيبتها عن هاتفها لكن لم تجده، تذكرت عندما كان معها في الكافتيريا لتصرخ بسخط فلا بد إنها قد فقدته هناك، لا ينقصها إلا أن تفقد هاتفها في تلك اللحظة التي هي في أمس الحاجة إليه.

تنهدت ثم ترجلت وتأكدت من غلق سيارتها، ، ومسدت بتوتر على سروالها الجينز وبدأت بالسير لعلها تجد ميكانيكيًا في تلك المنطقة.

-تبًا!

صرخت بها عندما تعثرت بذلك الكعب العالي لتسقط على ركبتيها، منعت عبراتها بصعوبة بينما تنهض وتحاول أن تنظف سروالها الملطخ بكفها.
حاولت أن تسرع فالظلام يخيم سريعًا للغاية بشكل مخيف بينما شعرها يتناثر بعشوائية بالغة حول وجهها الذي تلطخ نتيجة لسقوطها، كانت صورتها بعيدة تمامًا عن تلك الفتاة المدللة الجميلة في الكلية.

ارتجف جسدها وبدأت تسرع في خوف عندما ارتفعت تلك الخطوات من خلفها ثم تركت لخوفها العنان وبدأت بالركض سريعًا، لم تملك الشجاعة لتنظر خلفها، ولكنها استطاعت الشعور بهم خلفها، كانوا أكثر من واحد.

توقفت تتلاحق أنفاسها بصعوبة بينما قلبها فقد كان يقفز برعب بداخل صدرها بينما حبيبات العرق تجمعت فوق جبهتها تتأمل الطريق المسدود أمامها، التفتت بخوف لتجدهم يقتربون ببطء ولم يكن الظلام كافيًا لإخفاء ابتسامتهم المثيرة للاشمئزاز أو تلك النظرات الشهوانية في عينهم.

تراجعت بخطوات متعثرة حتى التصق ظهرها بالجدار، صاحت بصوت حاولت أن تودعه الثقة ولكنه خرج مرتجفًا خائفًا:-

-لا تجرئوا على الاقتراب مني!

أردفت في محاولة للخلاص:-

- إن أبي يملك الكثير من الأموال، وسوف يكافئكم إذا تركتموني دون أذى.

لم يبد عليهم أي اهتمام بكلماتها، فقط تابعوا تقدمهم بينما هي فقد كانت تتمنى أن تخترق الجدار هربًا.

صرخت بخوف عندما جذبها أحدهم لتصطدم بصدره، دفعته بقوة ليختل اتزانه ويقع أرضًا، حاولت الهرب ولكن الاثنين الآخرين كانا لها بالمرصاد فقد قيداها وألقياها أرضًا ثم ثبتاها بأيديهما بينما ثالثهم فبعدما نهض بخطوات مترنحة بصق جانبًا وابتسم باستمتاع كاشفًا عن أسنان قذرة.

كانت تتلوى بعنف تحاول أن تخلص يديها وقدميها من قيودهما بدون جدوى فقد أحكما قيودهما حولها، صرخت باهتياج شديد عندما لامسها الثالث بكفه القذر، وارتجف بدنها واشتد عنف حركتها عندما شعرت بأنفاسه القذرة تلامس وجهها، لكمها بعنف صائحًا بغضب:-

-توقفِ عن الصراخ، اللعنة عليكِ.

صرخت في استغاثة:-

-فلينقذني أحد، أرجوكم..

أردفت ببكاء:-

-أرجوكم..

لم تتوقف أبدًا مقاومتها كانت تصرخ وتشتم بدون أن يتأثروا، لم تحرك دموعها مشاعرهم، لامست يداه جسدها مدنسة إياه، قبح أنفاسه قتلها ببطء

وكأنه سمٌ مميتٌ، انتهى من تدنيس جسدها ليتبادل الأدوار مع صديقيه وعندما انتهوا غادروا في انتشاء وكأنما أسعدتهم تلك اللحظات كإثبات لفحولتهم.

في تلك الطرقات المظلمة كانت جسدًا عاريًا لا يغطيه إلا قطع ممزقة من الثياب، شعر أشقر يحجب وجهًا مغطى بالكدمات؛ شفاه مجروحة، وأعين مغلقة في استسلام مميت، لم يبدو عليها أي أثر للحياة أو هكذا ظن ذلك الشاب الذي كان عائدًا من عمله الليلي وبرغم فظاعة المنظر وارتجاف بدنه لمرأى تلك الجريمة لم يجد إلا أن يحيطها بمعطفه ثم اتصل بصديق له ليستخدم السيارة الأجرة التي يعمل عليها ويذهب بها إلى أقرب مشفى..

***

-اغتصبوا طفلتنا "سارة".

ظل خالد صامتًا في صدمة وذهول ثم اندفع صائحًا بهيستيرية:-

-أنتِ تكذبين أيتها اللعينة، سارة بخير.

صرخ مناديًا إياها:-

-سارة!

انتفضت من بين ذراعي مريم وتقدمت تجاهه قائلة بنظرات مفعمة بالكراهية والاحتقار:-

-أنت من تسبب لها بذلك.

أردفت صارخة:-

-قذاراتك، التي كنت أعرفها جيدًا، قد طالت ابنتك الطفلة.

دفعته بعنف تتابع بهيستيرية:-

-أنت السبب، لقد ضاع مستقبلها بسببك أيها المدنس الحقير...

صرخت بألم عندما صفعها بقوة أسقطتها أرضًا، رفعت رأسها إليه بينما خيط من الدماء يتسلل على جانب شفتيها، وضحكت بدون مرح حقيقي والعبرات في عينيها:-

-فلتصفعني مرة أخرى إذا كان هذا سوف يبعد عنك ذلك الوزر.

أردفت بشراسة:-

-ذنب ابنتي سوف يحيط عنقك حتى يأتي يوم حسابك.

نفض عنه تأثرها بكلماتها وقال ببرود من أعتاد إلقاء الذنب على غيره والتملص من المسؤولية:-

-بل أنتِ السبب يا ناهد، فأنتِ من لم تعتني جيدًا ببناتكِ؛ فواحدة تعيش وحيدة خارج منزل العائلة بينما الأخرى فقد اغُتصبت بسبب إهمالك.

قبل أن تتكلم ارتفع صوت ابنته الكبرى والتي ما أن دلفت إلى القصر حتى شهدت المشهد بين والديها:-

-بل أنت السبب يا والدي العزيز.

أردفت بحرقة:-

-هل يمكن أن تخبرني متى اعتنيت بإحدانا، فالكل يعرف جيدًا إنك منغمس في شهواتك حتى إنك...

دفعها بقوة صائحًا بنبرة مهينة:-

-فلتصمتي يا فتاة فيبدو أن ناهد لم تحسن تهذيبك.

ابتسمت بسخرية وكانت إجابتها هي الخروج من المنزل قبل أن يمنعها أحد أما هو فقد صعد ببرود إلى غرفته بينما جلست الجدة على المقعد والدموع تغرق وجهها وقد أدركت ما أصاب حفيدتها.

شعر محمد باحتقار شديد تجاه شقيقه يشاركه ذلك الشعور سيف والذي كان حانقًا للغاية من شقيقه الذي لا ينفك في التورط في العديد من الفضائح بداية من الاستدعاء إلى القسم مما اضطره إلى دفع أمولا طائلة لتزوير تقرير الطب الشرعي لتلك الفتاة برغم تأكيد خالد إنه لم يراها من قبل ولكنه فقط لم يستطيع أن يثق به ثم نهاية بمصيبة اليوم التي سوف تقودهم إلى الجحيم إذا تم معرفتها، وها هي ابنته مثله تتسبب في تدنيس اسم عائلة الحداد فإذا تسلل هذا الخبر إلى الإعلام سوف يكون صداه مدويًا في جميع الأنحاء وربما يفتح أبواب أخرى مغلقة ولن يعاني بسبب هذا إلا خالد وهو.

كانت مشاعر محمد الحالية هي الاشمئزاز والغضب؛ لقد تجاوز خالد حدوده.. وقف بجوار ناهد ومريم يرمقهما بنظرات مشفقة حزينة، وكلتاهما

لم تتوقف عبراتهما بينما أميرة فقد كانت تنتفض في عنف بين ذراعي شقيقها والدموع تتلاحق فوق وجنتيها حتى ساعدها عدي على الذهاب إلى غرفتها بينما يرمقها بنظرات قلقة، استلقت فوق فراشها ولم يتوقف جسدها عن الارتجاف ليظل عدي بجوارها حتى استسلمت للنوم ثم عاد إلى الطابق السفلي، ليتأمل الجميع وقد اتخذ الأسى موطنًا على ملاحهم، زفر بضيق محتقرًا خالد على كل أفعاله وقد فاقت حقارته كل توقعاته، يتمنى فقط ألا يكون حقيرًا لدرجة تمنعه من السعي للحصول على حق طفلته ممن فعل بها هذا.. كان ذلك السؤال يقلق محمد أيضًا، هل فعلا سوف يهتم خالد بالحصول على حق ابنته من مغتصبيها أم لن يبالي؟!

***

صاحت شهد ببهجة:-

-لقد أحضرت الفشار، سوف تكون سهرة رائعة.

ابتسمت شيماء بهدوء، ولم تستطيع منع نفسها من أن ترمقها بنظرات تقطر إعجابًا بتلك الشخصية التي تمتلكها فكلما تعرفت عليها وتقربت منها ازدادت إعجابًا ببهجتها وطيبتها..كانت عكسها تمامًا شخصية بدون أي تعقيدات..

شردت قليلا في تسلسل الأحداث الذي قادها بطريقة ما إلى هنا، ولن تنسى مساندة شهد لها...

انتبهت إلى شهد التي تقول شيئًا فابتسمت وتابعت الفيلم، سامحة لذاتها المُعذبة أن تستمتع لتلك الليلة بدون أي تفكير أو ذكريات سوداء تنهشها كذئب يمزق فريسته أربًا، فقط سوف تستمتع بدون أي حساب.

تنفست بعمق وبدأت تندمج مع الأحداث فتنطلق ضحكاتها بين الحين والآخر بدون أن تلاحظ شهد التي تتأمل ملامح وجهها المبتهجة المسترخية بنظرات حانية فلعلها المرة الأولى التي تراها على تلك الحالة من الاسترخاء، أصابتها عدوى البهجة وعادت إلى متابعة الفيلم باستمتاع بالغ...

-تابعي الفيلم، سوف أجيب على الهاتف وأعود.

قالت شهد بينما تذهب إلى غرفتها تجيب على الهاتف تتابعها نظرات شيماء القلقة خاصة عندما حانت منها التفاتة إلى ساعة الحائط فالساعة قد تخطت منتصف الليل.

لم تمر دقيقة حتى هرولت شهد من الغرفة بكامل ثيابها صائحة بصوت مختنق والعبرات في عينيها:-

-شقيقتي في المشفى.

انتفضت شيماء وتساءلت بقلق بينما ترمقها بنظرات مشفقة:-

-ماذا حدث؟

كانت شهد تبحث عن محفظتها بعشوائية وبأيدي مرتجفة، ردت بصوت مختنق:-

-لا أعرف، لا أعرف شيئًا.

قالت شيماء بحزم بينما تهرع إلى غرفتها لتبديل ثيابها:-

-سوف أرتدي ثيابي، وأذهب معكِ.

لم تكن شهد تمتلك أي قوى لمجادلتها فجلست تنتظرها ودموعها تنهمر بغزارة على وجنتيها في قلق، فبرغم تلك الخلافات التي تفصل بينها وبين شقيقتها إلا إنها تظل شقيقتها الصغرى وهي تحبها مهما كانت الاختلافات بينهما.

بسبب تأخر الوقت ساعدهما حارس العمارة على إيجاد سيارة أجرة، وخلال دقائق قليلة كانتا في المشفى. وقفت شهد في عجز أمام غرفة شقيقتها بينما شيماء تقف بجوارها ترمقها بحزن، وما أن أقبل الطبيب المسؤول عن الحالة حتى أسرعت شهد إليه تتساءل بنبرة باكية:-

-ماذا حدث لها؟

تساءل الطبيب:-

-هل تقربين للمريضة؟

-نعم، أنا شقيقتها الكبرى.

تنهد الطبيب ثم قال بنبرات بطيئة وبرغم محاولاته أن يكون لطيفًا في نقل الخبر لها إلا إن تأثير كلماته عليها لم يتغير:-

-لقد تعرضت شقيقتكِ للاغتصاب، ومازال التحقيق في القضية جاريًا، ولكن...

لم تنصت إلى أي كلمة تلي كلمة "اغتصاب"، تراجعت إلى الخلف في صدمة وجحظت عينيها بينما توقفت العبرات عن الانهمار كأنما تشاركها صدمتها، نظرت إليه بذهول وكأنها تتساءل عن صحة كلامه.

سقطت شهد أرضًا وقد فقدت الإحساس بقدميها والهواء ينسحب من رئتيها، شقيقتها الصغرى تلك الشابة التي ما زالت في بداية حياتها، تسللت شهقة باكية من بين شفتيها، وارتجف جسدها بعنف بينما ترتفع شهقاتها لتشعر بذراعي شيماء تحتضنها بينما عبراتها تطفر من عينيها في صمت، وقد استعادت ذكرى حادثتها..

كلمة واحدة كانت كافية لتوقد تلك النيران المتقدة في صدرها، أثابت إلى رشدها عندما اشتد نحيب شهد لتشدد من احتضانها في صمت بدون أن تملك أي كلمة لمواساتها في تلك الفاجعة التي أصابتها.

بعد فترة من الوقت تركتها أمام غرفة شقيقتها وقد أصبحت أكثر تماسكًا، وذهبت لإحضار مشروب دافئ لها لعله يهدئها قليلا.

جلست شهد في صمت وقد انحنى كتفيها في إرهاق وعينيها معلقتين بباب غرفة شقيقتها، انتفضت عندما شعرت بذلك الكف فوق كتفها لتنهمر دموعها عندما رأت هويته، وتلقي بنفسها بين ذراعيه مجهشة بالبكاء، ربت فوق رأسها بحنان، ابتعدت عنه قائلة بنبرات باكية:-

-أرأيت ما حدث إلى شقيقتي يا عمي؟

أجاب محمد بمواساة:-

-اهدئي يا شهد، فهي بحاجة إلينا في كامل قوانا، حتى تستمد مننا تلك القوة.

أومأت في صمت وكفكفت عبراتها بكفها المرتجف، ابتسم بلطف ثم قال:-

-لا داعي لبقائكِ هنا فقد أعطاها الطبيب مهدئًا، هيا لنعود إلى المنزل.

ردت بنبرة متوسلة:-

-أريد البقاء قليلا، سوف أعود بعد قليل.

اعترض محمد بقلق:-

-لا يمكن أن أسمح لكِ بالبقاء هنا وحيدة، وأبناء عمومتكِ قد عادوا مع البقية إلى المنزل.

-لا تقلق.. صديقتي معي، وأرسل لي السائق سوف أعود معه.

تردد قليلا ثم تساءل:-

-أين صديقتكِ؟

التفتت إلى شيماء التي تبتاع مشروبًا ساخنًا قائلة:-

-الفتاة هناك هي صديقتي.

رفع رأسه ليرى هوية صديقتها ثم قال:-

-حسنًا سوف أذهب للتحدث معها للاطمئنان.

أومأت شهد فهي تعرف مدى حذر عمها، ولكنها تفضله عن أبيها لشدة اهتمامه بها ودعمه لها.

اتجه بخطوات بطيئة إلى حيث تقف شيماء، كانت توليه ظهرها فلم يستطيع رؤية ملامحها، وبينما هو على بعد إنشات قليلة منها، تقدم خطوة واحدة تجاهها ليلعن من بين شفتيه عندما اصطدمت به ساكبة المشروب على قميصه الثمين.

شهقت الممرضة في فزع وحاولت الاعتذار ليقول بهدوء:-

-لحسن الحظ لم يكن شديد السخونة، ولذلك فلا داعي إلى القلق.

التفت إلى حيث صديقة شهد ليراها عائدة إلى شهد بدون أن تسنح له الفرصة لرؤيتها ومخاطبتها للاطمئنان على نوعية الأناس التي تعقد شهد معهم الصداقات خاصة إذا كانت تلك الفتاة سوف ترافقها لوقت طويل في المشفى.
زفر بضيق مغادرًا المشفى، وأخرج هاتفه ليرسل سائق العائلة إلى هنا من أجل إعادة شهد إلى المنزل.

-هل أنتِ بخير الآن؟

قالت شيماء بقلق بينما تراقب شهد ترتشف ببطء المشروب، أومأت شهد في هدوء ثم ربتت فوق كفها في شكر صامت لتبتسم شيماء بحنان، وبداخلها

تتمنى أن تكون تلك الشابة أكثر حظًا منها وتحصل على حقها ممن ارتكب تلك الجريمة ولا تكن مثلها مُعلقة بين الحياة والموت.

زفرت بعمق في شرود والعبرات عالقة بين جفنيها ولم يكن حال شهد بأفضل منها، لم تلحظا نظرات الممرضات والعاملات المشفقة على الفتاتين الشابتين وقد ترك الحزن بصمة ثابتة على ملامحهما.

***

خرجت من المنزل بخطوات شبه راكضة، وما أن أصبحت بعيدة سمحت لنفسها أن تتوقف حتى تلتقط أنفاسها بصعوبة، رفعت رأسها إلى الشمس التي على وشك الشروق، وكفكفت عبراتها في حنق ثم تنفست بعمق وبدأت ذكريات الطفولة تعود إليها..

عندما كانت في العاشرة من عمرها وقد استيقظت في منتصف الليل تشعر بالظمأ، ما زالت تتذكر تذمرها عندما وجدت وعاء الماء بجوارها فارغًا لتترك فراشها الدافئ وتهبط الدرج بخطوات طفولية ناعسة إلى المطبخ في الطابق الأرضي، تسلل إلى أذنها أصوات هامسة واستطاعت رؤية ضوء خافت لتتسلل بفضول طفولي وما زالت تندم على ذلك حتى الآن، فما أن أطلت برأسها من خلف باب المطبخ حتى وجدت والدها في وضع مثير للاشمئزاز مع الخادمة، وربما كانت صغيرة لتدرك معنى ما رأته، ولكنها أدركت بقيّمها البريئة أن ما رأته لم يكن صحيحًا أبدًا..

التفتت لتغادر في خوف وقد غادرها ذلك الشعور بالظمأ، تسللت عائدة إلى غرفتها وما أن صعدت الدرج حتى شهقت في فزع عندما اصطدمت بذلك الجسد الصغير ليطمئن قلبها عندما وجدته ابن عمها "عدي" الذي يصغرها بعام واحد لم تستطيع أن تنطق بحرف واحد وركضت سريعًا إلى غرفتها، ولم تعرف قط حتى الآن إذا كان عدي قد تابع طريقه وشهد على قذارة والدها أم لا..

انتفضت عندما رن هاتفها لينتزعها من تلك الرحلة المفزعة إلى ذكريات الماضي، وجدته "مراد" ظلت تتأمل رقمه على شاشة هاتفها ثم تلقت المكالمة في تلقائية وقبل أن ينطق بحرف قالت بنبرة مرهقة:-

-هل يمكنك أن تأتي لإعادتي إلى المنزل؟

ربما شعر بتلك الحالة الحزينة التي تجتاحها فلم يعلق إلا أن طلب منها باختصار أن ترسل له العنوان، وبعد دقائق كانت تجلس في سيارته تشعر بنظراته تخترقها بين الحين والآخر، ولكنها لم تكن في حالة جيدة تؤهلها للتحدث، شعرت بالسخرية من ذاتها فإذا تحدثت هل سوف تخبره عن حقيقة ذلك الرجل الذي لم يراعي كونه والدًا لفتاتين واستمر في طغيانه وفساده حتى دفعت مدللته وشقيقتها الصغرى الثمن غاليًا من حياتها؟!

لن تسامحه أبدًا على ما جنته يداه، دائمًا ما وجدت الراحة في عملها بعيدًا عن منزل عائلتها التي تشعر بثقل أنفاسها تحت سقفه.

-سوف تكون بخير لا تقلقي.

التفتت إليه بنظرة تائهة حائرة لتجد الحنان في نظراته بينما يستطرد:-

-أعني شقيقتكِ، سوف تكون على ما يرام.

أومأت في هدوء، وقد أدركت أن شيماء قد أخبرته، أسندت رأسها على زجاج النافذة بجوارها، وسخرت من نفسها وقد ظنت أن تلك الليلة سوف تقضيها في هدوء في منزلها مع شيماء حتى فاجأها ذلك الخبر كصفعة مؤلمة.

***

بعد دقائق انتبهت إلى توقف السيارة أمام منزلها فتمتمت بشكرٍ واهٍ وأسرعت إلى شقتها بدون أن تستطيع أن تلقي كلمة تُطمئن بها شيماء التي استقبلتها بنظرات قلقة بينما تتأمل محياها الشاحب، وفقط أسرعت إلى غرفتها لتلقي بنفسها في أحضان فراشها تطلب السلوى والمواساة وتسكب عبراتها في صمت.

***

وقفت ناهد منذ الصباح الباكر أمام غرفة طفلتها والتي ما زالت تحت تأثير المهدئ، كان عدي يقف بجوارها يرمق في إشفاق واضح شحوب وجهها وعينيها الذابلة وكأن النوم لم يعرف طريقه إليها فعندما نزل من غرفته بعد ساعات قليلة من المواجهة مع خالد وجدها جالسة في مكانها فأثارت شفقته فلم يملك إلا أن يصطحبها إلى المشفى حتى يهدأ شجونها عند رؤية ابنتها.

لامست ناهد الزجاج البارد بأناملها وكأنها تتمنى اختفائه لتلامس وجه صغيرتها، لم تكن يومًا أمًا حانية ولكن رؤية ابنتها على تلك الحالة قد مزقتها أربًا وقسمت ظهرها.

لاحظت أعينها المنتبهة لأقل حركة منها ارتجاف جفنيها ببطء حتى فتحت عينيها التي عكست نظرة ضائعة.

قالت ناهد سريعاً بدون أن تبعد نظرها عنها:-

-لقد استيقظت، استدعي الطبيب سريعًا.

أسرع عدي ملبيًا طلبها ولم تمر ثواني حتى امتلأت الغرفة بالطبيب والممرضات، ولكن بخلاف المرة السابقة كانت سارة هادئة للغاية فلم تأتي بأي رد فعل عندما فحصوها وكأنها لا تشعر بهم...فقط تحملق في سقف الغرفة باستسلام تاركة لهم تولي زمام الأمور.

كانت أعين الطبيب الخبيرة تسجل كل رد فعل لها، كانت جسديًا بخير وكدمات وجهها سوف تختفي في نهاية الأمر ولكن ذلك الجرح الغائر في روحها لن يختفي بسهولة.

خرج من الغرفة لتستقبله ناهد بلهفتها الواضحة وعدي يتفحص ملامح وجهه بحثًا عن إشارة تبث الطمأنينة في قلبهما.

قال الطبيب بنبرة جدية:-

-كما سبق وأن أخبرتكم هي بحاجة إلى طبيب نفسي، جسديًا سوف تكون بخير والكدمات سوف تختفي رويدًا ولكن... صمت برهة ثم استطرد بأسف:-

-ولكني لا أضمن أن تختفي جراحها النفسية بنفس ذات السهولة.

شهقت ناهد وانهمرت دموعها ليجلي عدي حنجرته ويقول بنبرة مختنقة:-

-هل يمكن أن ننقلها إلى المنزل وتتابع علاجها هناك؟

-لا بأس، ولكن يجب العناية بها جيدًا، وسوف أرشح لكم طبيبة نفسية لمساعدتها.

أومأ عدي بينما ناهد فقد ظلت فاقدة للنطق وكأن لسانها عاجزٌ عن التعبير، أردف الطبيب قبل أن يتركهما:-

-لقد أخبرت الضابط المسؤول إنها ليست في حالة تسمح للاستجواب، ولذلك فعندما تتحسن حالتها سوف يتابع القسم حالتها معكم.

تساءل عدي بينما يرمق ناهد التي استندت على الحائط وكأن قدميها تعجز عن حملها:-

-هل يمكن أن تدخل والدتها؟

كاد أن يرفض خوفًا على حالتها النفسية، ولكن نظرة إلى الأم المكلومة دفعته إلى أن يوافق. دلفت ناهد إلى الغرفة بينما عدي في الخارج يراقب شجونها ودموعها وهي تمسد فوق شعر سارة التي عزلت ذاتها عن العالم بأسره.

انتبه إلى أدهم الذي جاء سريعًا ما أن استقبل رسالته، تساءل أدهم:-

-كيف حالها الآن؟

رد بنبرة فاترة:-

-جسديًا جيدة.

أردف ببرود:-

-أين خالد؟

رمقه أدهم بضيق متعجبًا من نبرته وقال:-

-عمك في المنزل.

ابتسم عدي بسخرية ولم يرد، لم تمر دقائق حتى بدأ باقي أفراد العائلة يأتون، لاحظ عدي عدم وجود خالد بينهم ليزداد احتقاره لهذا الرجل، أقترب عدي من والدته هامسًا:-

-يجب أن أذهب الآن، إذا حدث شيء هاتفيني.

أومأت الأم وقد ترك الحزن بصمة على ملامحها فما حدث لسارة ترك أثرًا بالغ الخطورة في أنفسهم.

اتجه عدي إلى سيارته ولكن قبل أن يتخذ طريق الجامعة أدرك أن أميرة لم تأتي مع والدته، ظهر الخوف في عينيه عندما تذكر إن خالد أيضًا في المنزل.

قاد سريعًا إلى المنزل وأكثر الأفكار سوداوية تتجول في رأسه عابثة بكل تفكير عقلاني قد يتحلى به، كان منذ صغره يخاف على أميرة منه يراقبها في حرص بدون أن تلاحظ ولكن ما ضاعف من حرصه الآونة الأخيرة هو عندما سمع خالد يتحدث مع إحدى الفتيات بقذارة في هاتفه وقد أدرك إنه لم يتغير أبدًا فأصبح يرافق أميرة دائمًا في المنزل ليلاحظ لأول مرة النظرات التي يختلسها خالد إليها فدفعها إلى تغيير مقعدها أثناء الوجبات حتى لا تختلط به بأي طريقة متعللا بأنه يريدها بجواره حتى يتحدث معها وبرغم إنها لم تقتنع كثيرًا إلا إنها نفذت كلامه في عدم مبالاة بدون أن تزعج نفسها بالتساؤل مدركه إنه لن يعطيها إجابة صالحة إلا في الوقت الذي يريده.

ما أن وصل أمام المنزل حتى أوقف السيارة سريعًا في تهور محدثة صوتًا صاخبًا، وركض إلى داخل القصر مثيرًا بذلك دهشة الحرس في الخارج.

كان الطابق السفلي فارغًا فصعد الدرج بخطوات سريعة مناديًا اسم أميرة.

ارتفع صوت يملؤه الضيق:-

-ما تلك الضوضاء في الصباح الباكر؟!

نظر عدي إلى خالد الذي ما زالت آثار الثمالة واضحة عليه، تسارعت أنفاسه في غضب وضم قبضته في حركة تلقائية صائحًا:-

-أين أميرة؟

ابتسم خالد رغم الألم الذي يكاد يفتك به بعد ليلته الماجنة وأجاب بنبرة مثيرة للاستفزاز:-

-وما شأني بشقيقتك يا عدي؟!

تبادل كلاهما النظرات، فقد كان كره عدي لعمه واضحًا للغاية ولكنه كان يتجاهل أفعاله فلم يكن من شأنه ولكن عندما صارت أخته صوب نظره أصبح الأمر يخصه، وكان خالد يدرك جيدًا إنه مكشوفٌ للغاية أمامه لكن ثقته في أنه ليس هناك ما يثبت حقيقة أخلاقه أمام أهله والذي كان أبشع جرائمه أمامهم هو شرب الميسر دفعته إلى التصرف بعدم مبالاة فقد كان يجيد التنظيف خلفه لذلك فإن عدي لا يثير أي قلق به.

كرر عدي سؤاله بغضب بالغ:-

-أين أميرة؟

الفصل الحادي عشر

كرر عدي سؤاله بغضب بالغ:-

-أين أميرة؟

ارتفع صوت تملأه الحيرة من خلفه:-

-ماذا حدث يا عدي، لماذا تصيح هكذا؟!

التفت عدي إلى شقيقته التي خرجت من المطبخ وخلفها الخدم وقد أفزعهم صوت عدي، بتلقائية بالغة هبط الدرج سريعًا وجذبها بين ذراعيه مطمئنًا نفسه إنها بخير وأن مخاوفه لا أساس لها من الصحة بل هي محض خيال.

شعرت بالحيرة من تصرفاته ولكنها ضمته وهي تشعر بجسده المرتجف قلقًا، بعد فترة لا بأس بها تمتمت بقلق:-

-هل أنت بخير يا عدي؟

صمت برهة ثم ابتعد عنها ممسدًا فوق شعرها برفق وأجاب بنبرة حاول أن يجعلها هادئة لتطمئنها:-

-أنا بخير يا صغيرة، لا داعي للقلق.

أردف متسائلا وابتسامة مزيفة على ثغره:-

-ألديكِ محاضرات اليوم؟

-أجل، ولكنها في الواحدة ظهرًا.

حانت منها التفاتة إلى الساعة واستطردت بابتسامة:-

-ما زال الوقت مبكرًا.

أومأ في هدوء وقال بينما يرمق خالد بنظرات محذرة:-

-حسنًا يا صغيرة، سوف أذهب الآن إلى كليتي، وسوف أعود سريعًا وأوصلك إلى الكلية.

اعترضت بلطف:-

-لماذا تعطل نفسك، سوف أطلب سيارة أجرة؟

ابتسم وقبل جبهتها قائلا:-

-أنا في خدمتكِ يا صغيرة.

غادر عدي بينما أميرة فقد تعجبت من تصرفاته التي تزداد غرابة يومًا بعد يوم، خاصة ارتباطه بها.. عدي أخ حنون للغاية ولكنه لا يظهر مشاعره بذلك الوضوح بل يجعلها مستترة وراء مرحه الدائم.

تنهدت بأسى ربما ما حدث لساره دفعه إلى الخوف عليها، لا تصدق حقًا إن ابنة عمها المفعمة بالشباب والحياة قد اغُتصبت بطريقة وحشية، كم تتمنى أن تُحذف ليلة أمس من سجلات ذاكرتها، فتبادل الاتهامات بين عمها وزوجته

كان مؤلمًا للغاية خاصة انهيار زوجة عمها والذي قابله العم خالد ببرود فاتر.

كانت شاردة في أفكارها بينما تتجه عائدة إلى المطبخ تعد كوب من عصيرها المفضل خاصة إنها لا تحب أن تزعج الخدم بطلباتها، لم تشعر بخالد الذي ظل واقفًا بعد ذهاب عدي يتأملها بنظرات متفحصة دقيقة، ويلعن نفسه إنه لم يستيقظ أبكر من هذا ليستغل الوقت معها.

التفت عائدًا إلى غرفته بعدما اختفت من أمام نظره، ورغمًا عنه فكر في سارة وأخذ يسب ناهد التي لم تستطيع الاعتناء بابنته جيدًا فهي السبب فيما حدث، كان يناسبه أن يُلقي اللوم عليها دون أن يعير تصرفاته أي انتباه أو يخص نفسه بجزء من اللوم.

عاد إلى نومه مخبرًا نفسه إنه لا جدوى من ذهابه إلى المشفى فالجميع هناك كما أنها سوف تعود إلى المنزل عاجلا أم آجلا.

كان خالد باردًا في مشاعره، حيوانًا منغمسًا في شهواته وملذاته، حبه لأي شخص من حوله كعطر تختفي رائحته بعد دقائق من انتشاره.

***

رمقت شيماء في إشفاق باب غرفة شهد المغلق، رغبت في أن تقتحم صومعتها وتطمئن عليها ولكن جزء منها كان يريدها أن تحصل على الراحة والهدوء التي هي بحاجة إليها.

اقتربت من باب الغرفة في تردد، وطرقت الباب مرة ليقابلها الصمت فحاولت مرة أخرى هامسة باسمها بدون جدوى فقررت أن تتركها ترتاح، وأسرعت إلى غرفتها لارتداء ملابسها والاستعداد للذهاب إلى العمل بدون أن تدرك بأن خلف ذلك الباب كانت شهد مستيقظة تتأمل سقف حجرتها بدون أن يرف لها جفن وكأنها في عالم آخر بعيدًا تمامًا عن أحداث تلك الليلة المؤلمة.

طالما كانت تحسد "سارة" على محبة والدها لها، فقد كانت المتمردة في أسرتها الصغيرة بينما سارة فالحبيبة الصغيرة المطيعة لوالدها بل إنها نسخة مماثلة له ولذلك فقد كانت الأقرب إلى قلبه، ولكن لا.. فليس خالد الحداد من يشعر بالحزن من أجل أحدٍ وإن كان ابنته الأكثر قربًا إلى قلبه.

أغلقت عينيها واستسلمت للنعاس الذي يداعب جفنيها ودمعة وحيدة ضلت طريقها وتسللت فوق وجنتها في صمت...

***

انتفض خالد فزعًا عندما اقتحم سيف غرفته فجأة ثم سرعان ما استرخت ملامحه وقال بنبرة باردة:-

-كيف أخدمك يا شقيقي العزيز؟

اقترب منه سيف بخطوات سريعة وجذبه بقوة قائلا بتهديد واضح:-

-استمع إلي جيدًا ما حدث ليلة أمس لن يتكرر أبدًا وإلا أقسم أن أقتلك بنفسي.

لا ينكر إن نبرة سيف الشرسة قد أثارت خوفه، ولكنه قال بنبرة ساخرة:-

-وهل أصبحت شيخًا فجأة؟!

زفر سيف بغضب، واتجه إلى الباب صافعًا إياه خوفًا من أن يسمع أحدٌ حديثهما ثم التفت إليه ونظراته تشتعل بنيران الغضب وقال بنبرة خافتة شرسة:-

-إذا عرف أي شخص بما فعلته سوف تكون نهايتنا معًا، ولا داعي أن اذكر إنك دخلت القسم سابقًا بالفعل بسبب قضية ما.

ابتسم خالد ببرود ورد بعدم مبالاة:-

-تلك القضية كانت أمرًا آخر، لقد كنت بريئًا حقًا، ولكنك أردت التأكد من ألا يعترض أي شيء سبيل براءتي فطلبت تزييف تقرير الطب الشرعي.

حرك رأسه في استهجان وقال بتهكم:-

-أجل بالطبع، فأنت بريء براءة الذئب من دم يوسف.

ضحك خالد ثم قال بنبرة هادئة ولكن تحمل العديد من المعاني:-

-إننا معًا في هذا يا أخي العزيز، وذلك منذ أعوام طويلة.

شحب وجه سيف حتى كاد أن يحاكي شحوب الموتى، وازدرد لعابه في توتر عندما أتى خالد على ذكر الماضي فدائمًا ما تكون المرة الأولى مخيفة أكثر

من المرات اللاحقة وتلك الحادثة مازال ذكرها يخيفه، وكان خالد يدرك ذلك جيدًا فيتلاعب به كما يشاء.

لم يستطيع أن ينطق ببنت شفة وترك الغرفة صافعًا الباب خلفه بينما خالد يتتبعه بنظرات ساخرة وابتسامة متهكمة على ثغره ثم تمدد مرة أخرى فوق فراشه وابتسامة واثقة فوق شفتيه مطمئنًا أن أسراره لن تظهر أبًدا للعلن طالما يستطيع دفنها جيدًا بمساعدة سيف.

تذكر بدون أي شعور بالذنب ليلة أمس عندما اتجه إلى منزل تلك الفتاة.

***

توتر جسده وشحب وجهه للغاية، وقد استعاد وعيه مرة أخرى وبدأ يعي ما جنته يداه، أزاح خصلات شعرها التي التصقت بوجهها بفعل مقاومتها الشرسة، ضرب برفق على وجنتيها في محاولة لأن يعيدها إلى وعيها ولكن كان جسدها باردًا للغاية.

ابتعد عن الفراش بخطوات متعثرة، ومسح بكفه فوق وجهه في توتر ثم أخرج هاتفه، ليسقط من بين أنامله المرتجفة.

تنفس بعمق وانحنى على ركبتيه يلتقطه، وبدأ يطلب هذا الرقم الذي يلجأ إليه في مثل تلك الحالات.

-اللعنة! أين أنت يا خالد؟

عاجله قائلا بنبرة مذعورة:-

-مصيبة يا سيف، أنا لا أعرف ما الواجب فعله.

-ماذا حدث؟

أخبره بما فعله بنبرة مرتجفة، وختم حديثه قائلا بذعر:-

-والآن الفتاة لا تستيقظ.

لم يراه وهو يكز على أسنانه بغيظ، ويزفر بضيق ثم قال بنبرة حازمة:-

-ضع أصبعك بالقرب من أنفها وتأكد إذا كانت تتنفس.

اقترب منها في وجل، وحرك يده أمام أنفها ليتراجع عدة خطوات إلى الخلف يتصبب عرقًا، ورفع الهاتف مرة أخرى إلى أذنه وقال بنبرة فاقدة للحياة:-

-إنها لا تتنفس..

***

ابتسم في سخرية عندما تذكر مدى فزعه حينها ولكن كالمعتاد فقد جاء إليه سيف خلسة مع أحد رجاله القدامى الموثوق بهم في تنظيف أمثال تلك الفوضى بدون أي دليل، وبالفعل تم تنظيف كل الفوضى بدون ترك أي أثر يدل عليه، تنهد في راحة واستعد للعودة إلى النوم بدون أن يزعج ضميره أي شيء.

***

ابتسمت بتوتر ما أن دلفت إلى المكتب، وقالت في ارتباك:-

-صباح الخير

ظهرت الدهشة على وجهها ورمقت ساعتها ثم قالت في تعجب:-

-أتيتِ مبكرًا.

ردت شيماء في توتر:-

-هل أستاذ أدهم جاء؟

قالت بينما تتابع عملها:-

-لقد اتصل قائلا إنه لن يستطيع المجيء اليوم.

أومأت شيماء ثم تساءلت في حماس طفيف:-

-إذا ما الذي يجب أن أفعله الآن؟

صمتت قليلا تتأملها ثم نهضت وبدأت في استخراج بضعة ملفات من الرف ثم أعطتها إياهم وقالت:-

-افهمي الملفات جيدًا حتى تتعرفي على العمل، وإذا عجزتِ عن فهم أي شيء أخبريني.

أومأت شيماء في حماس وجلست خلف المكتب الصغير والذي لم تكن لاحظته من قبل عند المقابلة لشخصية، وقد خمنت أنه قد تم وضعه لها ثم بدأت في قراءة الملفات وبالطبع قد احتاجت الكثير من المساعدة بسبب بعض المصطلحات الأجنبية التي لم تفهمها والخاصة بمجال الهندسة، ولكن عمومًا

لقد كان الأمر مفاجأ إنها استطاعت فهم محتوى الملفات برغم لغتها، وكأنها لم تكن المرة الأولى التي تقرأ بها نصوص أجنبية، ربما يعود هذا إلى إنها كانت مجتهدة في دراستها أثناء المرحلة الثانوية.

مر اليوم برتابة شديدة، وقد كانت شاكرة لغياب مديرها والذي لم يحصل على أي ذرة من إعجابها في أول لقاء بل كاد التوتر يقتلها من فكرة العمل معه اليوم، وبرغم ارتياحها لغيابه اليوم لكن من المؤكد إنه سوف يأتي في الغد..ترجو أن يعجب بعملها وألا يطردها.

***

رن هاتفها مزعجًا نومها المضطرب، التقطت الهاتف وما أن رأت هوية المتصل حتى انتفضت ترمق الشاشة في تعجب، أجابت وما زالت تشعر بالدهشة عندما تسلل لها صوته القلق:-

-هل أنتِ بخير الآن؟

كان سؤال شديد الصعوبة في تلك الفترة، ولكنها أجابت في نبرة حاولت أن تجعلها هادئة ولكنها خرجت مختنقة تعبر عن مشاعرها:-

-بخير، لا تقلق.

صمت قليلا ثم قال بصراحته المعهودة:-

-أعرف إنكِ كاذبة، ولكن...

صمت برهة ثم استطرد:-

-أريدكِ أن تتحلي بالقوة؛ لأن هذا ما تحتاجه شقيقتكِ منكِ الآن، لا يجب أن تراكِ منهارة هكذا بل يجب أن تمديها بالقوة حتى لا يتسلل اليأس إلى نفسها، ولكي تشعر أيضًا إنها ليست وحيدة بل هناك أشخاص يهتمون بها ويحبونها من حولها.

انهمرت دموعها في بطء فوق وجنتيها وضغطت على شفتيها تمنع شهقاتها من الارتفاع ثم تنفست بعمق وقالت:-

-شكرًا لاتصالك يا مراد، وشكرًا أيضًا لوجودك معي البارحة.

-لا داعي للشكر.

أردف بنبرة صادقة:-

-سوف تجديني دائمًا عندما تحتاجين إلّي.

لم تجد كلمات تعبر عن شكرها وعن مدى حاجتها لسماع تلك الكلمات وكم يعني لها دعمه فاكتفت بالصمت بينما دموعها تنهمر بغزارة ليتنهد مراد وقد أدرك بكائها ثم قال:-

-تحلي بالقوة يا شهد، أنا معكِ.

صمت قليلا ثم قال:-

-يجب أن أغلق الآن، سوف أهاتفكِ مرة أخرى.

-حسنًا.

-لا تبكي واعتني بنفسكِ، إلى اللقاء.

همست بنبرة باكية:-

-إلى اللقاء.

ما أن أنهت المكالمة حتى أجهشت بالبكاء، وكأن كل الأحزان قد تكاتفت عليها وصرعتها؛ اغتصاب شقيقتها ووالدها المحب الذي طالما ما كان يبهرها ببعده عن المثالية، وأخيرًا حبها لشخص واقع في حب صديقتها الجديدة شيماء... فكم مزق قلبها اتصاله ولطفه إشفاقًا عليها فقد تحدثت شيماء كثيرًا عن لطفه وحنانه، وها هي تتأكد من ذلك في كل مرة.

الفصل الثانى عشر

-كيف حال شهد الآن؟

تساءل مراد بينما يقود السيارة متجهًا إلى مقر عمل شيماء.

قالت شيماء في حزن:-

-إنها تحاول الصمود، تذهب إلى عملها ثم تقضي باقي اليوم مع شقيقتها.

بدا التأثر على ملامحه ثم تساءل:-

-وكيف حال شقيقتها الآن؟

شردت قليلا ثم أجابت:-

-لقد مر شهرين على تلك الليلة، إنها لا تبدي أي رد فعل، أخبرتني شهد إنها أيضًا ترفض التحدث مع طبيبتها النفسية.

قال مراد بعفوية:-

-هل وجدوا من فعلوا هذا؟

صمتت شيماء برهة ثم قالت بحيرة طفيفة:-

-لا أعرف حقًا فشهد لا ترغب في التحدث عن الأمر.

ظهرت الدهشة على ملامحه، ولكنه صمت شاعرًا بالشفقة تجاه شهد، فلقد جاء اليوم رغبة في رؤيتها للاطمئنان عليها متحججًا بتوصيل شيماء ولكن لم يكن الحظ في صالحه وقد غادرت قبل مجيئه.

أوقف السيارة أمام الشركة لتترجل سريعًا صائحة في امتنان:-

-شكرًا على توصيلي.

جذبت الانتباه بشكل كبير وهي تسير بسرعة إلى داخل الشركة، فاليوم ولأول مرة منذ بداية عملها قبل شهرين تتأخر، ابتهلت بداخلها ألا يكون اليوم موعد عودة مديرها من أجازته الطويلة جدًا، ولكنها لم تكن محظوظة إلى هذه الدرجة فقد استقبلتها المساعدة قائلة في إشفاق:-

-البشمهندس يريدك في مكتبه.

ازدردت لعابها بصعوبة عندما وصل إليها صوته الغاضب يأذن لها بالدخول، دلفت إلى داخل المكتب بأرجلٍ مرتجفةٍ.

كان يجلس خلف مكتبه وما أن رآها حتى قال ببرود يناقض الغضب في نظراته:-

-أخيرًا تشرفنا بمجيئكِ، هل بإمكاني أن أتطفل وأعرف ما الذي تسبب في تأخيركِ؟!

ردت بتلعثم:-

-يا فندم، أنا...

قاطعها تاركًا لغضبه العنان، وقد أحنقه إهمالها ومن المؤكد إنها قد تصرفت بتلك الطريقة خلال غيابه الفترة السابقة:-

- أنا هنا البشمهندس أدهم، وأتمنى ألا يصيب عقلكِ أي خلل وأن تظني إنكِ هنا بسبب براعتكِ البالغة فلولا رحمتي بأمثالكِ لم تكوني لتدخلي من باب شركتي، هل تفهمين؟

كانت كلماته مهينة مؤلمة، لتشعر بالذل وهي تومئ محاولة أن تسيطر على لسانها الذي يحثها على الصراخ به في غضب وحنق مبررة إنها تأخرت وتستحق التوبيخ رغم أن تأخيرها لم يتخطى العشر دقائق.

انتفضت عندما اصطدمت يده بالمكتب قائلا:-

-لا أتعامل مع بكماء هنا، أريد إجابة.

أجابت بخفوت تحاول أن تمنع نفسها من أن تُذل بسقوط دموعها أمامه:-

-حسنًا يا بشمهندس.

كانت منكسة الرأس فلم ترى علامات الانتصار على وجهه، قال بإيجاز وبنبرة مهينة:-

-تفضلي إلى الخارج وتابعي عملك، واعرفي جيدًا إن الاستهتار والكسل في الأيام الماضية قد انتهيا فأنا لن أسمح بأي إهمال في العمل.

غادرت سريعًا وكأنها كانت تنتظر تلك الفرصة لتغادر المكتب وتمنح عبراتها المسكينة الحرية في الخروج من حصن عينيها تحت أنظار مساعدته المشفقة، والتي لم تفهم غرض رئيسها من منحها أجازة مؤقته مع تعهده لها بأن يرسل لها مرتبها كاملا كل شهر، وكأنه يرغب في معاقبة شيماء بأن تتحمل المسؤولية كاملة مؤقتًا، الأمر محير فإذا لم يكن في نيته تعيينها دائمًا فما سبب نشره لذلك الإعلان منذ البداية؟!

إن تصرفاته أصبحت تدفعها إلى الجنون حقًا، نهضت تحاول مواساة شيماء، والتي سرعان ما هدأت، وبسبب طبيعة شيماء المتحفظة رغم تقاربهما طيلة الفترة الماضية لم تستطيع أن تسألها حتى لا تطفل عليها، وبدأتا في متابعة العمل وقد حرصت سابقًا على أن تلقن شيماء العديد من المعلومات خوفًا عليها من نوبات غضب رئيسهما والتي من المؤكد إن اليوم هو بدايتها فقط.

***

بعد ذهاب المساعدة حيث بدأت أجازتها رسميًا بدأت شيماء تدخل البيانات على جهاز الحاسوب حتى ارتفع صوت أدهم من الهاتف بجوارها يستدعيها، فازدردت لعابها بصعوبة ومسدت تنورتها في توتر ثم اتجهت إلى غرفته، كان في مكانه المعتاد خلف مكتبه تساءل بجدية بدون أن ينظر إليها:-

-هل انتهيتي من الورق الذي أعطيته لكِ؟

ردت بتلعثم:-

-ليس بعد فأنا...

قاطعها صائحًا بغضب بينما يرمقها باحتقار:-

-الورق معكِ منذ الصباح، اللعنة كيف لم تنتهي منه حتى الآن؟!

تراجعت عدة خطوات من عنف كلماته وردت بحنق:-

-يا بشمهندس إنها المرة الأولى التي أتعامل بها مع جهاز كهذا لذلك...

قاطعها مرة أخرى قائلا بنبرة مُهينة:-

-هذا أكيد، فمن أين لأمثالكِ أن يروا مثله!

كادت تمزق شفتيها من الضغط عليها، وكأنها تعاقب نفسها على تحملها لتلك الإهانات، اغرورقت عيناها بالدموع ولكنها رفعت رأسها بعزة نفس قائلة:-

-ربما لم أتعامل مع مثل هذا الجهاز منذ أن تركت الجامعة لكن السبب في ذلك كان ظروفي الشخصية، وأنا لن أسمح لك أن تستغل تلك الظروف حتى تهينني كما تشاء.

قال بسخرية آلمتها:-

-لن تسمحين!

استطرد بينما ينهض من خلف مكتبه:-

-أنتِ في شركتي الآن، وسوف أتصرف كما أشاء، وأنتِ هنا دوركِ أن تنفذي ما أريد، هل يفهم عقلكِ السميك هذا؟

تأملته بكراهية شديدة تلعن ظروفها التي جعلت شخصًا مثل هذا يفلت بإهاناته، ولكن صبرًا تستقر بحياتها وسوف تلقي باستقالتها في وجهه.

كان ينتظر ردها بنظرات مستهزئة فردت بخفوت:-

-أجل يا بشمهندس.

أشار إلى الباب في احتقار وقال بحزم:-

-الورق يكون فوق مكتبي بعد ساعة وإلا...

لم تدعه يتابع فقط أومأت وغادرت المكتب سريعًا بينما هو فقد شعر بالنصر؛ لأنه بدأ في تحقيق انتقامه.

إنها فقط البداية فسوف يجعلها تدفع ثمن إهانتها لأسرته باضطرارهم الذهاب إلى النيابة بسبب تهمة حقيرة مزيفة مثلها.

آلمه ضميره قليلا عندما رأى الانكسار في عينيها إلا أنه سرعان ما نفض ذلك الشعور عنه وعاد إلى عمله غير مبالي بتلك الفتاة في الخارج التي تحاول أن تعمل على قدم وساق رغم الدموع فوق وجنتيها التي تقص إحساسها بالإذلال والإهانة.

***

منعت شهد دموعها بصعوبة بينما تقف بجوار والدتها في انتظار خروج الطبيبة من غرفة سارة في المشفى وقد تأجلت خطة نقلها إلى المنزل بسبب

حالتها، حتى بعد تلك الفترة لم تنطق ببنت شفة فقط تحدق في الحائط في صمت بدون أن تذرف أي دموع، وكأنها قد استنزفتها تمامًا.

نظرت إلى والدتها والتي قد أصبح وجهها هزيلا نتيجة لليالي التي قضيتها بدون أن يغمض لها جفن، ولا تلومها حقًا فلولا عملها لكانت فقدت عقلها من شدة الحزن، شقيقتها الصغيرة تلك الطفلة التي ما زالت الحياة أمامها طويلة مفعمة بالأمل والحياة قد تم قتلها حية، تتساءل دائمًا بينما تتأمل الشبح الباقي من سارة عن كم الألم الذي يختبئ خلف هذا الصمت.

نهضت سريعًا عندما خرجت الطبيبة، تساءلت في قلق:-

-كيف حالها؟

صمتت الطبيبة محاولة أن تتقن اختيار كلماتها، ولكن الحقيقة غير قابلة للتزيين فقالت بجدية:-

-ليست بخير، ما زالت لا تستجيب ولا تبدي أي رد فعل وهذا طبيعي جدًا في حالتها فعلاجها لن ينتهي بين يوم وليلة.

شهقت ناهد باكية حسرة على طفلتها لتردف الطبيبة قائلة:-

-إنها تحتاج إلى وجودكم بقربها، فيجب أن تستمد قوتها منكم.

أومأت شهد بينما تسند والدتها المنهارة، أجلستها بعد مغادرة الطبيبة، وحل صمت يتخلله فقط شهقات ناهد المنهارة بينما تتمتم في جنون:-

-لقد ضاعت ابنتي، لقد ضاعت، لقد كان خطأك يا خالد، لقد كان خطأك، ضاعت..سارة ضاعت.

انهمرت دموع شهد في صمت ولم تجد كلمات لتواسي أمها ثم قالت:-

-يجب أن نكون معها الآن، ولا نتركها أبدًا حتى تتحسن سريعًا.

أومأت ناهد ونهضت في تثاقل وكأن ما حدث قد أضاف العديد من السنوات إلى عمرها. دلفت إلى داخل الغرفة، عضت على شفتيها تحاول منع شهقاتها بينما ترى سارة تجلس فوق فراشها تحملق في الحائط أمامها بينما تضم ركبتيها إلى صدرها، لم تعرف ألاحظت وجودهما أم لا ولكن في كلتا الحالتين فهي لم تبدي أي رد فعل.

جلست على طرف الفراش بجوارها وضمت رأسها إلى صدرها بينما سارة فقد كانت مستسلمة تمامًا، بدأت ناهد في التربيت فوق رأسها ببطء بينما دموعها تنهمر بغزارة في صمت تلامس وجه ابنتها.

تمتمت في ألم بالغ وسط دموعها:-

-آه يا ابنتي المسكينة...

كانت شهد تراقب المشهد بينما دموعها لا تتوقف هي الأخرى، فتلك الغيمة قد حلقت فوق سمائهم ويبدو إنها سوف تستمر طويلا.

جحظت عيناها فجأة عندما لاحظت دموع سارة تنهمر في بطء، ظنت إنها خيالات ولكن سرعان ما ارتفعت شهقات سارة عالية كأنين غزالة تحتضر،

صرخات متألمة تمتزج بشهقاتها ارتفع على أثرها بكاء ناهد التي شددت من احتضانها تهدهدها في حركات رتيبة صامتة بينما دموعهما لا تنقطع.

من بين شهقاتها وصرخاتها صاحت بألم:-

-لماذا أنا؟!

رفعت رأسها إلى والدتها في انهيار وقالت:-

-لماذا كان يجب أن أكون أنا؟!

أخفضت رأسها بينما تتابع في هذيان:-

-هناك الملايين من الفتيات، لماذا أنا من وقعت بين أيديهم، لماذا أنا؟!

صرخت في انهيار بينما تصيح:-

-لماذا؟!

تمالكت شهد نفسها وأسرعت تستدعي الطبيب المسؤول، وسرعان ما جاء الطبيب والممرضة ينتزعوها من بين أحضان ناهد ويحقنوها بمهدئ لتستغرق في النوم سريعًا بينما ناهد فقد استندت على الحائط بينما تجهش بالبكاء وهي ترى ابنتها تخضع لتأثير المهدئ ثم تنام بلا حول ولا قوة.

أمسكتها شهد وأخرجتها بينما ناهد تتحرك في استسلام بدون أن تتوقف دموع كلتاهما، جلست ناهد أمام الغرفة في صمت وإعياء بينما أصاب شهد الغضب

الشديد عندما رأت سارة بتلك الحالة، ألم تكن تستحق المحاربة من أجلها فلماذا لم يفعلوا هذا؟!

لم يحاول والدها السيد خالد العظيم أن يستغل نفوذه المعتاد وأن يسعى وراء قتلة ابنته، ما زالت تتذكر كلماته مع أعمامها وقد سمعتهم بينما تذهب لاصطحاب والدتها إلى المشفى، قد قال بوضوح وطغيان:-

-سمعة الحداد سوف تتدمر إن تداولت مثل هذه الأخبار عنا، ولن أسمح بذلك.

صاح محمد في تهكم:-

-وأنت تهتم كثيرًا بسمعة تلك العائلة!

صمت خالد قليلا ثم قال:-

-ربما لا أهتم، ولكني لن أسمح لأيًا كان أن يجعلنا علكة في فمه، وأنت تدرك أن أي صخب من حولها سوف يضر بصفقتنا الجديدة.

أردف في عدم مبالاة:-

-كما أن ذلك لن يفيد سارة في أي شيء، فما حدث قد حدث وانتهى الأمر، ولا يفيد البكاء على الحليب المسكوب.

ابتسمت بسخرية شرف ابنته حليب مسكوب، دائما ما كانت العائلة في المقام الأخير بالنسبة له.

نفضت عنها شرودها ما أن خرج الطبيب وأسرعت إليه، قال الطبيب في تفاؤل:-

-خروجها من صومعتها مؤشر جيد، وإن شاء الله سوف تتحسن قريبًا.

ابتهجت ملامحها وشكرته كثيرًا بينما ناهد فقد أغلقت جفنيها في ارتياح شديد وابتهلت بداخلها أن تتحسن ابنتها سريعًا.

***

تقدم بخطوات بطيئة تجاه الجثة المشوه وجهها، وارتسم مزيج من الشفقة والغضب على ملامحه، برغم مرور أعوام منذ أن بدأ عمله كضابط إلا إن كل مرة يأتيه بلاغ مثل هذا يشعر وكأنها المرة الأولى له.

اتجه إلى الشاب الذي بلغ عن مكان الجثة، وكان يقف بوجه طفولي شاحب، والعرق يتصبب منه رغم برودة تلك الليلة بينما الكلام ينطلق من فمه متلعثمًا.

أشار للعسكري بأن يترك استجواب الشاب له.

قال بنبرة هادئة بينما ينظر إلى الورقة التي كان يدون بها العسكري الاستجواب:-

-إذًا يا مروان، لماذا مررت من هذا الطريق فكما ترى إنه طريق بلا حياة؟

رد بتلعثم بينما يتجنب النظر إليه:-

-لقد كنت ذاهبًا لرؤية صديق لي يسكن قريبًا من هنا، ورغبت في سلك طريق مختصر.

كان هشام يراقب ملامحه بنظرات متصفحة حادة ثم قال ببساطة:-

-حسنًا، ربما لا تمانع في إعطائنا عنوان صديقك للتأكد من الأمر.

قال مروان وقد بدأ صوته في الارتفاع بهيستيرية:-

-أنا لا أفهم حقًا، ما كل تلك الأسئلة وكأني متهم.

زفر هشام، وخفض صوته هامسًا بتحذير:-

-اسمع أيها الشاب، أنا أستطيع شم رائحة كذبك من مكاني هذا، لذا إذا كنت لا ترغب في أن تُشرفني في القسم فلتبدأ بسرد ما حدث حقًا.

اشتد شحوب وجهه حتى كاد يحاكي شحوب الموتى، وقال بنبرة شبه باكية:-

-أنا لم أفعل هذا صدقني، لقد وجدت الجثة فقط، وهاتفتكم تلقائيًا.

صمت هشام برهة بينما ارتفعت دقات قلب مروان خوفًا من أن يزج به في السجن، تجمد عندما جذب كفه ونظر بتفحص إلى أنامله ثم تركها.

قال هشام بجدية:-

-هل حركت الجثة من مكانها؟

-كلا، أقسم إني قد وجدتها هكذا ولم أفعل أي شيء، لقد فزعت.

-هل رأيت أحدًا حول الجثة أو أي شخص مريب؟

قال مروان بينما يحاول أن يتذكر:-

-لقد سمعت صوت سيارة، وتعجبت من وجدوها فقد كانت غالية.

تساءل هشام بلهفة:-

-ما مواصفات تلك السيارة؟

رد بأسف:-

-لم أستطع رؤيتها.

كز على أسنانه في غضب وقال:-

-إذًا كيف عرفت إنها ثمينة؟!

-أنا عاشق للسيارات بكل أنواعها، وأستطيع تمييزها من صوت المحرك، السيارات الغالية لمحركها صوت مميز، وتلك كانت غالية.

أومأ هشام، وشرد في كلماته، وكأنه لا يُكلف إلا بالقضايا التي بلا دليل، وبلا متهم، والأهم بلا شهود.

انتبه إلى صوت مروان متسائلا بخوف:-

-هل يمكنني الذهاب الآن؟

-أذهب.

أردف بحزم قبل أن يغادر:-

-ولكن إذا رأيتك مرة أخرى في ذلك الطريق سوف أقبض عليك، وعلى من يبيع لك الكوكايين فأناملك يتضح بها آثاره.

ازدرد لعابه في خوف وأومأ أكثر من مرة، وما أن لوح هشام بيده سامحًا له بالذهاب حتى أسرع بخطوات شبه راكضه خوفًا من أن يغير رأيه.

زفر هشام بضيق، وتأمل الجثة بينما يتم نقلها إلى السيارة ليفحصها الطب الشرعي، وبدأ يتساءل ما سر تلك القضية، وما دوافعها هي الأخرى؟!

تأمل ساعة يده، وهاتف خطيبته ملغيًا موعدهما، فيبدو إنه يوم آخر سوف يقضيه في مكتبه بين الأوراق والتحقيقات.

***

-كيف كان يومك؟

تنهدت ما أن سألها مراد ثم بعد برهة قالت بنبرة كاذبة:-

-كان جيدًا للغاية.

استطاعت أن تشعر بالقلق في نبرته وهو يتساءل:-

-هل حدث أي شيء ضايقكِ يا شيماء؟

أردف في حدة طفيفة:-

-أنتِ لستِ بحاجة إلى العمل، أنتِ لستِ بعالة علي فأنتِ أختي يجب أن تدركي ذلك.

ابتسمت بشحوب قائلة:-

-أدرك ذلك يا مراد، وأنا لن أستطيع أبدًا إخبارك عن مدى امتناني لوجودك في حياتي.

أردفت تطمئنه:-

-ولكن لم يحدث شيء، فقط كان العمل مرهقًا اليوم، هذا كل شيء.

تساءل في نبرة مشككة:-

-هل أنتِ متأكدة؟!

ابتسمت وقالت:-

-متأكدة، لا تقلق.

سمعت تنهيدته ثم قال:-

-حسنًا، سوف أتركك الآن لترتاحي، وسوف أحادثك لاحقًا.

أنهى المحادثة لتسترخي شيماء فوق الفراش تحاول الحصول على قسط من الراحة بعد تلك المعاناة النفسية التي تعرضت إليها بفضل رئيسها الفظ، ولكنها مرغمة، لا تنكر أن العمل أيضًا قد جعلها أكثر راحة في بعض الأحيان فقد قلت كوابيسها بسبب إرهاقها الدائم عند العودة إلى المنزل.

ابتسمت ولا تعرف لما بدأت تستعيد ذكرياتها مع مراد وبالأخص تلك الليلة التي غيرت في علاقتهما، وبعدما كانت تراه شابًا عابثًا لا يمكن أبدًا أن تثق به منذ أول يوم لها في الجامعة تحول إلى صديق وأخ يمكنها الاعتماد عليه مهما حصل.

***

كانت تسير بخطوات سريعة تجتاز الطرق المظلمة لتصل إلى منزلها، لقد كان يومًا طويلا في كليتها.

توقفت قدماها عن الحركة، وتسارعت أنفاسها بينما دقات قلبها فقد بدأت في الارتفاع رويدًا، ازدردت لعابها وتقدمت في الظلام تجاه مصدر الصوت الذي أثار فزعها، وجهت كشاف هاتفها إلى الطريق أمامها، ولم تمر ثواني حتى شهقت وأسقطت هاتفها في فزع عندما انعكس ضوئه على ذلك الجسد.

اندفع الأدرينالين في جسدها، وكل خلية تصرخ بها أن تركض سريعًا، ولكن تسلل إلى أذنها صوت ضعيف:-

-ساعدني.

بللت شفتيها بطرف لسانها، وحملت هاتفها مرة أخرى وجهته إليه وتساءلت بخوف:-

-هل أنت بخير؟

أجابها الصمت لبرهة ثم همس بخفوت:-

-الحقنة.

-أي حقنة؟!

عندما لم يجيبها ارتفع صوتها متسائلا بهيستيرية بينما تراقبه يغلق جفناه في تراخي:-

-اللعنة!أي حقنة تقصد؟!

أخذت تسب ذلك الحظ الذي دفعها للسير في هذا الطريق اللعين، انحنت جالسة القرفصاء بجواره وبدأت تتفحصه في ضوء الكشاف بحثًا عن إصابات، وعقلها يعمل في جنون فإذا كان مصابًا بسلاح قد تتهم بأذيته خاصة بعدما تعرفت على ملامحه، لقد كان مراد ذلك الأحمق من كليتها الفاشل الذي ظل طويلا في الكلية بدون أن ينجح في التخرج، والذي قد شهد الجميع معاركهما اللفظية.

تنهدت في ارتياح عندما لم تجد أي إصابات ظاهرة وبدأت في الاتصال بالإسعاف رغم تعجبها من سبب إغمائه.

بعد دقائق بدت طويلة لها قد قضيتها في فزع بينما تقف بجوار جسده، وبين الحين والآخر تمر بكفها أمام أنفه لتتأكد من كونه على قيد الحياة خاصة وقد بدا كجثة هامدة، أقبلت سيارة الإسعاف لنقله برغم تلك النظرة على محياهم والتي أوضحت طريقة تفكيرهم حول المتسبب في حالته.

تنهدت بينما ترمق جسد مراد في غيظ مكتوم حتى في مرضه لا ينفك أن يثير غضبها وحنقها.

جلست أمام غرفة الطوارئ، ورجفة باردة تكتنفها لوجودها في ذلك المكان بينما رائحة المشفى المميزة تتسلل إلى أنفها.

تنفست بعمق وتأملت المكان من حولها، من حسن الحظ وصول الإسعاف سريعًا وإلا كان في عداد الموتى الآن.

خرج الطبيب ورمقها بنظرة مهينة قائلا بجمود:-

-لقد كان على وشك الموت بسبب المخدرات.

شهقت بعنف مرددة:-

-مخدرات!

تساءلت في قلق:-

-ما الحل؟

ربما الخوف في عينيها دفعه لأن يشفق عليها فقال بنبرة هادئة:-

- يجب أن يوضع في مشفى لعلاج الإدمان، لن أبلغ الشرطة ولكن...

أردف بنبرة تحمل في طياتها تهديدًا:-

- إذا رأيته مرة أخرى سوف أتأكد من وضع كلاكما في السجن.

اعترضت قائلة:-

-لكن أنا...

قاطعها بنبرة حازمة:-

-تلك آخر كلماتي، وربما يجب أن تبدئي في إقناعه بالعلاج.

غادر الطبيب تاركًا إياها تستشيط غضبًا بدون أن يسمح لها بتكملة حديثها، هي ليس لها أي صلة أو علاقة بذلك المدمن فلماذا يرتبط مصيرها به؟!

اتجهت إلى الغرفة التي يوجد بها مراد بخطوات صاخبة وأعين تنفث نارًا بينما وجهها فقد كان كظيمًا مسودًا من شدة غضبها وغيظها، وقد وجدت الآن الشخص المناسب لتسكب جام غضبها فوق رأسه.

لم يثير وجهه الشاحب أي شفقة لديها بل اندفعت صائحة في غضب:-

-اسمع يا هذا، أنا لن أسمح لأحد ولا حتى هذا الطبيب الغبي أن يربطني بمدمن مثلك، ولذلك فلتتعالج أو تموت أنا لا أهتم ولكن بعيدًا عني.

كان صامتًا يتابع ثورتها والتي سرعان ما خمدت سريعًا، زفرت تتأمله قليلا ثم أردفت في ضيق واضح على ملامحها:-

-لماذا لا تريد أن تتعالج؟

احتفظ بصمته يتجنب النظر إليها، قالت في حنق:-

-هل تريد الموت إلى هذه الدرجة؟

رفع رأسه لأول مرة منذ أن دخلت لتدرك الحقيقة، إنه حقًا يرحب بالموت، ومرغمة أثار شجونها ذلك الألم في عينيه فاستطردت بنبرة أكثر لينًا:-

-إن الحياة لا تنتهي بتلك السهولة إلا إذا كنت جبانًا، يجب أن تحارب من أجل مكانتك، تلك المكانة التي تريدها لنفسك أو التي تريد أن يعرفها الناس عنك بعد موتك، هل تريد أن يقولوا إنك مت مدمنًا حقيرًا؟

عندما لم تلقى منه أي استجابة تساءلت في غضب:-

-ماذا عن عائلتك، هل أنت أناني حتى تموت بسهولة بدون أن تفكر بهم؟

زفرت بضيق وغضب ولوحت بيدها في عصبية واضحة والتفتت تغادر صائحة بنفاذ صبر:-

-افعل ما تريد أيها الوغد الأناني.

-سوف أتعالج.

***

ابتسمت عندما تذكرت لسانها الطويل معه، تنهدت عندما تذكرت قراره الأخير بأن يذهب للعلاج وبرغم إنها لم تراه طيلة فترة علاجه إلا إنه قد جاء لرؤيتها بعدما تخلص تمامًا من تلك السموم وقد سعدت للغاية برؤيته ومنذ ذلك الحين وتطورت علاقتهما رويدًا حتى أصبحت هكذا.

دائما ما كان يشعرها إنه مدينٌ لها برغم أنها لم تفعل شيئًا، وطالما شعرت وما زالت تشعر إنها تستغله للإيفاء بدين ليس له وجود.

خلدت إلى نوم عميق وقد كانت آخر أفكارها إنه مهما كان دافع مراد سابقًا أو الآن فهي تعتز به كثيرًا كأخ لها.

***

كان هشام مازال منهمكًا في تلك القضية بالإضافة إلى هوسه بخالد الحداد فقد كان يريد أن ينفذ وعده لشيماء، الذي قطعه منذ شهور، بأن يضعه في السجن مهما كان الثمن.

اعتدل في مقعده وجذب الإطار الموضوع فوق مكتبه، لامست أنامله الصورة، وظهر الحزن على ملامحه بينما يسترد تلك الذكريات الثمينة التي جمعت بينه وبين شقيقته الكبرى "هدير" والتي كانت أمًا له بعد وفاة والديهما.

اشتدت قبضته على إطار الصورة عندما تذكر تلك الليلة التي كانت نهاية كل شيء، وقد تخرج من كلية الشرطة وكان على وشك أن يحتفل معها في الخارج.

ما زال يتذكر ذلك الاتصال يخبرونه أن قطاع الطرق اغتصبوا شقيقته وشوهوا وجهها الجميل.

تظل الذكريات الأكثر ألمًا مختزنة في العقل أكثر من السعيدة تاركه جرحًا غائرًا في أعماق النفس، وقد استغرق الكثير من الوقت بعد هذا ليخرج من صمته ويتجاوز الصدمة ويبدأ يعود إلى حياته كما كانت سوف تريده أن يفعل -رحمها الله-

عندما رأى شيماء أول مرة، ورغم صغر سنها إلا إنه رأى وجه هدير بها لذلك تعاطف معها كثيرًا مخالفًا طبيعته كضابط، وقرر أن يبذل قصارى جهده لمساعدتها بعد أن شعر بصدقها.

***

اجتمعت عائلة الحداد حول مائدة العشاء للمرة الأولى منذ الحادثة، وكأنهم كانوا في اتفاق صامت لكي يستعيدوا حياتهم الطبيعية مرة أخرى.

كان الصمت مخيمًا حتى قطعه محمد متسائلا:-

-هل سمعت ما حدث مع مساعدك يا خالد؟

تظاهر خالد بالبرود بينما تساءل سيف في قلق طفيف:-

-ماذا حدث معه؟

أجاب محمد في برود بينما يتناول طعامه:-

-سمعت أنه منذ أكثر من شهرين تقريبا ابنته قد اختفت ولم يجدها.

-هل هناك أي أدلة على مكانها؟

صمت محمد متأملا سيف الذي كانت أسئلته توحي باهتمام غير مُعتاد لشخص مثله ولكنه تجاهل الأمر مجيبًا:-

-أعتقد أن الشرطة ما زالت تحقق في الأمر.

خرج خالد عن صمته وقال في لطف اصطنعه:-

-سوف أصرف له بعض المال لمساعدته.

أومأ محمد بينما ناهد فقد تأملته بنظرات متعجبة لم تستطيع منعها فهو ليس بشخصٌ معطاءًا إلى هذه الدرجة، رجل مثله خان ثقة ابنته وتخل عن حقها أسوف يخدم غريبًا؟!

تثق إن هناك سر خلف اهتمامه ذلك، ابتسمت بسخرية فمتى لم يكن هناك أسرار تحاوطه؟! لكن الحقائق لا تختفي طويلا ويومًا ما سوف تظهر تباعًا وحينها لن ينفع الندم.

الفصل الثالث عشر

ظهر التوتر على ملامح حسن وكأنها نتيجته بينما عدي فقد احتفظ ببروده بينما يتجه بخطوات واثقة تجاه الحائط المعلقة عليه النتائج، وبهدوء يُحسد عليه بدأ يبحث عن اسمه، وسرعان ما ابتسم فأسرع حسن هاتفًا في قلق:-

-ماذا فعلت؟

ابتسم عدي وقال في غرور:-

-لقد نجحت بالطبع.

تنهد حسن في ارتياح بالغ فقد كان قلقًا للغاية ثم احتضنه قائلا في سعادة:-

-مبارك يا صديقي، أخيرًا.

ابتسم عدي وقال:-

-والآن، قد حان موعد الاحتفال، سوف أصطحبك إلى الغذاء في أغلى المطاعم الموجودة.

ابتهجت ملامح حسن كثيرا، فإذا كانت "الفتيات" سر سعادة عدي فإن "الطعام" هو نقطة ضعف حسن التي لا يستطيع مقاومتها برغم أن ذلك لا يتضح على جسده الضئيل أبدًا.

قاد عدي سيارته يجاوره حسن، وسعادته تتجاوز عنان السماء فأخيرًا سوف يتخلص من تأنيب والده المستمر ومقارنته الدائمة بينه وبين أدهم، والتي لم

يكن سببها بالطبع حبه لأدهم ولكن رغبته في أن يكون والد الابن الأفضل في عائلة الحداد.

اتسعت ابتسامته وهو يفكر في رد فعل والده عندما يخبره بتلك المفاجأة التي يجهزها له، فسوف يكون خبرًا صادمًا له، وسوف يستمتع بنقله له.

لقد حان الوقت ليدرك الجميع أن عدي الحداد لن يكون أبدًا نسخة من أحدٍ حتى وإن كان هذا الشخص ابن عمه وبمثابة شقيقه، إنه نسخة وحيدة لا مثيل لها أبدًا.

***

رمق أدهم مقعد عدي الفارغ بينما يجتمعوا حول مائدة الإفطار، وتساءل في حيرة:-

-ألم يستيقظ عدي بعد؟

ابتسمت مريم، وقالت:-

-لقد ذهب ليرى نتيجته.

ظهرت السعادة على ملامح أدهم، وهتف في إخلاص:-

-سوف ينجح إن شاء الله، أنا أثق به.

ابتسمت مريم له بينما أميرة فقد سرقت نظرات إليه في صمت، أما ناهد فلم تكن معهم وكل نظراتها معلقه بسارة التي خرجت من المشفى منذ بضعة أيام

وعادت إلى المنزل لكنها ما زالت محتفظة بعزلتها بعد انهيارها الأخير لعل التحسن الوحيد هو رضوخها لإلحاحها بأن تشاركهم الإفطار.

رمقت طعامها الذي لم يمس بينما هي ما زالت تعبث به وقد خسرت الكثير من وزنها بينما وجهها فقد كان شاحبًا وقد فقد نضارته لكن الجروح قد اختفت تدريجيًا، تنهدت في صمت تتمنى أن تختفي الجروح في روحها كجروح وجهها.

***

قال سيف في غرور بعدما أخبره عدي بخبر نجاحه:-

-غدًا تأتي لاستلام مكانك.

رد عدي بنبرة فاترة بدون أن يبالي بأعمامه الموجودين في الغرفة:-

-بل سوف أعمل في شركة أدهم.

أردف رامقًا أدهم بنظرة متسائلة:-

-إذا كان هذا ممكنًا؟

ابتسم أدهم قائلا ببهجة صادقة:-

-بالطبع ممكن.

أردف بنبرة مرحة:-

-ولكن احذر فالعمل معي صعب للغاية.

-لا تقلق سوف أجعلك فخورًا.

-أثق في ذلك.

ظل سيف صامتًا أمام نظرات شقيقيه المتفحصة يراقب ما يحدث أمامه بدون أن ينطق بحرف حتى غادر أدهم، فلحقوا به وجلسوا مع باقي أفراد الأسرة في الردهة بدون أن يُخفى عنهم النظرات المتحدية التي يملأها البغض بين سيف وعدي وكأنهما غريمان لا أب وابنه.

لم يفت الأمر مريم التي تلاحظ كل اختلاجات ابنها، ومازال التوتر في علاقتهما يثير حيرتها؛ فهي لا تفهم ما الذي حدث ليصبحا هكذا ويتحول عدي إلى شخص آخر مع والده، شخص بارد غاضب ساخر، ولكنها تعتقد أن سيف ربما يضغط عليه كثيرًا بدون أن تعرف.

لاحظ عدي نظراتها المتسائلة ليبتسم بدفء مطمئنًا إياها وقال بمرح:-

-سوف أذهب للنوم الآن قبل أن يجهدني أدهم الظالم بالعمل اللامتناهي.

اتجه إلى غرفته، وما أن أصبح وحيدًا حتى ارتسم الغضب والبغض فوق ملامحه متذكرًا ذلك اليوم الذي غير تلك المشاعر المفعمة بالفخر التي يشعر بها أي صبي تجاه والده فخالد الحداد وسيف الحداد نسختان متماثلتان، لقد شهد طفولة صعبة بسببهما فعرف قذارة خالد وأدرك كم أن والده وغد قاسي

ضرب واغتصب والدته لتكون ثمرة هذا الاغتصاب أميرة، وكأن رجال عائلة الحداد ملعونون إلى القبر وخطاياهم تصل إلى عنان السماء.

زفر بضيق ثم استرخى فوق فراشه وبدأ ذلك الخوف القديم يراوده، هل ممكن أن تكون جيناته قذرة مثلهما وأن يجد نفسه قد أصبح نسخة مماثلة لعمه ووالده؟!

***

تململ عدي في تكاسل فوق فراشه ثم سرعان ما انتفض فجأة جاذبًا هاتفه لتتسع حدقتيه في فزع وتمتم بغيظ:-

-اللعنة، لقد تأخرت.

نهض سريعًا وفي أقل من ربع ساعة كان قد انتهى من تجهيز نفسه للذهاب إلى العمل، هبط الدرج في خطوات شبه راكضة، فالشيء الوحيد الذي لا يتسامح فيه ابن عمه هو التأخير.

رمق ساعته مرة أخرى بينما يقود سيارته يتمتم:-

-ليكون الله في عوني اليوم، فأدهم سوف يقتلني لتأخري منذ اليوم الأول.

ركن سيارته ودلف إلى داخل الشركة وبعد ثواني قليلة كان في المصعد متجهًا إلى مكتب أدهم، اتجه إلى مكتب مساعدته الشخصية والتي لم تشعر بوجوده فقد كانت تدس وجهها في ملفٍ ما.

قال:-

-عذرًا أريد لقاء...

قطع كلامه فجأة عندما رفعت رأسها ورأى ملامحها ثم صاح في عدم تصديق:-

-أنتِ؟!

الفصل الرابع عشر

-أنتِ!

كان ذهوله عميقًا عندما وجد نفسه وجهًا لوجه مع الفتاة التي عاهد نفسه على التوقف عن التفكير بها منذ أشهر بينما شيماء فقد انعكست الحيرة في مقلتيها لبرهة ثم شحب وجهها عندما تعرفت عليه من ذلك اليوم بدون أن تتذكر اسمه، ولكن رؤيته في هذا المكان الآن جعلها تدرك أنه قد يكون مقربًا لرئيسها مما أثار خوفها من أن تُطرد من عملها قريبًا.

قال عدي بدون أن يفارقه ذهوله:-

-لم أعتقد حقًا إني قد ألتقي بكِ مرة أخرى.

حرك يديه بإيحاء مستطردًا:-

-بالأخص هنا.

لم تبدي رد فعل فقط تنظر إليه منتظرة أن تتضح غايته من التحدث معها مما أزعجه وقد ظن أنها لم تفقد ضغينتها تجاهه نتيجة تصرفه ذلك اليوم.

قال مداعبًا:-

-لا أعتقد إنكِ لم تتعرفي علي، إلا إذا كنتِ تضربين الكثير من الشباب.

رغم جهودها المبذولة إلا إنها لم تستطيع منع تلك الابتسامة الصغيرة من التسلل فوق ثغرها مما دفع تيارًا غريبًا من البهجة في سائر جسده وهو يراها

أمامه، وبرغم شحوبها وهزال جسدها إلا أنها بدت جميلة في عينيه، وبرغم خوفه من موجة المشاعر التي تصيبه وتغرقه وهو العابث المتمرد إلا إنه وجد نفسه يرغب في إطالة الحديث معها فقال بنبرة جذابة:-

-والآن فلنتعرف بطريقة لائقة، ما اسمكِ؟

صمتت برهة وشعور بعدم الأمان يسكنها، ولكنها لم تجد مفرًا سوى أن تجيب في خفوت:-

-شيماء.

اتسعت ابتسامته وقال:-

-وأنا عدي الحـ...

وقبل أن يتابع ارتفع صوت من خلفه قائلا بحدة:-

-ماذا يحدث هنا؟

انتفضت شيماء وبدا عليها الارتباك بينما عدي فقد التفت إلى أدهم في استرخاء، والذي ما أن خرج من مكتبه حتى تفاجأ بوجودهما وظل لحظات ينقل نظراته بينهما في دهشة؛ فآخر ما تصوره أن يكون هناك علاقة تربط بين ابن عمه المتمرد دائمًا والفتاة التي تسعى لتدمير سمعة العائلة.

أجاب عدي بتلقائية بدون أن يلاحظ الشرر المتطاير من عيني أدهم:-

-إنها شيماء، فتاة المول التي سبق وأن أخبرتك عنها.

ظهرت الدهشة في نظراته برهة ثم اشتعل غضبه رامقًا شيماء بنظرة متوعدة وقال:-

-هيا إلى مكتبي، واتركها تتابع عملها.

اتجه إلى مكتبه قبل أن يعترض عدي، فتنهد بملل والتفت إلى شيماء قائلا:-

-سوف نتابع حديثنا لاحقًا.

كلماته أثارت قلقها؛ هي لا ترغب في إثارة غضب رئيسها والذي لم يبدو راضيًا تمامًا عن حديثها مع صديقه.

قال عدي بمرح ما أن دلف إلى المكتب:-

-ما بك يا رجل، لقد أثرت فزع الفتاة؟

قال أدهم بنبرات جادة:-

-لا تقترب من تلك الفتاة يا عدي.

صمت عدي برهة وأختفى المرح الذي شعر به سابقًا ثم تساءل في حيرة:-

-لكن لماذا؟!

تجنب أدهم نظراته وقال بنبرة فاترة:-

-فقط ثق بي في هذا.

اعترض عدي قائلا:-

-لا يمكنك أن تطلب مني هذا بدون أن تمنحني سببًا واضحًا.

تردد أدهم قليلا ثم أجاب بإيجاز:-

-إنها ليست بفتاة جيدة يمكنك التحدث معها.

قال عدي في إصرار:-

-إذًا دعني أحكم بنفسي.

قبل أن يرد أدهم أردف مغيرًا الموضوع:-

-والآن ماذا سيكون عملي في هذه الشركة؟

تأمله أدهم برهة، وأدرك من الإصرار في عينيه إنه لن يقتنع أبدًا فاستجاب لتغييره للموضوع وقال:-

-سوف تكون من ضمن محامي الشركة، مهامهم تتمثل في مراجعة العقود وفي حالة وجود قضايا تترافع باسم الشركة، سوف تكون مع أستاذ عبد القادر وسوف يعلمك كل شيء.

أومأ عدي وابتسامة على ثغره، ولم تمر دقائق حتى غادر المكتب متجهًا إلى مكتب محامي الشركة أستاذ عبدالقادر.

رمق شيماء بنظراته العابثة وهمس بينما يمر بجوار مكتبها:-

-إلى اللقاء، أراكِ لاحقًا.

حافظت على جدية ملامحها واصطنعت عدم سماعه بدون أن ترى اتساع ابتسامته العابثة المدركة لتصرفاتها.

لم يكن عدي الشخص المفضل لديها في هذه اللحظة فرؤيته تعيدها إلى تلك الليلة بكامل تفاصيلها بالإضافة إلى سخط مديرها الواضح على ملامحه عند رؤيته معها.

انتفضت من أفكارها بعد مغادرة عدي على صوت الهاتف الداخلي معلنًا عن استدعاء أدهم لها.

زفرت في توتر ثم دلفت إلى الداخل، شعرت بالقلق أمام نظراته الصامتة حتى قال بنبرة حازمة لا تقبل أي جدال:-

-لا أريد أن أراكِ بجوار ابن عمي أبدًا، هل هذا مفهوم؟

أومأت شيماء في صمت بعدما انصدمت من صلة القرابة بينهما ثم قالت ببرود:-

-أنا لا أرغب في رؤية ابن عمك أيضًا، وربما يجب أن تخبره هذا بنفسك بدلا مني.

كان السخط على ملامحه قد أوضح أن الحديث مع عدي كان مخيبًا لآماله لذلك فقد أردفت بابتسامة واثقة لا تشعر بها حقًا:-

-هل يمكن أن أذهب لمتابعة عملي الآن؟

أشار لها أن تغادر في صمت، وما أن غادرت حتى اشتد الغضب على محياه وقرر أن يبذل قصارى جهده ليحقق انتقامه منها في أسرع وقت ثم يلقي بها بعيدًا عن حياتهم، وبالأخص بعيدًا عن عدي الذي يثير قلقه بإصراره على محادثة تلك الفتاة.

***

بدأ هشام في كتابة ملاحظاته عن القضية لعله ينتبه إلى أشياء لم يلاحظها من قبل، فتاة في المدرسة الثانوية تعرضت للاغتصاب العنيف كما ذكر تقرير الطب الشرعي بالإضافة إلى مرور الكثير من الوقت على وجود الجثة في مكان اكتشافها، ونتيجة لفحص المكان بدقة تم تأكيد إنه تم نقل الجثة إلى هذا المكان أي أنه ليس مسرح الجريمة.

تم تحديد هوية الفتاة وإبلاغ والدها والذي كان قد سبق وقدم بلاغًا عن اختفائها من شهرين، وفي يوم اختفائها ذكر إنها كانت في درس وكان من المفترض أن تعود إلى المنزل قبل عودته من عمله المسائي بفترة طويلة والذي ينتهي بعد منتصف الليل.

انتابه شعور بالأسف عندما نظر إلى صورة تلك الطفلة التي لم تنال من الحياة نصيبها.

كز على أسنانه في غضب وكعادته تعاطف بشكل شخصي مع ذلك النوع من القضايا، وبرغم أن قضية شيماء كان لها نصيب الأسد من تركيزه إلا أن تلك الطفلة قد أثارت شفقته وحزنه بشكل كبير، ولذلك فقد بدأ يأخذ التحقيق بشكل أكثر جدية وبدأ يعيد قراءة التفاصيل مرة تلو الأخرى حتى لا يشرد عن أي تفاصيل قد تقوده إلى الجاني فالقضايا المتعلقة بضحية ميتة أصعب بكثير من غيرها حيث يستلزم الأمر الكثير من التحقيقات للحصول على دليل كافي لإقناع النيابة بمتابعتها وعرضها على المحكمة.

بعد ساعات طويلة قد قرأ فيها الملف والتقرير الطبي العديد من المرات توقف فجأة وبدأ يركز على سطر محدد في الملف، سطر قد يسلط الضوء على جزء كبير من الغموض الذي يحيط بالقضية.

قد قال أحد الشباب والذي يعود من عمله في وقت متأخر من الليل إنه لاحظ وجود سيارة غريبة عن المنطقة في الوقت الذي يُعتقد أنه وقت حدوث الاغتصاب، هل يمكن أن الاغتصاب قد حدث في منزل الفتاة ثم تم نقل الجثة؟!

زفر في ضيق لكنهم لم يجدوا أي دليل في منزل الضحية قد يدل على هذا.

تأمل مواصفات السيارة مرة أخرى ثم برقت عيناه فتلك المواصفات ليست من الأنواع الرائجة، وتذكر قول الشاب الذي وجد الجثة عن محرك السيارة المميز.

بدأ يبحث بتركيز ثم هاتف أحد أصدقائه المتخصصين في صناعة السيارات، وما أن انتهى من محادثته ابتسم عندما أدرك أنها بالفعل إصدار محدود، ومعرفة صاحبها في مصر سوف يكون سهلا للغاية.. دليل كهذا سوف يكون سببًا مناسبًا لاستمرار القضية ولكنه ليس قويًا كفاية لعرضها في المحكمة.

التقط هاتفه مرة أخرى مصدرًا أمر بالبحث عن هوية من قد يمتلكون سيارة بتلك المواصفات، وبالفعل لم تمر بضعة ساعات إلا وقد تلقى اتصال بهوية الشخص الوحيد الذي يمتلك مثل تلك السيارة في مصر..اتسعت ابتسامته يشعر بالسعادة البالغة وقد أدرك أن "خالد الحداد" ينتمي إلى السجن عاجلا أم آجلا، فلا يوجد أحد يمتلك مثل تلك السيارة هنا إلا هو.

***

تنهد عدي بارتياح عندما حان موعد المغادرة والذي ترجمه عقله المنهك من التفكير بأنه موعد لقاء شيماء، لم تكن أكثرهن جاذبية أو جمالا ولكن هناك تلك الرابطة التي تجذبه إليها كما تنجذب برادة الحديد إلى المغناطيس، وحتى يعرف سر انجذابه لها لن يتوقف عن السعي خلفها ومحاولة التحدث معها بما إن الأقدار وضعتها أمامه مجددًا متجاهلا حديث ابن عمه رغم إنه يتعجب من كون أدهم الهادئ دائمًا يثير تحدثه مع شيماء حنقه إلى هذا الحد.

ترى ماذا فعلت لتثير غضبه إلى هذه الدرجة ولماذا يدعي إنها فتاة سيئة؟! والسؤال الذي يثير حيرته أكثر لماذا ما زالت موظفة في الشركة إذا كانت سيئة كما قال؟!

أسئلة كثيرة تبادرت إلى ذهنه بينما يتجه إلى مكتب شيماء، ولكنه يثق إنه سوف يجد الإجابة وبدأ ذلك الشعور بالتحدي يملأه مثلما كان صغيرًا شغوفًا بحل لغز ما.

ارتسمت خيبة الأمل بوضوح على ملامحه عندما وجد مكانها فارغًا، زفر في ضيق ثم التفت مغادرًا.

-عدي!

التفت إلى ابن عمه، والذي كان على وشك المغادرة الآن وقد أردف متسائلا:-

-هل حدث شيء؟!

ارتبك عدي ولم يرغب أن يخبره أنه قد جاء من أجل شيماء حتى لا يصب غضبه على الفتاة المسكينة، فقد سمع بعض الثرثرة هنا وهناك عن معاملة أدهم الجافة لمساعدته لذلك فقد قال:-

-لقد جئت لرؤية إذا كنت مغادرًا لنغادر معًا.

لم يبدو على أدهم الاقتناع، ورمق مكتب شيماء الفارغ ثم نظر إلى عدي مرة أخرى والذي حاول أن يحافظ على تلك النظرة البريئة في عينيه ليمنع نفسه بعدها بصعوبة من أن يزفر في ارتياح عندما قال أدهم مبتسمًا:-

-حسنًا، انتظرني في الأسفل.

أومأ عدي وغادر سريعًا بينما أدهم فقد اختفت ابتسامته وظهر القلق على محياه فتصرفات عدي تثير قلقه للغاية خوفًا من أن تستغل تلك الفتاة لهفته لمعرفتها، وخوفًا أيضًا من أن يعرف بخصوص تلك القضية التي زورتها ضد عمه، فقد حرص مع والده وأعمامه ألا يعرف أي أحد بالأمر.

تنهد أدهم فهو يعرف جيدًا أن عدي لن يدع الأمر يمر مرور الكرام عندما يعرف، فطالما كان مندفعًا ومنفتحًا للاستماع إلى الطرف الآخر حتى وإن كان اسم العائلة على المحك، ويخشى أن تستغل هي ذلك.

زفر في ضيق.. يجب أن يجد حلا لمنع عدي من لقاء شيماء أو التحدث معها فتلك الفتاة خطر بالغ على عائلتهم.

غادر المكتب بينما عقله لا يتوقف عن العمل بحثًا عن طريقة أسرع للانتقام منها وإلقائها بعيدًا عن عائلته.

***

اتجهت إلى المنزل من طريق مختلف بخطوات بطيئة وقد شعرت بحاجة إلى الانفراد بنفسها قليلا.. كان ذهنها ضبابيًا وكأنها تبذل كل جهودها حتى لا تفكر في أي شيء وتكتفي بالاسترخاء فقط، ولكن صورة غير متوقعة قد ظهرت بين ذلك الضباب وبشكل واضح للغاية، لم تشعر بتلك الابتسامة الطفيفة التي ظهرت على وجهها بينما تفكر في هذا اليوم عندما تشاجرت معه بسبب مغازلته لها، لا تعرف لما فكرت به، ولعل لقائه مرة أخرى كان أمرًا غريبًا وغير متوقع مما دفع تلك الذكرى بوضوح إلى ذهنها.

أكملت سيرها بينما عقلها يعيد مشهد لقائه ويضيف بعض التحليل عليه... توقفت فجأة بدون أن تشعر أو ترغب في ذلك وكأن قدميها قد أصدرتا ذلك الأمر.

تمتمت ببطء وكأنها تهذي:-

-هذا المكان!

سيدة ذات شعر أبيض مصفف بأناقة بينما ثيابها فقد دلت على مستواها الاجتماعي، ثرية للغاية، أقراط أذانها والأساور في يديها لابد إنهم كلفوها ثروة طائلة، كانت تضحك بأناقة وحيوية كشابة في العشرين من عمرها ثم نظرت بحنان إلى الفتاة أمامها وربتت على كفها برفق، وجه الفتاة إنه...

شهقت شيماء بعنف، وكأنها تحارب لتستنشق الأكسجين من الهواء، انحنت بجذعها بينما أرتفع سعالها والهواء يختفي من رئتيها، اجتمع البعض من حولها وساعدتها إحدى الفتيات على الجلوس بينما أحضر أحدهم زجاجة من الماء، وبعد دقائق استعادتا رئتيها القدرة على التنفس مرة أخرى.

تمتمت بشكرٍ واهٍ ثم سرعان ما أكملت سيرها بخطوات مترنحة قليلا بينما ذهنها فقد كان يحاول في استماتة أن يحلل ما حصل عليه من ذكرى غير واقعية أبدًا، لماذا تتخيل نفسها في مكانٍ مرموقٍ مع سيدة ثرية لن تتلاقى طرقها معها حتى وإن حالفها الحظ؟! والأهم من تلك السيدة، هو ذلك المكان الذي كان في ذاكرتها كان يشبه المقهى الذي اصطحبتها شهد إليه من قبل،

هل تلك مجرد تخيلات؟! ولكن الخيال ليس بمثل هذا العنف ولن يفاجئك بتلك الطريقة وكأن قطار قد صدمك، إذًا ما هذا؟!

كانت تعرف أنه من أجل سلامتها العقلية يجب أن تتجاهل ما حدث وكأنه لم يكن، فيكفي أنها قد بدأت بالشعور إنها طبيعية لأول مرة منذ فترة ولن تسمح لمجرد هلاوس أن تدمر ذلك أبدًا.

الفصل الخامس عشر

-وقعت في حبها؟!

ابتسم عدي، والتفت برأسه إلى الطبيب الشاب قائلا:-

-كلا، لم يكن حبًا في ذلك الوقت.

أردف بعدما ارتشف من فنجان القهوة أمامه:-

-لقد كان إعجابًا، عيني الخبيرة استطاعت أن تلمح اختلافها عن غيرها من أقرانها.

ابتسم وقال بنبرة مرحة:-

-بالأخذ في الاعتبار ما فعلته بك في أول لقاء.

قهقه عدي في مرح ثم ارتسمت ابتسامة هادئة على ثغره وقال:-

-لقد كان مُقدرًا لنا أن نلتقي هكذا حتى تحفر مكانًا لها في ذهني ونستطيع الوصول إلى هنا معًا.

تساءل الطبيب بفضول:-

-كيف بدأ الأمر بينكما في الشركة بعد ذلك؟

ابتسم عدي، وبرقت عيناه عندما تذكر سير الأحداث بعد ذلك، والذي قد غير العديد من أفكاره..

***

-صباح الخير يا جميلة.

رفعت رأسها لتتلاقى عيناها مع نظرات عدي السعيدة وابتسامته المبتهجة لم تكلف نفسها لتجيبه ونظرت مرة أخرى إلى الورق أمامها بينما تتساءل في هدوء:-

-هل أبلغ بشمهندس أدهم إنك تريده؟

لم يبدو أن تجاهلها أثر به فقد استند على حافة مكتبها في ثقة وتساءل:-

-ما رأيك أن نتناول الغذاء معًا في الاستراحة اليوم؟

تجاهلته تمامًا بتعابير باردة ولكن سرعان ما تمزق برودها عندما اقترب بوجهه منها مما دفعها إلى أن تبتعد سريعًا في فزع بينما تسللت الحمرة فوق وجنتيها، ولكنه تجاهل ذلك وقال بحيرة بينما يتأملها في تمعن:-

-تبدين مختلفة عن المرة السابقة في لقائنا الأول.

لا بد وأن مشاعر الألم قد ظهرت بوضوح على وجهها فقد أردف بنبرة دافئة:-

-يبدو أن الفترة السابقة لم تكن جيدة تمامًا لكِ.

لم تجيب ولم يرد أن يضغط عليها لذلك فقد قال مبتسمًا:-

-أراكِ في غرفة الطعام يا جميلة.

غادر بدون أن يترك لها مجالا لتجيب، ظلت تتأمل أثاره بعدم فهم فلم يكن لقائهما الأول بهذه الروعة حتى يتصرف بتلك الطريقة معها كأنه شديد السعادة للقائها، وكأنهما صديقان قديمان تم جمع شملهما، لماذا يتصرف بذلك اللطف الغريب؟!

زفرت في ضيق ثم عادت إلى عملها وقد عقدت العزم على الاستمرار في تجاهله مهما فعل فهي لا تريد أي تعامل مع أحد وبالأخص شاب عابث مثله..

***

وقفت أميرة في المطبخ مستغلة وقت فراغها في تحضير الكعكة حتى تهديها لحبها الأول والأخير، كانت تقرأ الوصفة وتنفذ ما هو مكتوب في حماس بالغ بدون أن تلاحظ ذلك الذي يقف يتأملها بنظرات تملأها الشهوة الخالصة اقترب منها بخطوات بطيئة وكأنه تناسى كل شيء إلا وجودها أمامه.

-ماذا تفعل في المطبخ يا خالد؟

تجمد في مكانه عندما ارتفع ذلك الصوت من خلفه مما دفع أميرة إلى الالتفات أيضًا لتجد كلا من خالد ومحمد.

نظر محمد إلى خالد في انتظار إجابته فقال خالد في ارتباك:-

-لقد أصابني الظمأ، ولذلك...

قال محمد بينما يرمقه بنظرات متفحصة:-

-يمكنك الذهاب وسوف أرسل لك أحد الخدم بالماء.

أومأ خالد وغادر سريعًا كأنها كانت فرصة وقد انتهزها، لحق به محمد بينما أميرة فقد ظلت في مكانها لا تفهم حقيقةً ما حدث وسبب ذلك التوتر الذي شعرت به في الجو بين كلٍ من عميها، حركت كتفها في عدم مبالاة وتابعت ما كانت تفعله حتى تستعد لمنح أدهم هدية عيد مولده اليوم.

***

تنهدت شيماء بتعب وقد بدأت تفقد الشعور بأصابعها فهي لم تتوقف لحظة عن إدخال تلك البيانات على الحاسوب منذ الصباح الباكر.

توقفت عن المتابعة ما أن تسلل إليها صوت خطوات قادمة، رفعت رأسها تتأمل تلك الشابة الصغيرة، التي تساءلت بابتسامة مهذبة على ثغرها:-

-أرغب في لقاء أدهم من فضلك، هل هو متفرغ الآن؟

تعجبت من تلفظها لاسم رئيسها الفظ مجردًا بدون أي ألقاب، وقالت بهدوء بينما ترفع سماعة الهاتف بجوارها:-

-سوف أبلغه بوجودكِ، لكن ما الاسم الذي أخبره إياه؟

-أميرة ابنة عمه.

أومأت شيماء، ولكن ظلت يدها التي تحمل السماعة معلقة في الهواء عندما صاحت أميرة بتوتر:-

-انتظري قليلا من فضلكِ.

تركت سماعة الهاتف، وأومأت في صمت تراقبها بينما تتنفس بعمق، وتفرك كفيها معًا في توتر، والقلق في عينيها الجميلتين، حتى التفتت إليها أخيرًا وقالت بعدم ثقة:-

-أبلغيه الآن من فضلكِ.

لم تكن من النوع الفضولي فلم تستفسر عن سبب ذلك التوتر الذي يكتنفها، واكتفت فقط بتنفيذ الاتصال..لم تستطيع منع تلك القشعريرة التي دبت في جسدها ما أن سمعت صوته شديد البرودة.

-آنسة أميرة ترغب في لقائك يا بشمهندس.

ارتفع صياحه يكاد يصم الأذان موبخًا ومهينًا قائلا:-

-كيف تدعيها تقف في الخارج، هل...

قاطعته قائلة بنبرات حانقة:-

-لم يسبق أن أخبرتني بقائمة الأشخاص المسموح لهم بالدخول إلى المكتب دون إذن؟!

استطاعت أن تسمع تلاحق أنفاسه في غضب، لتدرك إنها قد تجاوزت حدًا لم يكن عليها تجاوزه، ولكنها فقط اكتفت من تلك الإهانات التي يلقيها بسخاء وكأنه يملك العالم بأكمله.

انتفضت عندما أغلق الهاتف بعنف، وضعت السماعة مكانها ثم رفعت عينيها بخجل إلى أميرة والتي لا بد من أنها قد سمعت توبيخه لها، حاولت أن تتصرف بعملية وقالت:-

-إنه في انتظاركِ.

أومأت بابتسامة لطيفة حتى لا تحرجها، وبداخلها استنكار لتصرفات أدهم مع مساعدته لكنه لم يكن وقتًا مناسبًا للتحدث بذلك الشأن، فما أن وطأت قدميها داخل المكتب حتى سيطر التوتر عليها مجددًا، اخفت كفها المرتجف بين ثنايا فستانها.

ابتسم أدهم ما أن دلفت إلى داخل مكتبه لتتسارع دقات قلبها، وتعبر عيناها عن مشاعرها في خجل.

قال بحنان:-

-لقد أنرتي مكتبي يا ابنة العم الصغيرة، تفضلي بالجلوس.

اتخذت مقعدًا أمام مكتبه ليقول بينما يرفع سماعة الهاتف الداخلية قائلا:-

-أي شراب تفضلين؟

رفضت في خجل، ولكنه أصر لتقول بحياء:-

-أي شيء.

ابتسم قائلا:-

-حسنًا سوف أطلب لكِ مشروبًا على ذوقي.

لم تنتبه لحديثه مع عامل الكافتيريا، فقط ذهنها شارد في ترتيب الكلمات التي جاءت لقولها، وعقلها يعقد آلاف السيناريوهات تتخيل رد فعله.

انتفضت ما أن شعرت بتلك اللمسة الخفيفة على كتفها، رفعت رأسها لتتلاقى نظراتها مع نظراته القلقة، ابتسمت بتوتر لم يبدد قلقه فأتخذ مكانًا في المقعد المقابل لها وتساءل بنبرة قلقة:-

-هل أنتِ بخير يا صغيرة؟

أومأت بارتباك ثم قالت وابتسامة خجولة على شفتيها:-

-كل عام وأنت بخير.

ابتسم وأرجع شعره إلى الوراء بعفوية قائلا بمرح:-

-لا أحد يتذكر عيد مولدي مثلكِ يا صغيرة.

ابتسمت بخجل وتوردت وجنتاها بينما تخرج من حقيبة يدها تلك الهدية التي أعدتها من أجله، أعطته إياها في خجل لتتسع ابتسامته ويقول بلطف:-

-لقد تكبدتي العناء حقًا من أجلي.

قررت أنها إن لم تتحدث الآن سوف تحكم على نفسها بالصمت الأبدي لذلك فقد استجمعت شجاعتها وقالت بصدق بينما تتلاقى نظراتهما:-

-لم يكن عناءًا بل كانت متعة وبهجة لا مثيل لها أن أعد هدية من أجل...

صمتت قليلا ثم أردفت أمام نظراته الحائرة:-

-من أجل الرجل الذي أعشقه.

الذهول في نظراته كان صفعة قوية لمشاعرها، وكأنه لم يتوقع أبدًا إنها قد تمتلك مثل تلك العواطف، كان من الممكن أن تتحمل ذهوله ولكن تلك الشفقة الممزوجة بالحنان وكأنه يشاهد طفلة لم تستطع تحملها.

قبل أن ينطق بحرف أسرعت قائلة بتوسل:-

-لا تتحدث الآن أرجوك، فقط دعني أتابع...

نهضت من مكانها وتحركت بعشوائية في الغرفة تتحدث بمشاعر صادقة:-

-لقد كنت بطلي منذ الصغر، وبدأت تلك المشاعر الطفولية مع الوقت تتطور حتى وصلت إلى ذلك الحب الذي أحمله لك الآن، في كل مرة يحاول أي شاب التحدث معي كنت أعقد المقارنات بينكما فتكون كفته هي الخاسرة من قبل أن تبدأ المقارنة حتى.

ظل صامتًا مطأطأ الرأس لتردف بارتباك:-

-قل شيئًا.

رفع رأسه إليها متنهدًا ثم قال ببطء وكأنه يدرس كلماته جيدًا قبل نطقها:-

-أميرة، أنتِ شابة للغاية، وما زال العمر أمامكِ لتكتشفين المعنى الحقيقي للحب، ما تشعرين به تجاهي ما هو إلا...

فاجأته بأن قاطعته بنبرة حادة تختلف عن طباعها اللطيفة:-

-لا تفعل! لا بأس إذا كنت لا ترغب في تقبل مشاعري تجاهك، ولكن على الأقل لا تقلل منها.

التفتت تغادر في نفس اللحظة دلفت شيماء حاملة كوب من عصير البرتقال، ابتسمت أميرة وحملت الكأس ارتشفت منه تتذوقه بحذر ثم ابتسمت بسخرية وكأنها كانت تعرف ثم قالت بدون أن تلتفت إليه:-

-الجميع يعلم أن لدي حساسية تجاه البرتقال يا ابن العم.

غادرت بخطوات واثقة تحافظ على المتبقي من كرامتها، وما أن أصبحت في المصعد حتى تبخرت تلك القوة واغرورقت عيناها بالعبرات وارتجفت ثغرها.

لقد خسرت كلاهما في لحظة واحدة فلم تعد تستطيع أن تتعامل معه كابن عمها العزيز بعد الآن، ولم تكسبه كحبيب أيضًا، لا بد إنها أكثر المعارك خسارة التي قد تخوضها يومًا.

قاد السائق بها عائدًا إلى المنزل، بينما هي فقد اتخذت المقعد الخلفي وحيدة مع أحزانها، لقد كان الألم لا يُطاق وكأن قطعة زجاج ضخمة مغروسة في صدرها ويستمرون في تحريكها لتنزف أكثر وتتألم....

ما أن وصلت إلى منزلها حتى صعدت إلى غرفتها بدون أن تلقي التحية على جدتها كعادتها، وفي أمان غرفتها انهمرت عبراتها بألم على وجنتيها وبدأت

شهقاتها الباكية في الارتفاع حتى دفعها البكاء إلى النوم بإرهاق بالغ، وقد أصبح اليوم ذكرى لا تنسى لها حيث انكسر قلبها للمرة الأولى.

***

غادرت شيماء مقعدها في إرهاق وزفرت في ارتياح عندما حان موعد استراحة الغذاء أخيرًا، وقد شعرت بمعدتها المسكينة تطالب بالطعام.

توقفت فجأة قبل أن تغادر المكتب وظهر على وجهها الضيق عندما تذكرت عدي ووعده أن ينتظرها ليتناولا الغذاء معًا.

عادت إلى مكتبها مرة أخرى والغضب ينتابها تجاه عدي الذي بسببه سوف تتجاوز وجبتها في سبيل تجاهله.

التقطت الورق الموضوع أمامها وبدأت تعود إلى العمل مرة أخرى حتى تنشغل عن الجوع الذي يفرض نفسه على حواسها.

لم تشعر بمرور الوقت إلا بعودة أدهم إلى مكتبه مرة أخرى وقد بدا منشغل الذهن للغاية، نظر إليها برهة في صمت مما أثار دهشتها وارتباكها ثم دلف إلى مكتبه.

رفعت كتفها في تعجب ثم عادت إلى عملها بينما أدهم فقد كان يفكر في سبب سؤال عدي عن شيماء في استراحة الغذاء، زفر في ضيق..أن تلك الفتاة تفوق كل توقعاته فلم يمر إلا يومين على عمل عدي هنا واستطاعت أن تنسج حبالها جيدًا من حوله.

بدأت أصابعه في أحداث دقات رتيبة فوق المكتب في حركة معتادة منه عند التفكير..يجب أن يبعدها عن عدي فذلك الأخير شديد العناد مما يجعل تلك المهمة صعبة للغاية ويبدو أن شيماء أصبحت هدفه الجديد.

استرخى في مقعده في تعب بالغ فاليوم لم يكن محظوظًا للغاية، تذكر الحزن على ملامح أميرة مرغمًا عندما كسر قلبها، حاول أن يبرر لنفسه بأنه لم يملك خيارًا آخر وإن ما فعله في صالحها متجاهلا ذلك الصوت المزعج بداخله الذي يصرخ إنه سوف يندم لاحقًا!

***

اتجه محمد الحداد إلى سيارته وقد بدا التفكير العميق على ملامحه فقد كان أكثر ما يشغله في تلك اللحظة ابنه "أدهم"، والذي كان شديد التغير منذ بضعة أيام يتغيب عن المنزل ولا يعود إلا في أوقات متأخرة متحججًا بالعمل مما يثير قلقه، لا يريده أن يكرس حياته من أجل العمل فقط.

هز رأسه في تحية صامتة مع ترحيب الموظفين ممن اتعرفوا عليه ثم اتجه إلى مكتب أدهم مباشرة، لم يلمح وجه المساعدة والتي بدت منهمكة في عملها فقال بصوت رخيم:-

-هل أدهم في الداخل؟

جحظت عيناه بشدة عندما رفعت رأسها ولم يكن شعورها مختلفًا عنه فقد شحب وجهها بشدة عندما تعرفت عليه، وتعلقت نظراتها به في عدم تصديق ثم نهضت ببطء بينما محمد فقد صاح في ثورة بالغة:-

-ماذا تفعلين هنا؟!

خرج أدهم من مكتبه عندما سمع صوت والده، وقف مكانه عندما وجدهما أمامه والغضب يبدو على وجه والده.

تمتم أدهم:-

-أبي!

التفت محمد إلى أدهم وتساءل في غضب:-

-ماذا تفعل تلك الحثالة هنا يا أدهم؟

جذب أدهم أباه منعًا للفضائح وقال في تعجل:-

-لنتحدث في مكتبي يا أبي.

نظرت شيماء في عدم تصديق إلى أدهم ورددت:-

-أبي!

صمتت في ذهول قليلا ثم انفجرت ضاحكة في هيستيرية وكأنها قد جنت تمامًا أمام نظراتهما التي تمزج ما بين الحيرة والكراهية حتى هدأت قليلا وقالت:-

-لقد عرفت أخيرًا سر تعاملك معي بذلك الأسلوب الحقير.

أردفت في استهزاء بينما ترمق محمد في احتقار:-

- الابن سر أبيه وعمه، أليس كذلك؟

قال أدهم في شراسة:-

-لقد استحققتي ذلك، للأسف لم يمنحني القدر فرصة أطول لأجعلكِ تعرفين ثمن التعرض لفرد من عائلة الحداد!

قال محمد في احتقار:-

-والآن فلتغادري هذه الشركة والأفضل ألا أراكِ أبدًا.

تأملتهم مشدوهة لا تصدق ما سمعته، أهي ألعوبة إلى تلك الدرجة؟!

لم يكفيهم ما فعلوه بها في السابق، أحرام حصولها على فرصة لحياة أفضل؟!

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تنقل نظراتها بينهما ثم التقطت أشيائها وغادرت بدون أن تلتفت إلى أحد، وما أن وصلت إلى الشارع حتى أخرجت هاتفها وبكف مرتجف هاتفت مراد، قالت بنبرة جامدة تخلو من أي مشاعر واضحة:-

-أنا أمام الشركة، هل يمكنك المجيء لاصطحابي؟

أنهت المكالمة بدون أن تهتم بتساؤلاته التي انهالت عليها، فلم تكن في حالة تسمح لها بالحديث.

ظلت واقفة في مكانها تترنح قليلا تحت وطأة الألم، لم ترفع كفًا لحماية وجهها من الشمس الحارقة المنعكسة عليه. تنظر أمامها بذهن شارد وتعذب نفسها بعدم السماح لتلك العبرات في عينيها من التحرر مرة أخرى، لا تتوقف الأفكار عن التجول في ذهنها وقد اتضحت في انقباضات يدها اللاشعورية بين الحين والآخر.

وصل مراد ليجدها على تلك الحالة فأسرع إليها يتأمل وجهها الشاحب وملامحها الجامدة، وقبل أن يستفهم منها فقط رفعت كفها في صمت وتحركت أمامه تجاه السيارة، أدرك أن أيًا كان ما أصابها فهو أمر في غاية السوء.

احتفظت بصمتها طيلة الطريق.. لا تفهم لم هي الوحيدة التي يحدث معها هذا؟!

لقد كانت صابرة، تتحمل إهانات أدهم الغير منتهية، فقط من أجل ذلك الحلم الأحمق الذي يراودها في أن تحصل على حياة ملكًا لها.

ترجلت من السيارة في صمت بدون أن تهتم أيتبعها مراد أم لا، وما أن دلفت إلى داخل المنزل حتى استقبلتها شهد التي سرعان ما شحب وجهها عندما وجدتها على تلك الحالة.

تساءلت في قلق بينما تتبادل النظرات مع مراد الواقف خلف شيماء:-

-ماذا حدث يا شيماء، هل ضايقكِ أحد؟

رددت بسخرية مريرة:-

-ضايقني أحد!

انهمرت دموعها ببطء وهي تصيح:-

-إلى متى سوف يستمر هذا، هل أنا حقًا حثالة لكي يتم معاملتي هكذا؟ وكأني لا شيء...مجرد لا شيء

تحطمت الأرض أسفل قدميها لتسقط على ركبتيها تنتحب وتصرخ قائلة:-

-لماذا يفعلوا بي هذا، لماذا لا أحصل على حياة كبقية الفتيات، لماذا كل بداية لعينة جيدة لي يظهروا لتدميرها، لماذا أنا؟

رفعت أعينها إليهما ومدت كفيها الضارعتين إليهما متسائلة بألم:-

-لماذا أنا دونًا عن بقية الفتيات؟!

لم يعرفا كيف يواسياها وهي على تلك الحالة من الانهيار، انهمرت دموع شهد في صمت بينما مراد فقد تمزق قلبه حزنًا عليها، ورغب في معرفة السبب الذي جعلها على تلك الحالة وتسبب في انهيارها.

صرخت بعنف عندما وجدت الصمت ردهما:-

-فلتجيبوا، ما الفرق بيني وبين بقية الفتيات حتى يحصل لي هذا؟

أنَّت في ألم وهي تحتضن جسدها وتبكي بحرقة بينما شهقاتها تمزق نياط القلوب، احتضنتها شهد بقوة تشاركها دموعها بينما ضم مراد قبضته في عجز ومزيج من الغضب والحزن يرتسمان على ملامحه.

الفصل السادس عشر

-هل أنتِ بخير الآن؟

تساءلت شهد في قلق بعدما هدأ نحيب شيماء أخيرًا.

رفعت عينيها الملطختان بالحمرة وأومأت في صمت رغم أنها قد بدت بعيدة تمامًا عن تعريف كلمة بخير.

نهضت في صمت وقالت في صوت أجش:-

-سوف أذهب إلى غرفتي.

لم تنتظر ردهما واتجهت فقط إلى غرفتها بينما تبادل كلا من شهد ومراد النظرات في قلق فقد بدت محطمة للغاية ولم يعرفوا السبب بعد.

نهض مراد وقد بدي على ملامحه القلق الشديد وقال:-

-إذا تحدثت إليكِ عما حدث هاتفيني.

-حسنًا.

أردف في ترجي:-

-اعتني بها أرجوكِ.

أجابت في صدق:-

-لا تقلق أبدًا.

أومأ والامتنان في نظراته ثم غادر تاركًا شهد تنظر إلى باب غرفة شيماء المغلق والقلق في نظراتها، فقد مزق بكاء شيماء السابق قلبها وبدأت الظنون تراودها فقد كان انهيارها مشابهًا لحالتها في ذلك اليوم الذي رأتها به في المشفى.

تنهدت بينما تجلس على الأريكة بدون أن تبعد نظراتها عن باب غرفة شيماء تنتظرها حتى تخرج وتستطيع التحدث معها.

***

اجتمع الجميع في منزل الحداد حول مائدة العشاء؛ سارة شاردة شاحبة تعبث بطعامها بدون أن تأكل حقيقة ترمقها والدتها بحزن بينما مريم فلم تبعد نظراتها عن أميرة والتي قد بدت هادئة لدرجة أثارت قلقها تشعر بأنها تخفي شيئًا عنها.

تساءل عدي فجأة ممزقًا حدة الصمت:-

-لقد مررت على مكتبك اليوم يا أدهم، ولكن على غير العادة لم أجد مساعدتك ماذا حدث؟

تأمله أدهم في صمت ثم تساءل بحدة:-

-ولماذا أنت مهتم؟

تفاجأ عدي بحدة أدهم ولكنه قال:-

-لقد رغبت فقط في أن ألفت نظرك إلى تقصيرها.

أجاب بعدم مبالاة:-

-لم تعد تعمل في الشركة منذ اليوم، ومساعدتي القديمة سوف تعود إلى العمل من الغد.

تساءل عدي في لهفة لم يستطيع منعها:-

-لماذا؟!

صاح محمد وقد أصابه الغضب من تساؤلات عدي:-

-لا أريد أن أسمع عن تلك الفتاة في هذا المنزل أبدًا.

لم يفهم عدي سبب حدتهما وكاد أن يتكلم لكن نظرة والدته المتوسلة له لكي يصمت منعًا لحدوث أي مشكلة جعلته يتوقف..لكن تلك النظرة التي اعتلت وجهه كانت مخيفة لأدهم الذي يدرك جيدًا طباع ابن عمه وقد أيقن أنه لن يترك ذلك الأمر بدون أن يعرف الحقيقة.

تبادل النظرات مع والده والذي كان تفكيره مشابه له لكن لم يملك كلاهما إلا ترك الأمر على أمل ألا يتسبب عدي في أي مشاكل مدركين جيدًا إنهما إذا أخبرا عدي بالحقيقة سوف يثير المتاعب مع عمه خاصة أن علاقتهما متوترة دائمًا.

***

تململ عدي في فراشه ثم اعتدل جالسًا وقد فقد الأمل في أن يستطيع النوم ومرغمًا بدأ بفكر في شيماء وسبب تركها للعمل...باءت كل محاولاته في استدراج أدهم في الحديث بالفشل فلم يحصل إلا على رد مقتضب يوحي بأن السبب هو أخلاق شيماء، وبرغم ثقته المطلقة في ابن عمه إلا أنه لم يستطيع تصديقه هذه المرة..ربما يرجع السبب في ذلك إلى خبرته في التعامل مع الفتيات، فقد تعرف على الكثير حتى يمكنه التمييز بينهن، تذكر لقائه الأول مع شيماء فإذا كانت أخلاقها سيئة فلماذا لم تستجيب له في ذلك اليوم؟!

قطب جبينه بينما يفكر هل الأمر مجرد سوء فهم وقد تورط به عمه محمد مما جعل أدهم يطردها؟!

تمتم في يأس:-

-اللعنة على ذلك، أنا لا أعرف حقًا ما السبب الذي يجعلني أفكر في ذلك، لماذا لا استمع لكلامهما فقط وأبعدها عن ذهني؟!

أتخذ وضعية النوم وزفر في ضيق مدركًا أنه لن يترك الأمر وغدًا سوف يبدأ في التنقيب بحثًا عن تفسير.

لوى فمه في سخرية يبدو أنه أصبح من عاداته ملاحقة المتاعب في شغفٍ بالغٍ.

***

-صباح الخير

انتفض الموظف عندما تعرف عليه وقال في احترام:-

-صباح الخير.

ابتسم عدي وقال:-

-أرغب في معرفة بعض التفاصيل الشخصية من ملف إحدى الموظفات هنا.

توترت ملامح الموظف وتساءل في قلق:-

-هل هناك أي مشكلة؟!

قال عدي في جدية مزيفة:-

-هناك بعض الإجراءات القانونية التي أنا بحاجة إلى مناقشتها معها خاصة بعد أن تركت العمل.

أومأ الموظف في تفهم والتفت إلى حاسوبه ثم تساءل:-

-ما اسمها؟

-شيماء، لقد كانت مساعدة أدهم الشخصية.

نقر على بعض المفاتيح ثم ظهرت على ملامحه الحيرة بشكل لاحظه عدي فتساءل:-

-هل هناك شيء خاطئ؟

تلعثم الموظف قائلا:-

-إنه فقط...

قاطعه عدي بأن تقدم ونظر إلى شاشة الحاسوب واتسعت حدقتيه عندما وجد أن نتيجة البحث عن اسم شيماء في سجلات الموظفين لم تظفر عن أي نتيجة.

قال عدي في جدية:-

-هل بإمكانك النظر إلى سجلات المتدربين؟

بدأ الموظف في البحث لتظهر الحيرة على وجه عدي عندما لم تظهر أي نتيجة أيضًا.

أمام نظرات الموظف الحائرة لم يملك إلا أن يبتسم قائلا:-

-ربما أخطأت في تذكر الاسم.

ما أن غادر المكتب حتى اعتلى وجهه الضيق وقد بدأت الظنون تراوده، ما السبب الذي قد يدفع أدهم لحذف سجلات موظفة سابقة لديه؟!

ظهر الإصرار على ملامحه بينما يغادر الشركة فتلك الجهود التي يبذلونها لمنعه لم تزيده إلا إصرارا لكي يلاحقها ويعرف السبب لتركها الشركة وما سر سوء الفهم بينها وبين أدهم؟

ركب سيارته وابتسم ابتسامة رجل يعرف جيدًا كيف يصل إلى ما يريده، قاد السيارة إلى تلك الوجهة التي لن يستطيع حتى أدهم الحداد بنفوذه أن يحذف معلومات شيماء منها بل إن الاحتمال الأكبر إنه لا يعرف بوجودها حتى..

لم تمر دقائق حتى توقفت سيارته أمام المركز التجاري حيث التقى بشيماء أول مرة، وبدأ في البحث عن ذلك المتجر الذي كانت تعمل به وبرغم صعوبة التذكر إلا إنه استطاع إيجاده، وباستخدام سحره، والذي يبدو أنه يعمل على كل امرأة من جنس حواء ماعدا المعنية بالأمر، استطاع أخيرًا التوصل إلى رقم هاتفها ولكنهن لم يعرفن عنوان منزلها.

كان سعيدًا لأنه استطاع الحصول على رقم هاتفها، ولكن تلك الزيارة أثارت المزيد من التساؤلات وعلامات الاستفهام من حول شيماء وقد أخبرته البائعة إنها لم تعود إلى العمل منذ ذلك اليوم الذي شهد أول لقاء لهما، وإن علاقتها بالجميع محدودة حيث كانت لا تندمج مع أي واحدة منهن وبالتالي لم يتواصل أي منهن معها بعد ذلك اليوم وقد اعتقدن أنها فقدت اهتمامها بالعمل خاصة عندما لم تجيب على اتصالات صاحبة المحل.

يبدو أن هدفه الحالي سوف يكون كشف غموضها مهما تتطلب الأمر، وكذلك فقد مضى بسيارته والإصرار على ملامحه غير مبالٍ بالنتائج والتي ربما لن تكون جميعها في صالحه.

ارتفع رنين هاتفه ينتزعه من أفكاره لوى فمه في سخرية ما أن وجده أدهم، أوقف السيارة على جانب الطريق ثم أجاب ليأتيه صوت أدهم متسائلا بدون مقدمات:-

-أين أنت؟

أجاب في جدية:-

-لقد شعرت بالتعب فغادرت، هل حدث شيء؟

خيم الصمت قليلا ثم قال أدهم أخيرًا:-

-لا شيء، لقد قلقت عليك.

ثم أردف بينما ينهي المحادثة:-

-حسنًا، إلى اللقاء.

ما أن أغلق أدهم مع عدي حتى بدا على ملامحه التفكير العميق ثم التفت إلى الرجل الجالس أمامه وتساءل:-

-إذًا من كان الشخص الذي يبحث عن معلوماته في السجلات؟

أجاب الموظف في ارتباك واضح:-

-فتاة تدعى شيماء، لقد قال ابن عم حضرتك إنها كانت تعمل مساعدة شخصية لك.

أردف في توتر:-

-لكني لم أجدها في السجلات، وأردت التأكد من اسمها من حضرتك حتى أستطيع المساعدة.

أومأ أدهم في شرود ثم قال وابتسامة مزيفة تعتلي وجهه:-

-لا داعي لذلك لقد تم حل الأمر.

أومأ في ارتباك ثم غادر المكتب تاركًا أدهم وقد ظهر التفكير العميق على ملامحه بينما الأفكار تتصارع في عشوائية بالغة داخل عقله.

كان يدرك أنه يجب أن يبعد عدي عن تلك المدعوة شيماء مهما حدث ومها اضطر أن يفعل، فلن يسمح لابن عمه أن يسقط في فخها.

***

نظر عدي إلى الرقم المسجل على هاتفه وكأنه يحفره في ذاكرته، بدا عليه التردد لوهلة خاصة إنه لا يعرف حقًا السبب الذي يدفعه إلى فعل هذا ثم حسم أمره فجأة وضغط على زر الاتصال ومع كل رنين كان يتزايد توتره فهو حتى لا يعرف ما الذي سوف يقوله..

توقف الرنين فجأة ومعه بلغت دقات قلبه عنان السماء، أجابت بصوت مختنق وكأنها كانت تبكي:-

-أجل..

صمت برهة ثم قال:-

-شيماء!

استطاع سماع صوت أنفاسها المتوترة ثم أجابت بحذر:-

-من يتكلم؟!

-أنا عدي، عدي الحداد.

الخطأ الأول الذي ارتكبه حقًا هو ذكر اسمه كاملا ولم يدرك فداحة ما اقترفه إلا عندما صاحت في غضب شديد وانهيار واضح:-

-اللعنة عليكم يا عائلة الحداد، ماذا تريدون مني؟

ارتبك بسبب رد فعلها العنيف والذي ضاعف من حيرته ثم أجاب:-

-أنا فقط أريد التحدث إليكِ، أنا...

صاحت في هيستيرية تقاطعه:-

-أنا لا أهتم حقًا ماذا تريد، أنا فقط لا أريد أن تقع عيناي على أي فرد منكم إلا عند زج أحدكم في السجن حينها سوف أشعر إني قد حصلت على حقي، وسوف استمتع كثيرًا في النظر إلى عين كل واحد منكم.

شحب وجهه كثيرًا من تلك المرارة التي تتضح في كل حرف تنطق به لكن لم يسمح لنفسه بالاستسلام وقال:-

-لقد أردت التحدث معكِ بصفتي محامي شركة مديرك السابق أدهم، نحن بحاجة للتحدث بشأن تركك للعمل بشكل مفاجئ.

لم يسمع إلا الصمت من الطرف الآخر وابتهل بداخله أن توافق على لقائه، ولكنها أجابت في فظاظة:-

-لقد تركت العمل وانتهى الأمر ماذا تريد الآن؟

-هناك بعض الأوراق التي تحتاج إلى توقيعكِ لتتجنبي أي مساءلة قانونية.

أدرك إنه استطاع إقناعها عندما أجابت في تردد:-

-حسنًا.

حاول أن يسيطر على حماسته بصعوبة وتساءل:-

-إذًا أرسلي العنوان لي حتى أحضر الأوراق إليكِ.

أجابت بنبرة حازمة:-

-سوف أرسل إليك عنوان مقهى نتقابل أمامه فتوقيع الأوراق لن يستغرق الكثير من الوقت.

كان واضحًا للغاية من إجابتها إنها لا تملك أي نية في أن يطول الحديث بينهما بأي طريقة كانت، وبرغم اعتراضه إلا إنه أجاب في سلاسة:-

-حسنًا، لنتقابل بعد الظهيرة إذًا، هل الثالثة تناسبكِ؟

-حسنًا.

أنهت المكالمة بدون أن تضيف شيئًا، ولم تمر دقائق حتى أرسلت له عنوان المقهى، تأمل العنوان قليلا لقد كان يعرف هذا المكان، تعجب من كونه بعيدًا عن مكان عملها القديم وفي مثل تلك المنطقة الراقية سرعان ما نفض عنه تلك الأفكار وارتسمت ابتسامة متحمسة على ثغره ثم قاد سيارته إلى المنزل حتى يستعد لذلك اللقاء جيدًا..

***

نظر إلى ساعة يده للمرة العاشرة في الدقائق الأخيرة، حاول أن يرتب كلامه وكيف سوف يسألها عن سبب عدائها الواضح تجاه أسرته والذي أوضحته في حديثها السابق.

تحمم وتظاهر بالبرود والجدية ما أن ظهرت أمامه، لاحظ وقوفها على بعد مسافة آمنة منه سمحت له بتأمل حمرة عينيها الواضحة وشحوب وجهها.

قالت في فظاظة:-

-أين الأوراق؟

ابتسم بخجل طفل في السابعة وقال:-

-ليس هناك أي أوراق، لقد أردت التحدث إليكِ فقط.

نظرت إليه بعدم تصديق ثم صاحت في غضب:-

-هل أنت مجنون؟!

قال في هدوء:-

-أنا فقط أريد أن أسمع منكِ..

أردف عندما وجد غضبها مازال مشتعلا:-

-أنا مهتم بكِ يا شيماء، لا أعرف السبب، ولكني حقًا أريد أن أعرفكِ أكثر.

صاحت في إرهاق واضح بينما تمسح على وجهها:-

-أنا أريد فقط أن تبتعدوا عني، لا أريد اهتمامك ذلك.

ابتعدت عنه بخطوات قليلة تنهي ذلك اللقاء لكنه هتف بصدق:-

-أنا لا أريد إيذائكِ، أنا فقط أريد مساعدتكِ والتعرف عليكِ أكثر.

التفتت إليه وعيناها قد اغرورقت بالعبرات قائلة في مرارة:-

-أنا لن أحتاج أبدًا إلى أي مساعدة من فرد من عائلة الحداد.

غادرت بدون أن تنتظر أي رد فلم تدرك إنها بذلك زادته تشبثًا بها وإصرارًا لكي يعرف أسرارها ويفك طلاسمها واحدًا تلو الآخر.

لم تلتفت إلى الوراء مرة أخرى بينما العبرات تنهمر ببطء فوق وجنتيها، التوى فمها في مرارة وغضب فعائلة الحداد لا تنفك تحاول هدم حياتها مرة تلو الأخرى.

هي على ثقة إنها لعبة أخرى بإرسالهم واحد منهم حتى يدعي طيبة القلب والاهتمام، ظهر الإصرار في نظراتها فهي لن تنخدع بهذا أبدًا.

قادتها خطواتها حتى توقفت أمام شاطئ البحر كان هائجًا كأنه انعكاس لحالتها، ابتسمت بسخرية فمع كل بداية جديدة تخطط لها تجد خطواتها تقودها إلى أقرب شاطئ وها هي قد عادت إلى نقطة الصفر مرة أخرى.

تنهدت بعمق تحاول أن تستجمع ذاتها المبعثرة وترتب أفكارها، وبرغم عشوائية تلك الأفكار إلا إنها كانت تدرك جيدًا الخطوة الأولى التي تحتاج إلى أن تقدم عليها، وهي البحث عن عمل مرة أخرى حتى تتجنب أن تكون عالة على أيًا من شهد أو مراد.

وقت طويل مر عليها بينما تقف أمام البحر شاردة عمن حولها وكأنها تعزل ذاتها عن العالم أجمع، وأخيرًا زفرت بعمق ثم غادرت وقد قررت أن تبدأ في البحث عن عمل وكانت أول قاعدة وضعتها لذاتها هي الابتعاد تمامًا عن الشركات.

بدأت طريقها مرة أخرى في إصرار مع القليل من الخوف من أن تقترب نهاية تلك البداية أقرب مما تتوقع.

***

بعد يوم طويل شديد الإرهاق آخر والسير لفترات طويلة بحثًا عن عمل بدون جدوى عادت شيماء إلى المنزل وقد أثقلتها خيبة الأمل، وما أن دخلت المنزل حتى استقبلتها شهد في قلق وتساءلت:-

-أين كنتِ يا شيماء لقد قلقت عليكِ عندما لم أجدك في المنزل بعد عودتي؟

شعرت بالذنب لإثارة قلقها وأجابت في صدق:-

-أعتذر حقًا على إثارة قلقكِ.

تنهدت شهد في ارتياح ثم قالت:-

-المهم إنكِ بخير.

ابتسمت شيماء بضعف وقالت:-

-أنا بخير، لا تقلقي.

جلست شيماء على الأريكة بينما شهد فقد تأملتها قليلا وكأنها تمتحن صدقها وسرعان ما اطمأنت قليلا وجلست بجوارها قائلة في حزن:-

-يجب أن أذهب إلى منزل عائلتي غدًا.

تساءلت في قلق:-

-هل حدث شيء ما؟

قالت شهد بنبرة حزينة:-

-سارة حالتها النفسية متدهورة، وأعتقد أنها بحاجتي.

أومأت شيماء في تفهم وقد ظهر الأسى عليها عند تذكرها لشقيقة شهد الصغرى وما عانت منه، ربما هي أكثر شخص يتفهم مأساتها جيدًا، وقد كان ذلك ما تفكر به شهد أيضًا فقد التفتت إليها في حماس قائلة:-

-لماذا لا تأتين معي لقضاء الإجازة مع عائلتي؟!

ظهرت الدهشة على ملامحها بسبب ذلك الاقتراح الغير متوقع ثم قالت:-

-لا يمكن، استمتعي بعطلتك مع أسرتك، وأنا سوف أكون هنا حتى عودتك.

رمقتها شهد بنظرات متوسلة وتناست تمامًا رغبتها في أن تخفي مستواها الاجتماعي عن شيماء، وقالت:-

-أرجوكِ سوف يكون الأمر ممتعًا أعدك بذلك كما إنها فرصة لكي أعرفك على عائلتي ثم..

صمتت برهة ثم أردفت:-

-إنها فرصة رائعة أيضًا لتتحدثي مع سارة ربما يمكنكِ أن ...

ترددت قليلا لكن شيماء رضخت وقد شعرت بالحنان تجاه سارة، وانتابتها الرغبة في مد يد العون إليها كما فعلت شهد معها سابقًا ولذلك فقد أومأت قائلة:-

-سوف آتي معكِ.

صاحت شهد في عدم تصديق:-

-حقًا؟!

أومأت شيماء لتتسع ابتسامة شهد وتقول بحماسة:-

-هذا رائع جدًا، هيا جهزي حقيبتكِ حتى نغادر في الصباح.

دفعتها حماسة شهد إلى الابتسام، وبدأت بالفعل في تجهيز بعض الملابس حتى تأخذها معها، وفي المساء عندما استرخت فوق فراشها أخيرًا بدأت تشعر بالقلق من مقابلة عائلة شهد؛ فبعد الحادث لم تحب التجمعات كثيرًا كما أنه يقلقها رد فعلهم تجاهها، هل سوف يتقبلونها؟!

***

أصابها الذهول وهي تقف أمام ذلك المنزل الضخم لقد كان قصرًا حقيقيًا، لم تستطع منع نفسها من الالتفات إلى شهد والتساؤل بتردد:-

-هل هذا منزلكِ حقًا؟

أومأت شهد واعتذار صامت في عينيها ثم قالت في حماسة:-

-هيا بنا إلى الداخل.

لحقت بها بعد لحظات من التردد بينما تضاعف قلقها وقد تعرق كفاها في توتر.

إذا كان المنزل من الخارج قصرًا فإنه من الداخل عبارة عن تحفة فنية كتلك المتاحف العريقة، لقد كان رائعًا فلم تستطع منع نفسها من تأمل ما حولها في ذهول حقيقي حتى انتبهت إلى صوت شهد تتساءل:-

-أين أمي والجميع؟

أجابت الخادمة في احترام:-

-مدام ناهد في غرفة آنسة سارة.

أومأت شهد ثم قالت بابتسامة بينما تشير إلى حقيبة شيماء الصغيرة:-

-ضعي حقيبتها في غرفة الضيوف.

التقطت الخادمة الحقيبة من شيماء التي ما زالت أسيرة في ذهولها، فهي لم تتوقع أبدًا أن تكون شهد بذلك الثراء وإلا ما كانت لتوافق على المجيء معها، ورغمًا عنها بدأت تشعر بالتدني مسدت على بلوزتها وشكرت الله إنها ارتدت التنورة الجديدة التي أحضرها لها مراد احتفالا بعملها الأول.

قالت شهد تنتزعها من ذلك التوتر:-

-هيا لكي أعرفكِ على والدتي وساره.

أومأت في ارتباك وقالت في توتر:-

-ربما من الأفضل أن أنتظركِ هنا.

-لا داعي لذلك كما إني أريدكِ أن تتعرفي على سارة..

أردفت في أمل:-

-ربما التحدث معكِ قد يمدها بالقوة.

لم تستطع أن ترفض وتبعتها بخطوات قلقة وقد منعها التوتر من إلقاء نظرة أخرى على المنزل، وما أن توقفت شهد أمام إحدى الغرف حتى تنفست شيماء بعمق..

طرقت شهد على الباب ثم دخلت، انتظرت ثواني ثم لحقت بها في خجل.

قالت شهد بعدما احتضنت أختها الصامتة وقبلت والدتها قبلة باردة معتادة:-

-شيماء صديقتي التي أخبرتكِ عنها سابقًا.

أومأت الأم في برود تتذكر تحذيرات ابنتها المتكررة قبل مجيئها بأن تعامل صديقتها معاملة جيدة، والآن أدركت سبب ذلك.. رمقت شيماء في عدم رضا من رأسها حتى أخمص قدميها لكن الأخيرة لم تلاحظها فقد كانت نظراتها معلقة بسارة التي كانت جالسة أمام نافذة غرفتها بدون أن تبدي أي رد فعل حتى عندما احتضنتها شقيقتها لم تتحرك أو تبادلها العناق، شعرت بالألم يكتنفها ما أن رأتها وتساءلت كيف سوف تتجاوز تلك الصغيرة الأمر؟!

لاحظت شهد نظراتها فقالت:-

-أمي، أريد أن أتحدث معكِ بالخارج.

قالت بعدم رضا:-

-لن أترك شقيقتكِ وحيدة.

قالت شهد بينما تجذبها إلى الخارج:-

-شيماء معها الآن، هيا إنه أمر هام يجب أن أخبركِ به.

غادرت على مضض بينما شهد فقد رمقت شقيقتها بحزن وتمنت أن يفيدها لقاء شيماء.

وقفت في مكانها برهة بدون أن تأتي بأي حركة فقط نظرت إلى سارة التي لم تبالي بالنظر إليها ثم اتجهت إلى الفراش وجلست على طرفه ولم تنظر إلى سارة التي توليها ظهرها..

شردت في الفراغ أمامها وقالت بنبرة هادئة وكأنها تحكي قصة شخص آخر برغم أن الجرح في صدرها مازال داميًا مؤلمًا:-

-لقد كان ضيف شقيقي، اقتحم غرفتي واغتصبني في وجوده بدون أن يحاول منعه حتى، عندما استجمعت قواي اتجهت رأسًا إلى القسم لأبلغ عنه..

لم تلاحظ إنها حازت على انتباهها أو إنها التفتت، وأردفت وابتسامة ساخرة على ثغرها:-

-لكن يبدو أني نسيت أن الحق لا ينتصر دائمًا، تقرير الطب الشرعي أثبت إنه ليس الجاني.

صمتت تبلل شفتيها في توتر بينما عينيها حملت الكثير من الحزن ثم استأنفت:-

-حينها لقد رغبت بشدة في الموت..ما جعلني قوية كان الرغبة في الحصول على العدالة، والله يعلم كم رغبت في تلك العدالة؛ العدالة لذاتي المنتهكة، لقد شعرت مرة أخرى بإني مدنسة مهانة مثل تلك الليلة التي لن أستطيع محوها من ذاكرتي مهما فعلت وستظل تظهر أمامي كلما أغلقت عيني..

رفعت رأسها وتلاقت نظراتهما لأول مرة ثم قالت وابتسامة حزينة تعتلي ثغرها:-

-لكني ما زلت على قيد الحياة اليوم أيضًا..ربما أنا أقوى مما توقعت، ففي كل مرة أعيد ترميم حياتي تصبح حطامًا مجددًا وحينها تراودني تلك الرغبة في سلوك الطريق السهل وأن استسلم لكن طبيعتي المقاتلة كانت تحثني على النهوض مرة أخرى فأنفض التراب عن حياتي المزرية وأقاتل مجددًا.

أردفت بينما تحرك كتفيها في قلة حيلة:-

-ربما سوف استمر في القتال طيلة حياتي لكن الاستسلام خطيئة وذنب لن أستطيع ارتكابه، نفسي لا تطاوعني على ارتكابه.

انهمرت دموعها ببطء ثم تعالت شهقاتها متألمة تمزق القلب، ولكنها كانت تدرك جيدا أن الألم بداخلها يفوق تلك القطرات وتلك الشهقات بل أن دموع العالم كله لن تداوي تلك الجراح أبدًا، ولذلك لم تملك إلا أن تحتضن تلك

الصغيرة وتشاركها دموعها في صمت تربت فوق كتفها وقد انعكس العجز في نظراتها أمام هذا العالم الذي ما زال يمارس سطوته عليهن.

بعد دقائق من النحيب ابتعدت عنها وحاولت الابتسام بضعف ثم قالت في صدق:-

-لن أخبركِ أنه سهلا؛ لأنه ليس كذلك ولكن أريدكِ أن تقاتلي من أجل حقكِ في الحياة، أرجوكِ افعلي هذا..

أومأت سارة في صمت وقد كان وجهها مبللًا من الدموع وأعينها حمراوتين لكن بدت على ملامحها علامات التفكير في كلماتها. ربتت شيماء فوق كتفها مرة أخرى في تشجيع ثم غادرت الغرفة تكفكف دموعها بكفها.

استندت على الحائط تلتقط أنفاسها وكأن التحدث عن تلك الليلة قد استنزفها، حاولت أن تستجمع قواها وتقدمت من إحدى الخادمات تستفهم منها عن مكان شهد.

اتجهت إلى الغرفة في الطابق الأرضي التي أشارت إليها، واستطاعت سماع أصوات رجولية تنبعث منها مما أشعرها بالخجل لكنها طرقت الباب في احترام ودلفت إلى داخل الغرفة لتقابلها شهد بابتسامة سعيدة قائلة:-

-تعالي يا شيماء لأعرفكِ على عمي وابن عمي الذي أخبرتكِ عنه سابقًا.

تقدمت شيماء وابتسامة مهذبة فوق ثغرها ثم توقفت فجأة وقد لاحظت ملامح الرجلين لأول مرة منذ دخولها إلى الغرفة، جحظت عيناها وتجمد كامل

جسدها بينما الابتسامة فقد انمحت من فوق ثغرها ببطء، رمقتهما في عدم تصديق ثم عادت بنظراتها إلى شهد المبتسمة والتي يبدو إنها لم تلاحظ أي شيء غريب.

الفصل السابع عشر

صاح محمد في غضب بالغ، وقد كان أول من تجاوز صدمته وذهوله:-

-ما الذي تفعله تلك الفتاة تحت سقف منزلي؟

ابتسمت شيماء بدون استمتاع حقيقي وقالت بقوة لم تعرف إنها تتحلى بها:-

-أتظن أني أريد حقًا البقاء في نفس المكان مع أحد من عائلتكم القذرة؟!

صاحت شهد في ذهول وصدمة:-

-شيماء!

-ما الذي تفعله تلك الفتاة هنا؟!

كرر محمد في غضب بالغ أفزع شهد مرة أخرى التي لم تتجاوز صدمتها من رد الفعل الغير متوقع لكلا الطرفين على هذا اللقاء، وتساءلت في حيرة:-

-ما الخطأ يا عمي؟!

رددت شيماء في هدوء ساخر:-

-عمكِ؟!

أومأت شهد بدون أن تفهم حقًا ما يحدث من حولها تنقل نظراتها بينهما في حيرة وعدم فهم.

لتبتسم شيماء بسخرية مريرة وأردفت في خيبة أمل:-

-لقد اعتدت التعرض للخداع، ولكنكِ أكثرهم صدمة لي.

تجاوزت حزنها وأردفت في احتقار واضح:-

-لكن هذا هو المتوقع من أفراد عائلة الحداد.

التفتت إلى العم تتساءل في سخرية بالغة:-

-أليس كذلك، أيها العم؟!

-شيماء!

التفتت إليها وصاحت فاقدة اتزانها:-

-لا أريد أن أسمع صوتكِ.. اللعنة علّي؛ لأني قد وثقت بكِ.

قال أدهم في احتقار بالغ:-

-فلتخرجي من ذلك المنزل، فمن المهين استضافة بائعة هوى مثلكِ هنا.

التوى ثغرها في استهجان وأجابت بدون أن يرف لها جفن:-

-أنت تعلم جيدًا من بائع الهوى هنا حقًا.

التفتت شيماء، وقبل أن تغادر رمقت شهد باحتقار يحتضن خيبة أمل بالغة لم تنجح في إخفائها..

ما أن التفتت حتى تواجهت مع عدي وفتاة أخرى تتذكر رؤيتها سابقًا فأسرعت راكضة خارج الغرفة والمنزل بأكمله كأنها لم تعد تحتمل تنفس نفس الهواء القذر الذي يتسلل إلى رئتيهم.

كانت أميرة تنظر إلى أدهم في ذهول وعدم تصديق، فكلماته كانت قاسية جدًا مع تلك الفتاة، وكأنه لم يكن أدهم الذي عرفته طيلة حياتها بينما عدي فقد تأملهم في عدم فهم ثم أسرع بدون وعي راكضًا خلف شيماء.

خيم صمت طويل في الغرفة بدون أن يجرؤ أحد على تمزيقه حتى قالت شهد وما زالت في حالة من الذهول وعدم الفهم:-

-لماذا فعلتوا ذلك؟!

صاح محمد في غضب بالغ:-

-كيف تسمحين لتلك الفتاة بالدخول إلى منزلنا، هل فقدتِ عقلكِ، ألا تعرفين كيف تختارين الأشخاص الذين تثقين بهم؟

تدخل أدهم عندما لاحظ شحوب وجه شهد قائلا:-

-لا داعي لمثل هذا الحديث الآن.

أردف في نبرة أكثر لينًا:-

-فلتعرفي فقط يا شهد أن تلك الفتاة ليست صالحة لتتخذيها صديقة أو تثقين بها.

قالت في إصرار:-

-لكنها صديقتي، أنا أثق بها.

تضاعف غضب محمد وغادر الغرفة بدون أن يلتفت إلى أي منهم بينما زفر أدهم في ضيق وقال قبل أن يترك الغرفة:-

-تلك الفتاة مجرد بائعة هوى ولن تحصلي إلا على العار بمصاحبتك لفتاة مثلها.

كانت الكلمات قاسية للغاية وبدون أن يفسر قصده غادر الغرفة تلحقه نظرات كلا من أميرة والتي تعرفت على وجه جديد لابن عمها، وجه شديد القبح والقسوة، وشهد التي ما زالت لم تفهم سر تلك العداوة بين عمها وشيماء وقد مزقتها نظرات تلك الأخيرة المليئة بخيبة الأمل.

وضاعف من ألمها إنها لا تعرف حقًا فيما أخطأت ليتم اتهامها بتلك الجريمة، التقطت هاتفها المحمول تحاول مهاتفة شيماء لعلها تفهم منها ما حدث لكن لم يكن الأمر ذي جدوى فقد تم تجاهل اتصالاتها، جلست على حافة الأريكة وبدأت الظنون تهاجمها هل يعرف عمها عن حادثة شيماء لذلك يتحدث بتلك الطريقة؟! شعور بالقلق راودها تجاه شيماء، ترى أين هي الآن؟

حاولت الاتصال مرة أخرى ولكن لم تتغير النتيجة فبدأت في إرسال الرسائل نصية لها تناشدها أن تجيب اتصالاتها وتطمئنها..

زفرت في إرهاق بالغ، مسدت جبينها وقد أصابها صداع نتيجة لتصادم الأفكار والتخمينات في رأسها بدون التوصل إلى سبب لذلك المشهد الذي لا تصدق حدوثه حتى الآن، ترى ما سر تلك الكراهية المتبادلة؟!

بعد دقائق من التفكير في يأس تذكرت الشخص الوحيد الذي بإمكانه أن يطمئنها على شيماء الآن، ولذلك فقد حسمت أمرها وهاتفت مراد...

***

-شيماء، انتظري أرجوكِ.

صاح عدي بينما يلحق بشيماء التي غادرت المنزل راكضة، لم تتوقف في بادئ الأمر ولكن عندما استمر في لحاقه بها التفتت إليه تكشف عن وجهها الباكي وصاحت في مزيج من الغضب والألم:-

-ماذا تريدون مني بعد ذلك؟ هل تريدوني جثة هامدة هل هذا هو هدفكم؟ اللعنة عليكم جميعًا.

وقف عاجزًا أمام ذلك الهجوم ثم قال في صدق:-

-أنا أريد فقط أن أطمئن عليكِ.

رفعت ذقنها في كبرياء وقالت في كراهية واضحة:-

-أنا لا أريد أي شيء من عائلتك القذرة حتى إنه من الأشرف لي الموت بدلا من قبول أي مساعدة منكم.

غادرت مرة أخرى تاركة إياه يشعر بمزيج من المشاعر أغلبها الذهول والغضب والأهم الرغبة في معرفة المزيد والمزيد خاصة عندما تذكر هجوم أدهم عليها بكلماته المهينة اللاذعة، فتلك النسخة من أدهم لم يراها من قبل أبدًا ولا بد أن هناك سبب قوي لتلك الكراهية.

نظر إلى شيماء بينما تركب تلك السيارة متسائلا عن هوية السائق ثم اتجه عائدًا إلى المنزل وقد ازداد إصرارًا في تنفيذ قراره بأن يجد الحقائق بنفسه..

***

بعد محاولة فاشلة لمهاتفة مراد بدون جدوى نجحت في المرة الثانية وقد أجاب مراد هامسًا وبدون أن يترك لها أي مجال للإجابة:-

-فلتشكري ربكِ إنكِ لستي أمامي وإلا فإن رد فعلي لن يعجبكِ أبدًا.

كانت صدمتها تتضاعف وقد تجمدت بدون أن تجرؤ حتى على التنفس خاصة عندما استطرد في شراسة:-

-وأخبري عائلتكِ القذرة أن تبتعد عنها وإلا...

لم يحتاج إلى المتابعة فقد كان التهديد في نبرته شديد الوضوح..كانت كلماته عنيفة إلى درجة إنها عجزت عن التخلص من صدمتها حتى بعدما أغلق الهاتف، لم تتحرك من مكانها فهو أيضًا يعتقد أنها خانت شيماء، ولكنها لم تفعل شيئًا حتى إنها لا تفهم ما السر وراء ما حدث وذلك الخلاف الناري والكراهية النقية بين عائلتها وبين شيماء.

نظرت إلى الهاتف في يأس شديد ووضعت رأسها بين راحتيها في عجز واضح، وما زالت الأفكار تدور في رأسها في عشوائية تقودها إلى الجنون.

نهضت في إصرار وقررت إجراء تلك المحادثة الآن مع أدهم فيجب أن تعرف سبب تلك المعاملة المهينة التي تعرضت لها صديقتها تحت سقف منزلها.

اتجهت بدون تردد إلى غرفة مكتب أدهم، ولكن قبل أن تقتحم الغرفة توقفت فجأة وجحظت عيناها عندما وصل إلى أذنها صوت أدهم يصيح:-

-لن أكرر كلامي يا عدي، أخبرتك أني قد طردت تلك الفتاة بمجرد أن أدركت مدى حقارتها، انتهى الأمر..

لم تسمع رد عدي فقط شهدت بعاصفة خروجه من الغرفة في غضب بالغ بينما هي فقد تلاقت نظراتها مع ابن عمها، كانت نظراتها مليئة بخيبة الأمل فما قاله ليس صحيحًا فشيماء ليست بفتاة سيئة ولكن ..

تمتمت وقد صدمها الواقع فجأة:-

-لقد كان أنت، أليس كذلك؟

نظر إليها بعدم فهم لتردف بأعين متسعة:-

-أنت رئيس شيماء في العمل!

لم يحتاج إلى الرد فقد كانت الإجابة واضحة في عينيه فاستأنفت بتأني وذهول:-

-إذًا من دمر حياتها هو هنا!

كان الأمر لا يصدق خاصة عندما قال أدهم في ثقة بالغة:-

-لا أعرف عما تتحدثين وأيًا كان ما أخبرتكِ به تلك الفتاة فهو كذب، فواحدة مثلها تريد أن تكسب تعاطف من حولها بزيفها وخداعها.

حركت رأسها في رفض لكلماته ثم أسرعت راكضة إلى غرفتها وقد كانت الصدمة تفوق أيًا ما اعتقدته، فقد تسببت بدون قصد في جرح شيماء والأسوأ وما يمزقها أكثر هو أن من حطم حياتها وجعلها تعاني تلك الأيام يعيش في منزلها وقد أحضرت شيماء بنفسها إلى هذا المنزل برغم رفضها.

كيف فعلت هذا بها؟! كان عذاب ضميرها يفوق الاحتمال، انهمرت دموعها وبدأت التساؤلات تراودها في خوف عن هوية الشخص تحت سقف هذا المنزل الذي اغتصب شيماء.

كل ما عرفته سابقًا من شيماء أن رئيسها بالعمل ينتمي إلى نفس العائلة التي دمرت حياتها.. كانت إجابة ذلك السؤال تخيفها أكثر من أي شيء في العالم، وكأنها تدرك أن الإجابة سوف تكون قاتله لها.

رفض عقلها رفضًا قاطعًا فرض أي تخمينات، لعنت ضعفها مدركه إنها لن تمتلك الشجاعة أبدًا لتتساءل من قاتل شيماء تحت سقف منزلها؟!

***

ما أن ركضت شهد أمامها حتى خرجت من مخبأها ورمقت أدهم بنظرات غير مفهومه ثم أسرعت إلى غرفتها هي الأخرى.

لقد كانت صدمتها في أدهم تتضاعف، وكأن الأيام في إصرار على أن تعرفها على تلك النسخة المختلفة منه أو ربما تلك هي هويته الحقيقية وقد عماها بريق الحب عنها سابقًا..

كان قلبها يتألم للغاية من ذلك الحب الذي لم يجلب إلا المعاناة إلى قلبها.

التفكير في الكلمات القاسية التي وجهها إلى تلك الفتاة بالإضافة إلى صدمة شهد التي أحزنتها للغاية برغم إنها لم تفهم ما الذي فعلته تلك الفتاة لكن يبدو أن شهد تهتم بها كثيرًا.

كان الأكثر صدمة لها هو دفاع عدي العنيف عنها فقد شهدت من بعيد مشاجرته مع أدهم حيث صاح في غضب قبل أن يخرج من الغرفة:-

-أنا لن أصدق ذلك أبدًا، وسوف أعرف الحقيقة التي تخفونها بنفسي.

تنهدت في قلق وتساءلت عن هوية تلك الفتاة التي دلفت إلى المنزل لتشعل النيران به وتظهر الأوجه الحقيقية للجميع من حولها!

***

رمق وجهها شديد الشحوب والعبرات العالقة في جفنيها بأعين حزينة مشفقة، فإن الصدمات تتوالى عليها حتى إنه يتعجب من صمودها الذي يفوق أشمخ الجبال صلابة، ولكن تلك المرة هي القاضية حقًا فهو نفسه ما زال عاجزًا عن تصديق تلك الخيانة من شهد.

زم شفتيه في غضب وهو يفكر فيها وقد تلاعبت بهما بسهولة بالغة وزادت من آلام تلك المسكينة. لم يشعر بأي ندم على كلماته لها في الهاتف وحانت منه التفاتة إلى شيماء بعد أن أنهى المكالمة لكن لم يبدو عليها أنها لاحظت محادثته مع شهد.

أوقف السيارة أمام منزله لتترجل شيماء في هدوء بالغ تلحق به، وكأن الأيام لم تمر والحياة تكرر نفسها، فكأنه الأمس حيث اصطحبها من المشفى إلى منزله.

القدر لم يسمح لها بالتعافي كما تمنت بل وكأنه شديد الإصرار على معاندتها وتذكيرها دومًا بالآلام والجراح.

رن الجرس ولم تمر دقائق حتى فتحت والدته قائلة:-

-هل نسيت مفتاحك مرة أخرى؟

تجمدت ما أن رأت تلك التي تقف منكسة الرأس بجواره، وقبل أن تنطق بحرف قال مراد بنبرة حازمة لا تقبل أي جدال:-

-شيماء سوف تبقى هنا، استدعي منى حتى تقودها إلى الغرفة.

تجمدت الأم لبرهة ترمق شيماء بنظرات غير راضية ثم دلفت إلى داخل المنزل، ولم تمر دقيقة حتى جاءت منى على عجل واحتضنت شيماء بمشاعر دافئة لم تلاحظها تلك الأخيرة وقد كانت سجينة في عالمها الخاص فلم تستجب لأي شيء من حولها، ترى حركة شفاه مراد بينما يخبرها شيئًا ما ولكنها لم تفهم حقًا ما قاله ثم أصبحت وحيدة في الغرفة تستلقي فوق الفراش.

تعلقت أنظارها بسقف الغرفة، نظرات ميتة... انهمرت عبرة من بين جفونها ثم لحقتها أخرى فأخرى حتى أجهشت بالبكاء، دست وجهها في الوسادة لعلها تكتم صوت نحيبها وقد أصابها الإرهاق والتعب من تلك المعاناة التي تفوق تحملها.

إنها ليست بتلك القوة، كيف من المفترض أن تتابع حياتها؟!

يا ليتها قد ماتت في تلك الليلة، لقد أيقنت إنها الجانية منذ البداية؛ فلقد كان يجب أن تقتل نفسها في تلك الليلة بدون تردد فحينها كان الألم ليكون أكثر لطفًا من تلك الجراح التي تتسابق لتترك آثارها عليها بدون أي تريث.

احتضنت جسدها كطفلة في السابعة في ليلة شديدة البرودة لعلها تبث الدفء والأمان إلى ذلك القلب الذي يئن من شدة الآلام حتى خلدت إلى النوم بدون أن تفكر في الغد بل تمنت ألا يكون هناك غد لها.

***

-إلى أين أنتِ ذاهبة؟!

صاح مراد بتلك الكلمات يقتحم الغرفة بعدما أخبرته منى بنية شيماء على المغادرة.

رفعت أعين بارده إليه برغم تلك الحمرة التي لطخت نظراتها نتيجة لليلة تخللها النحيب، وقالت في فتور:-

-إن وجهتي الآن هي شأني الخاص فلا داعي للقلق بشأن هذا.

كانت على وشك أن تغادر قبل أن يمسك كفها ويجذبها لتجلس بقوة طفيفة، ولأول مرة يستخدم قوته معها مما تركها مذهولة قليلا، قال في حزم:-

-أنا أعرف جيدًا مدى صدمتكِ بسبب ما حدث أمس، وذلك لأني أيضًا أشعر بالمثل، ولكني لن أسمح لكِ أن تعزلي ذاتك عني وكأني من تسببت في إيذائك.

رفعت رأسها إليه وقبل أن تنكر الأمر أردف في نبرة أكثر هدوئًا ولكنها غير قابلة للجدال في ذات الوقت:-

-سوف أسافر غدًا في رحلة عمل، وحتى عودتي سوف تبقين هنا في منزلي حتى أشعر بالأطمئنان عليكِ، وحين عودتي سوف نتناقش معًا بحثًا عن حل يرضيكي.

احتفظت بصمتها طويلا ثم قالت:-

-أنا لا أرغب في البقاء هنا.

تنهد في يأس ثم قال:-

-أدرك ذلك، ولكني لن أشعر بالأطمئنان في سفري إذا كنتِ في مكانٍ آخر.

استطرد في نبرة راجية:-

-أبقي هنا من اجلي، وأعدكِ عندما أعود سوف نجعل كل شيء بخير معًا.

ابتسامة ساخرة ارتسمت فوق ثغرها ورددت:-

-بخير!

أردفت في استهجان:-

-إن كلمة بخير في مكانة راقيه عن أن يتم استخدامها في حياتي، لقد انتهى الأمر يا مراد.

رفعت أعين فاقدة للحياه له وقالت:-

-إنه وقت الاستسلام.

أصدرت صوتًا مستهزئًا ثم استطردت في سخرية:-

-إذا لم تكن تلك هي اللحظة المناسبة للاستسلام إذًا متى؟!

كان يتأملها في عجز، ولكن برغم إدراكه أن الأمر يفوق قدرة أي شخص على التحمل ليس بإمكانه أن يسمح لها أن تستسلم هكذا، فماذا سوف يتبقى لها إذا استسلمت؟

لذلك فقد تساءل في حزم:-

-وماذا بعد الاستسلام؟!

نظرت إليه نظراتها الفارغة ليردف:-

-هل سيكون كل شيء بخير عندما تستسلمين، هل سوف تنظرين بأعين راضية إلى نفسك في المرآة كل صباح؟

حرك رأسه عندما طال صمتها وأجاب بدلا منها:-

-لا، هل تعرفين السبب؛ لأنكِ شيماء المحاربة، منذ أن عرفتكِ وكنتي دائمًا ما تحاربين شيئًا ما، حتى إنكِ هزمتي شياطيني وجعلتيني الرجل الذي أكون عليه الآن.

قالت بصوت مختنق:-

-لقد تعبت من كل شيء حقًا، لم أعد أمتلك من القوة ما يكفي للمحاربة بعد الآن.

تقدم وجلس بجوارها على حافة الفراش قائلا:-

-أدرك ذلك جيدًا، ولكن ما الذي قد يتبقى من شيماء إذا استسلمتي هكذا؟!

رفعت أعين مرهقه دامعه إليه ليردف مشجعًا:-

-لن يكون الأمر سهلا ونحن نعرف ذلك جيدًا، ولكنكِ أكثر قوة مما حتى تعرفين عن نفسكِ، وسوف تتغلبين على كل العقبات.

خيم صمت طويل بعد كلماته حتى همست في ضعف:-

-أنا خائفة من الصدمة القادمة، أنا فقط لن أستطيع التحمل حينها..أنا لست بتلك القوة حقًا.

رمقها بثقة قائلا:-

-أنا أؤمن بكِ، وربما لتلك البداية نهاية أكثر إشراقًا مما تتخيلين.

بدا عليها الشك والخوف، ولكنها في ذات الوقت كانت تدرك إنه محقٌ في شيء واحد فإذا استسلمت الآن ما الذي سوف تفعله في المتبقي من تلك الحياة؟!

لذلك فلم تملك إلا أن تومأ بعدم يقين وتستعد لتلك البداية والتي لا تعرف حقًا رقمها في ذلك الطريق الجحيمي الذي يبدو بلا نهاية، وكم تتمنى أن تمتلك تلك الثقة والنظرة الإيجابية التي يؤمن بها مراد ربما لأصبحت في حال أفضل حينها.

نظرت إليه ترى التشجيع في نظراته مما بث القليل من الدفء في قلبها برغم ذلك الخوف الذي يزحف ببطء داخلها عن تلك البداية الغير معروف وجهتها حتى الآن.

***

بدأت تلك الرحلة المعتادة حيث تبحث عن عمل آخر، وبعد صدمتها في أخر وظيفة مكتبية قد حصلت عليها قررت أن تكون وجهتها أي متجر يبحث عن

عامله، كان البحث متعبًا للغاية كالعادة وما زاد من المعاناة هو روحها المعنوية المنهزمة.

كانت تسير في استسلام تاركة القيادة لقدميها تستقبل الرفض من أصحاب المتاجر في عدم مبالاة حتى استطاعت أخيرًا الحصول على عمل في متجر لبيع الملابس.

لم تشعر بالسعادة حقًا لنجاحها في ذلك بل كانت غير مهتمة بما حولها، فقط تعرفت على مواعيد العمل والتي بدايتها الغد ثم عادت إلى منزل مراد بنفس الخطوات البطيئة محنية الكتف في إرهاق.

في المنزل استقبلتها أم مراد بنظرات غير راضية يتخللها الاحتقار تقبلتها شيماء بنظرات باردة غير مبالية واتجهت إلى الغرفة وقد سافر مراد صباح اليوم بعد أن حصل على ذلك الوعد بألا تترك منزله حتى عودته.

نظرت إلى حقيبة ملابسها الموضوعة فوق الفراش والتي أحضرها مراد من شقة شهد بعد أن أخذ منها المفتاح رافضًا أن يسمح لها بالقدوم معه خوفًا من أي تأثير سلبي قد يتركه عليها رؤية ذلك المكان بذكرياته..مرغمة فكرت في خيانة شهد لها لتشعر بالغضب والاشمئزاز يسريان في عروقها، بدلت ثيابها وتمددت فوق الفراش تنظر إلى سقف الحجرة كالعادة تناجي النوم أن يأتي سريعًا بدون تعذيبها بالذكريات التي لا تحمل إلا الألم.

بعد دقائق قليلة تحقق ما رغبته فخلدت إلى نوم عميق بدون أن تشعر بالدقات الخفيفة على الباب أو دلوف منى تحمل طعام الغذاء ثم مغادرتها مرة أخرى.

***

كانت خائفة للغاية تتصبب عرقا بينما تختبئ في تلك الخزانة الصغيرة، وضعت كفها الصغير فوق فمها خوفًا من أن تصدر أي صوت، كانت الصرخات تتردد لتنهمر دموعها أكثر، وضعت كفيها على أذنيها بينما تتراجع إلى الخلف أكثر في خوف.

برغم محاولاتها أن تغلق عينيها إلا إنها استطاعت رؤيتهما، كانت تصرخ بشدة تتوسله أن يتركها بدون جدوى، صوت ضحكاته تسلل إلى أذنيها المغلقتين.

مجرد طفلة عاجزة تراقب في خوف تلك الجريمة، لم تعرف كم مر من الوقت ولكنها ضمت جسدها في خوف وتوقفت عن التنفس عندما اقتربتا قدماه من الخزانة يلتقط سرواله، وما أن سمعت باب الشقة يُغلق حتى خرجت من مخبأها بأرجل مرتجفة وأعين خائفة، اقتربت من الفراش وهمست في نبرة باكية:-

-أمي، هل أنتِ بخير؟

***

كانت شيماء نائمة تتصبب عرقًا بينما تهمس في بكاء:-

-أمي، هل أنتِ بخير؟

شهقت وانتفض جسدها تحاول التقاط أنفاسها نظرت إلى ما حولها ثم جلست ومسحت على وجهها المبلل من العرق والدموع.

نظرت إلى الفراغ أمامها تحاول تذكر موضوع ذلك الكابوس بدون جدوى فكل ما تتذكره هو تلك البرودة والرعشة الخائفة التي اخترقت جسدها، التقطت كوب الماء بجوارها ترتشف منه ثم حاولت أن تعود إلى النوم مرة أخرى وقد اعتادت على اضطراب نومها منذ تلك الليلة.

الفصل الثامن عشر

-مراد، أقسم إني لم أعرف أن أدهم رئيسها السابق أو أي شيء عن ذلك.

كان صمته خير جواب لذلك فقد أردفت في نبرة متوسلة:-

-أرجوك، صدقني.

صمت برهة ثم قال في قسوة:-

-آسف، لا أستطيع تصديقكِ، فلقد اكتفينا من قذارة عائلتكِ، ومن الأفضل لكِ ألا تتلاقى طرقنا مرة أخرى. فأنا لدي ما يكفي لتصفيته مع عائلتكِ فلا تتورطي معنا.

-مراد، أنا...

لم تستطيع متابعة حديثها فقد أغلق الهاتف، نظرت إلى الشاشة ثم أجهشت بالبكاء تشعر بالعجز لا تعرف ما الذي يجب أن تفعله في ذلك الموقف ما بين عائلتها وصديقتها والرجل الذي وقعت في حبه، ولأول مرة تواجه نفسها بتلك الحقيقة.

تعرف جيدًا إنها قد خسرت مراد تمامًا وكذلك تلك الصديقة التي اعتزت بها كثيرًا، وفي نفس الوقت تدرك إنها لن تستطيع مواجهة أسرتها بما عرفته، لن تستطيع أن تقف أمامهم وتتساءل عن هوية قاتل شيماء، ولن تنكر إنها ما زالت تتمنى أن يكون هناك سوء فهم في الأمر، وإلا فمن هو الشخص الذي لطخ حياة شيماء البريئة من بين أفراد أسرتها؟!

***

-ألم يخبرك ابن عمك أن تتوقف عن البحث خلف تلك الفتاة؟

كانت نبرة سيف غاضبة بينما يتحدث مع عدي بعدما علم بما حدث منذ يومين في منزلهم بالإضافة إلى استمرار عدي في البحث خلف تلك الفتاة.

نظر عدي إلى عمه محمد وقد أدرك إنه السبب في ذلك ثم قال بدون تردد:-

-إنها ليست كما تقولون أنا أثق في ذلك.

صاح سيف في انفعال:-

-هل تقصد أننا الكاذبون؟

لم يرجف له جفن بينما يجيب قائلا:-

-لا أعرف أين الحقيقة أو ما حدث، ولكني على يقين أن تلك الفتاة ليست مخادعة.

اقترب سيف منه في غضب صائحًا:-

-لقد...

قاطعه اقتحام خالد لغرفة المكتب، التفتوا إليه ولكنه اتجه إلى جهاز التحكم عن بعد وقام بتشغيل جهاز التلفاز الصغير ليتجمد عدي بينما يرى شيماء على الشاشة وحولها العديد من الصحفيين.

لم يتردد أو ينتظر حتى يفهم ما يحدث فقط ألتقط هاتفه وركض إلى الخارج متجاهلا صياح والده الذي قال في تهديد:-

-إذا ذهبت إليها فلتنسى أن لك مكانًا في هذا المنزل.

لم يبالي بكل ذلك فكل ما كان يفكر به هو شيماء، وكل ما يراه أمامه هو نظراتها الخائفة التي توجهها إلى الصحفيين من حولها.

***

تراجعت في خوف بينما أضواء الفلاش تزعج عينيها وتزيد من خوفها، لا تعرف كيف وصلوا إليها أو لماذا؟

كان الأمر مخيفًا للغاية فقد أصابتها الصدمة عندما خرجت من مقر عملها في اليوم الأول لها به لتجدهم في انتظارها يحيطونها بدون سابق إنذار.

كانت كلماتهم مؤلمة تحتوي على العديد من الاتهامات والإهانات، شلتها الصدمة بينما انهالت الأسئلة عليها تطالب بتفسير لتصرفاتها المهينة منذ شهور تجاه عائلة الحداد العريقة وسبب استمرار لحقاها بهم حتى الآن، وأخرى تخبرها صراحة إنها عاهرة تطلب المال منهم ولذلك تتصرف بتلك الطريقة...

في لحظة لم تعد ترى أضواء الفلاش أو الصحافة فقط سترته تغطي وجهها بينما كفه يجذبها من معصمها يقودها بين الجموع بينما أسئلة الصحفيين فقد ازدادت حدة بعد ظهوره.

تجاهل تمامًا محاولتها للتخلص من قبضته، وما أن أوقفها أمام السيارة حتى دفعته في غضب ليقول في هدوء مشيرًا إلى الصحفيين في أثرهم:-

-هذا ليس الوقت المناسب للعناد حقًا.

نظرت إليهم ثم إليه مرة أخرى، وكأنما أدركت إنه محق فدلفت إلى داخل السيارة بينا تراقبه في حذر واضح يتخلله القليل من الحيرة؛ فهو لا يملك أي سبب للدفاع عنها،هل تلك خدعة ما؟!

وكأنما شعر بنظراتها قال:-

-عندما نبتعد قليلا عن أعين الصحافة سوف أتوقف، ويمكنكِ حينها سؤالي كما تحبين، الآن فقط استرخي.

تأملته لحظة ثم أومأت وتابعت الطريق بنظراتها ليبتسم بلطف بينما يسرق نظرات إليها بين الحين والآخر.

بعد دقائق قليلة أوقف السيارة ثم التفت إليها مبتسمًا وقال:-

-الآن أطلقي أسئلتك كما تحبين.

قالت في حيرة لم تستطع منعها:-

-لماذا؟!

صمت برهة ثم ابتسم بسذاجة وقال:-

-لا أعرف حقًا، لكن...

تردد قليلا ثم أردف:-

-أنا لا أعرف حتى الآن السبب وراء ما بينكِ وبين أسرتي ولا أحد يريد إخباري عن هذا لكني أدرك جيدًا إنكِ لستِ كما يدّعون، أنا أؤمن بذلك ولهذا سوف أكون بجواركِ.

رمقته بسخرية وقالت:-

-لا تلقي كلامًا لا تعي معناه يا فتى..

على عكس توقعاتها لم يغضب بل انفجر ضاحكًا وردد:-

-فتى!

هدأت ضحكاته أخيرًا أمام نظراتها الحانقة ثم قال مبتسمًا:-

-لا داعي لأن تصدقيني أنا فقط أخبركِ بالحقيقة، وسوف تدركين مدى صدقي عاجلا أم آجلا كما أني لن أطلب منكِ أن تخبريني بما لا تريدين..

أردف غامزًا إياها في عبث:-

-سوف أعرف ما أريد بطريقتي الخاصة.

التفت يتابع القيادة قائلا:-

-والآن إلى أين تريديني أن أوصلكِ؟

تذكرت مرة أخرى ذلك المأزق، فأعطته العنوان بذهن شارد بينما تفكر في مشكلة الصحافة وخسارتها لوظيفتها في اليوم الأول، وبدأت الظنون تراودها فلقد حصلت على هذه الوظيفة بعد عناء وسوف يكون مستحيلا الحصول إلى أخرى، كما إنها لن تستطيع أن تبقى في المنزل عالة على عائلة مراد.

توقف السيارة أوقف سيل أفكارها وقبل أن تترجل أوقفتها كلمات عدي قائلا في صدق:-

-سوف أكون موجودًا من أجلكِ، أرجوكِ حاولي أن تثقي في هذا.

لم تلتفت إليه وتابعت طريقها، ولم يلومها فقد استطاع أن يخمن كيف إنها تعرضت للعديد من الخيانات انتهت بابنة عمه شهد والذي لا يعرف حقًا سر تلك العلاقة بينهما..توقفت أفكاره فجأة وتمتم:-

-شهد!

كيف لم يفكر في هذا من قبل؟! فإذا كان هناك شخص يستطيع إخباره بما يريد عن شيماء فمن يكون إلا صديقتها السابقة، يجب أن يحصل على مناقشة طويلة مع شهد.

***

منذ خروج عدي وقد أصبح المنزل هو الجحيم ذاته خاصة عندما سمعت مريم تهديد سيف لعدي ورأت خروج عدي الناري فقالت في قلق:-

-ما الذي حدث، وإلى أين يذهب عدي؟

صاح سيف في انفعال:-

-هذا الوغد ليس له مكان هنا بعد الآن، فليرى كيف سوف تتركه تلك الحقيرة سريعًا.

تدخلت شهد، والتي ما أن رأت شاشة التلفاز حتى أدركت هوية من يتحدثون عنها، وقالت في دفاع:-

-شيماء ليست حقيرة يا عمي، إنها ليست هكذا..

قال سيف في غضب:-

-لا تتدخلي يا ابنة أخي فيكفي إنكِ من أدخلتي فتاة كهذه إلى منزلنا.

قبل أن تتحدث شهد قالت مريم والتي لم تهتم بشيء إلا ابنها:-

-ما الذي تعنيه بألا يعود إلى هنا، أين من المفترض أن يذهب؟!

أجاب في برود:-

-لا يعنيني ذلك فهو من اختار.

فقدت مريم صوابها وكأن مخزون الصبر الذي صاحبها في السنوات الماضية قد انتهى أخيرًا، وصاحت في غضب:-

-ابني سوف يعود إلى هذا المنزل يا سيف الحداد، وأنا لا أبالي بكلماتك اللعينة.

جحظت عيناه وقد اعتاد خضوعها الدائم، أصابه الغضب وقد قللت منه أمام أخيه وأبناء أخيه فاقترب سريعًا منها وتحرك كفه ليصفعها لكن قبضة محمد كانت له بالمرصاد فقد أمسك كفه قبل أن يلامس وجهها ودفعه بعيدًا صائحًا:-

-هل جننت يا سيف؟

ابتسم سيف ونظر إلى مريم قائلا في جنون:-

-لا بد أنكِ سعيدة الآن، فها هو الحبيب الوحيد يدافع عنكِ في استماتة.

شحب وجهها للغاية بينما محمد فقد اشتد غضبه وجذب سيف في عنف قائلا:-

-لقد فقدت عقلك حقًا..

لم يتوقف سيف بل أردف في سعادة بالغة بينما يطالعه في شماتة:-

-لقد استمتعت كثيرًا طيلة تلك الأعوام، وأنا أشاهدك تعاني بينما تراها معي، وبين ذراعي..

نظر إليه في عدم تصديق فلقد تجنب الجميع التحدث بخصوص هذا الموضوع لأعوام عديدة كما صدمه كره أخيه له إلى هذا الحد بينما شهد وأدهم فكانا يراقبان ما يحدث في ذهول وعدم فهم.

أردف سيف في نشوة واضحة:-

-كيف شعرت وأنت تتخيلها في فراشي و...

قاطعه محمد يلكمه بعنف بدون أن يبالي بالموجودين وصاح في غضب بينما يتابع ضربه:-

-لقد ظننت أنك سوف تصونها أيها الوغد.

كانت مريم تبكي في عنف تحاول أن تمنعهما من القتال وأدهم يساعدها لكن بدون جدوى فقد اشتعلت كراهية أعوام طويلة في تلك اللحظة ولم يكن باستطاعة أحد إخمادها.

صوت جهوري تملأه الصدمة صاح:-

-يكفي!

الفصل التاسع عشر

-يكفي!

ذلك الصوت كان كافيًا ليوقفهم جميعًا، أخفض محمد رأسه في خزي وقد أزعجه أن تراه والدته على تلك الحالة في هذا العمر بينما سيف فقد كان يتنفس بصعوبة بينما يواجه نظرات والدته الغير راضية ثم في صمت غادر المنزل، ولحق به محمد فلم يستطيع البقاء أيضًا.

جلست مريم على أقرب مقعد وأخفت وجهها بين راحتيها تجهش بالبكاء والنحيب يهز كتفيها اقتربت الجدة منها بخطوات بطيئة وأعين دامعة جلست بجوارها تربت على كتفها فلقد كانت تعرف أن هذا اليوم سوف يأتي عاجلا أم آجلا فمحمد لن يظل صامتًا للأبد، وتلك المسكينة هي ضحية الصراع بين الشقيقين.

تأملت شهد ما يحدث وكأنها تتعرف على أسرتها لأول مرة، وقد أصبحوا مختلفين تمامًا عما اعتقدته، مليئين بالأسرار والغموض. رمقت زوجة عمها بنظرات مشفقة ثم اتجهت إلى غرفة شقيقتها تطمئن عليها خاصة إن والدتها ليست موجودة الآن.

كان الأمر مخيفًا لأميرة خاصة الصراع بين والدها وعمها وانهيار والدتها؛ ولأن قلبها رغب في الطمأنينة فأسرعت إلى غرفة مكتب أدهم لكن قبل أن تدلف توقفت تستمع إلى محادثته وقد كان يوليها ظهره، لم تحتاج إلى الكثير من الذكاء لتفسير كلماته فقد كان أكثر من واضح إنه السبب في ظهور تلك

الفتاة على شاشة التلفاز وأنه من أخبر الصحفين بمكانها خوفًا من أن تبدأ هي بتلك الخطوة وحفاظًا على مكانتهم.

توقف عن الحديث عندما التفت ووجدها أمامه ترمقه بنظرات مشمئزة، هزت رأسها في عدم تصديق وخيبة أمل ثم ركضت سريعًا إلى غرفتها وقد أدركت إنها النهاية فإذا كانت تظن أن هناك جزء من ذلك الشخص الذي وقعت في حبه أمامها فقد انتهى هذا الأمل تمامًا، فذلك الشخص لا يمس بأي صورة ابن عمها الحنون الذي اعتادت على حبه والتطلع إليه في فخر.

***

نظرت إلى شقيقتها النائمة بنظرات شاردة وعقلها ما زال يفكر في تلك الفوضى التي تعم حياتهم، ومرغمة كانت أفكارها تعود إلى شيماء ومراد في قلق فلقد تقربت من شيماء كفاية لتعرف إنها لا تستحق كل ما يحدث لها ولكنها فقط عاجزة عن مساعدتها.

تأملت رقم مراد الذي يعتلي الشاشة وبعد تردد قررت مهاتفته خاصة أن شيماء لا تستجيب لأي من اتصالاتها.

رن هاتفها فجأة مانعًا إياها نظرت إلى هوية المتصل بحيرة ثم أجابت في تساؤل:-

-عدي؟!

-شهد، يجب أن نتحدث.

كانت تعرف جيدًا عما يريد التحدث ولكنها لم تفهم السبب حقًا فقالت يدفعها قلقها:-

-ماذا تريد منها يا عدي، إنها ليست كأي فتاة كما أن لديها من الآلام ما يكفيها؟!

استطاعت أن تسمع صوت تنهيدته ثم أجاب في صدق واضح:-

-أعرف ذلك، ولكني منجذب إليها بطريقة تفوق قدرتي على المقاومة، ولا أعرف حقًا السبب، كل ما أعرفه إني أريد أن أساعدها بطريقة أو بأخرى.

استشعرت صدقه ولكنها ترددت أن تخبره عن شيماء فهي لا تضمن رد فعله، وكأنما شعر بترددها قال:-

-أنا أهتم بها حقًا يا شهد، وما سوف تخبريني به الآن سوف يظل سرًا معي.

زفرت في توتر ثم بدأت تقص عليه كل شيء منذ لقائها الأول مع شيماء حتى ذلك اليوم حيث عرفت أن مغتصبها يسكن تحت سقف منزلهم، وأنهت كلامها في عجز:-

-هي ترفض التحدث معي، وأنا خائفة من معرفة هوية من فعل ذلك بها..

أردفت في عذاب:-

-انها عائلتنا مهما حدث، فكيف أصدق أن أحدهم قد يرتكب مثل تلك الجريمة.

كان صامتًا طيلة حديثها يحاول أن يستوعب مدى ألم الحقيقة والتي كانت تفوق توقعاته لكنها لم تغير في مشاعره بل زادته تشبثًا بمساعدتها.

بدأ بالتفكير في هوية ذلك الشخص حتى أظلمت عيناه وظهر الغضب والاحتقار على محياه فهناك شخص واحد فقط قد يكون بتلك القذارة، ولكنه لن يستطيع أخبار شهد عنه مهما حدث لذلك فقد قال سريعًا:-

-شكرًا يا شهد.

أغلق الهاتف بدون أن ينتظر منها ردًا وتأمل الطريق أمامه فقد كان ما زال قريبًا من منزل شيماء لكنه أدرك أنها لن تقابله مهما حدث ولذلك فقد اتجه إلى تلك الشقة الراقية التي ابتاعتها له والدته في حالة إذا أراد أن يتزوج بعيدًا عن بيت العائلة، تذكر في تلك اللحظة أنه لم يهاتف والدته منذ أن خرج من المنزل ولا بد إنها جنت قلقًا.

استرخى فوق الأريكة وألتقط هاتفه ليأتيه صوتها المشبع بالقلق فأسرع يقول مطمئنًا:-

-لا داعي للقلق، أنا بخير في شقتي.

تساءلت في عجز:-

-ما الداعي لكل هذا يا عدي؟!

تنهد ثم قال:-

-لقد أخبرتني أن أساعد من يحتاج إلّي، وتلك الفتاة هي أكثر شخص يحتاجني الآن فأرجوكِ دعيني أفعل هذا مهما كانت النتائج.

كانت تدرك إنها لن تستطيع منعه لذلك فقد رضخت ثم تساءلت في نبرة متوسلة:-

-ألن تعود إلى المنزل؟

تذكر كلمات والده بالإضافة إلى شكوكه حول عمه لذلك فقد أجاب سريعًا:-

-ليس بعد..

زفرت مريم في ضيق ثم قالت في حزن وقلة حيلة:-

-اعتني بنفسك جيدًا، حسنًا؟

ابتسم بخفة قائلا:-

-لا تقلقي أبدًا.

انتهت المحادثة تاركة عدي في تفكير عميق، فإذا كان حقًا خالد المجرم كيف سوف يساعد شيماء؟! خاصة أنه دونًا عن أي شخص آخر يعرف جيدًا مدى نفوذ عائلته، وهنا قرر التحدث مع شيماء عما عرفه والتوصل إلى طريقة لمساعدتها، وأيًا كانت النتائج فسوف يكون أكثر من قادر على مواجهتها.

***

مرت الساعات المتبقية من اليوم ببطء شديد، فمريم لم تغادر غرفتها وكذلك أميرة أما شهد فقد تجاهلت أسئلة والدتها بشأن ما حدث في غيابها واتخذت من غرفتها صومعة لها، بينما أدهم ومحمد فقد انشغلا بالأعمال في غرفة المكتب يتجنبان تمامًا ذكر ما حدث سابقًا خاصة أن سيف لم يعد بعد أما خالد فلا أحد يراه بسبب مواعيد عودته المتأخرة.

في نفس الوقت قد بدأت سارة تفكر جديًا في كلمات شيماء التي لا تُمحى من ذاكرتها، وبدأت تتساءل إذا كانت حقًا تملك القوة الكافية للعودة والاندماج مع المجتمع مرة أخرى، لم تحضر الامتحانات السابقة فهل يجب أن تخاطر وتعود إلى الكلية لإعادة هذا العام الذي فقدته في شهور فقط؟!

كان التفكير في الأمر مخيفًا للغاية ويثير فزعها تخيله، ولكن شيماء كانت محقة فالآثار لن يتم محوها حتى وإن قضت العمر كله في غرفة موصدة.

انهمرت دموعها في ضعف وقضت ليلة أخرى تتخللها الاضطرابات والكوابيس كما العادة منذ ذلك اليوم.

***

مائدة عائلة الحداد، والتي دائمًا ما اجتمعوا عليها لتناول الإفطار معًا، قد أصبحت فارغة إلا من الجدة ومريم وناهد وبناتهما أما الرجال فقد غادروا سريعًا متحججين بالعمل.

كان الصمت الحزين يخيم عليهم بينما ناهد لا تفهم ما يحدث ولكنها تجاهلت الأمر خاصة أن شأن سارة مازال يؤرقها.. توقف الجميع عما يفعله عندما تقدمت منهم بخطوات بطيئة وتجنبت النظر إليهن قائلة:-

-سوف أذهب إلى الكلية لحضور المحاضرات.

كان الأمر لا يصدق حتى أن ناهد قد اندفعت تحتضنها برغم عدم الارتياح الذي بدا على سارة والتي حاولت التغلب على ذلك بأن قالت في ارتباك:-

- لقد سقطت عام بسبب عدم حضور آخر امتحانات.

تمتمت ناهد:-

-لا يهم أي شيء..فداكِ.

أومأت ثم غادرت تلحقها نظراتهن السعيدة المتفائلة بشفائها القريب.

كانت رحلة الذهاب إلى الجامعة جحيمية فوجودها في السيارة مع رجل ما وإن كان السائق الخاص بعائلتها سرقت أنفاسها وجعلتها في تأهب وتوتر تراقب الطريق في قلق حتى وصلت أخيرًا إلى وجهتها فقالت بدون أن تنظر إليه:-

-سوف أنتهي خلال ساعتين فقط.

دلفت إلى داخل الكلية نسخة مختلفة تمامًا عما كانت عليه من قبل، هزيلة شاحبة الوجه شعرها فاقدًا للحياة محنية الرأس.

لم يغفل الجميع عن تلك التغيرات وبعد الانتهاء من المحاضرة التي لم تعرف حتى محتواها لكنها لم تبالي كثيرًا فقد كانت في صراع أقوى مع ذاتها للتقدم خلال أعاصير الخوف التي تعيقها، خرجت من المدرج بدون أن تنظر إلى من حولها فقط تتجه إلى البوابة.

صدرت أنة ألم من بين شفتيها عندما اصطدمت بها تلك الفتاة بقوة بالغة تراجعت على إثرها خطوة إلى الخلف رفعت رأسها إليها لتبتسم الأخرى في استفزاز:-

-آسفة، لم أراكِ.

سارة القديمة كانت لتجعلها تندم كثيرًا على ذلك لكن الحالية كل ما تريده في تلك اللحظة أن تعود إلى أمان غرفتها لذلك فقد أومأت وتابعت طريقها لتسقط أرضًا فجأة عندما تعثرت في قدم فتاة أخرى.. نهضت ببطء ونظرت إلى الفتاة لتقول الأخيرة بعدم ندم:-

-ألا ترين أمامكِ لقد دعستي حذائي الجديد؟!

تمتمت بصوت واهي:-

-آسفة.

وركضت بدون توقف تخرج من ذلك المكان بينما دموعها تنهمر وقد سيطر عليها شعور قاتل بالتدني والضعف.

دلفت إلى السيارة بينما دموعها الصامتة لا تتوقف عن الانهمار وما أن أصبحت في المنزل حتى أسرعت إلى غرفتها بدون أن تلتقي بأحد لحسن الحظ، وألقت بنفسها فوق الفراش تدرك أنها تجني حصاد ما ارتكبته سابقًا.

اشتد نحيبها وهي تفكر أنه ربما ما حصل لها هو بسبب الشخص الذي كانت عليه سابقًا.

كانت دموعها لا تتوقف حتى نامت بدون أن تشعر، وكانت آخر أفكارها أن الطريق ليس سهلا بل إنه مؤلم بدرجة تفوق تحملها بينما فكرة الاستسلام تداعب عقلها لكن كلمات شيماء كانت لها بالمرصاد مما دفعها إلى أن تقرر إعادة الكرة مرة أخرى والنهوض من جديد..

الفصل العشرون

كان الظلام دامسًا في الغرفة الصغيرة لم يكن هناك إلا صمت تقطعه شهقات باكية بين الحين والآخر مصدرها تلك الطفلة الهزيلة النائمة فوق الفراش الصغير المُهْتَرِئ ، كانت تخفي وجهها في تلك الوسادة وإن حانت منها التفاتة بالخطأ إلى الفراش الخالي بجوارها يزداد عنف نحيبها.

كممت فمها تحاول التزام الصمت، ولكنها لم تملك سيطرة على رجفة جسدها. انكمشت فوق الفراش عندما حمل إليها الصمت صوت خطوات أقدام تقترب من الغرفة، غرزت أظافرها في كفها بدون أن تبعد الآخر عن فمها خوفًا من أن يكتشفوا إنها تدعي النوم ويعاقبوها أيضًا فلا بد أنهم أخذوا نور إلى غرفة العقاب.

تسلل ضوء خافت إلى داخل الغرفة مع حركة الباب وكانت همساتهم واضحة.

قالت المرأة:-

-ضعها فوق الفراش، بحذر حتى لا تستيقظ الفتاة الأخرى.

صوت أقدام اقتربت من فراشها، لم تحاول أن تفتح عينيها برغم ارتجاف جفنيها في خوف إلا أن الظلام كان حليفها فلم يلاحظوا.

ارتفع صوت اصطدام جسد بالفراش ثم أنصتت بحذر لخطواتهما المبتعدة، وما أن عادت الغرفة إلى ظلامها المُعتاد حتى فتحت عينيها ببطء، ازدردت

لعابها في خوف، وتركت فراشها، رجفة باردة سيطرت عليها ما أن لامست قدمها الحافية الأرض الباردة.

اقتربت من الفراش الآخر وبأيد مرتجفة لامست كتف الجسد الصغير فوق الفراش وهمست بخوف:-

-نور، أنتِ بخير؟

ظل سؤالها معلقًا بلا جواب سوى صمت عميق، التفتت إلى فراشها تخرج ذلك الكشاف الصغير من أسفل وسادتها، وبتردد أضاءته.

ارتجف جسدها بعنف بالغ، وسقط الكشاف أرضًا لتنتفض على صوت اصطدامه، لم تبعد عينيها عنها، اقتربت وهمست مرة أخرى بنبرة باكية:-

-نور!

كان الصمت كصفعة على وجهها دفعتها إلى التراجع بخطوات متعثرة حتى اصطدمت بفراشها، وبحركات رتيبة تمددت فوقه ونظراتها متعلقه بالجسد الآخر وقد سمح لها الكشاف الملقي أرضًا برؤية ملامحه وأعينه المفتوحة بوضوح.

لم تملك أي سيطرة على عبراتها التي تلاحقت فوق وجنتيها، وشهقاتها ارتفعت في تواكب مع ارتجافها.

كانت ساعات الليل الموحشة تمر بدون أي تغير في وضعها، وكأنها تخشى أن تبعد نظراتها عنها فيختفي جثمانها، لتصبح حكاية مُرعبة تتداولها الفتيات في الميتم عن الفتاة التي قضت ليلتها في ذات الغرفة مع جثة صديقتها الميتة.

***

جحظت عيناها في دهشة ما أن خرجت من المبنى لتجد عدي يقف أمامها يستند على سيارته، وما أن رآها حتى اعتدل مبتسمًا واقترب منها، برغم إنها لا تريد أي أحاديث معه إلا إنها لم تستطيع منع نفسها من أن تتساءل:-

-ما الذي تفعله هنا؟!

أجاب سريعًا وكأن وجوده هنا أمرًا بديهيًا:-

-أنتظرك.

زفرت في ضيق ثم حركت كتفها في عدم اكتراث وتابعت طريقها، ولكنه كان له رأي آخر فقد اعترض طريقها متسائلا:-

-إلى أين أنتِ ذاهبة الآن؟

رمقته في برود ثم تحركت مرة أخرى ولكنه اعترض مسارها مجددًا لتزفر في ضيق بينما تنظر إليه، وقد أدركت أنه لن يسمح لها بالتحرك إذا لم تجيبه لذلك فقد أجابت في اختصار:-

-ذاهبة للبحث عن عمل.

ثم رمقته في اتهام بينما تردف:-

-فبسبب ما حدث لن أستطيع العودة مرة أخرى إلى تلك الوظيفة.

بخلاف توقعاتها لم يبدو عليه أنه يعاني من عذاب الضمير بل قال في حماس:-

-يمكنني إيصالكِ بالسيارة حيث تريدين.

رمقته في عدم اكتراث وتابعت طريقها لتتسع ابتسامته ويسير بجوارها على بعد خطوات منها، نظرت إليه ليقول مبتسمًا في طفولية عابثة:-

-سوف أسير بجواركِ في صمت، أقسم.

سارت قليلا ثم توقفت فجأة والتفتت إليه تتساءل في حيرة لم تعد تستطيع منعها:-

-لماذا تفعل كل هذا؟!

ابتسم وأجاب في جدية:-

-لن تفهمين الأمر، ولكن يكفي أن تعرفي إني لن أسمح لأحد بإيذائكِ، ومن ضمنهم أنا أيضًا.

لم تجد ردًا على كلماته وقد أربكها الصدق في نظراته فتابعت طريقها تبحث عن أي وظيفة، وبعد ساعات من البحث المستمر بين المتاجر ومازال عدي

مستمرًا في لحاقها شعرت بالتعب وجلست على أحد أرصفة البحر تلتقط أنفاسها.

ابتسمت ساخرة عندما لاحظت اختفاء عدي، وقد ظنت إنه قد أصابه الملل والتعب لكن تلك الابتسامة تم محوها وهي تراه مقبلا عليها يحمل حقيبة ورقية وضعها بين يديها قائلا:-

-لقد اشتريت بعض الشطائر لنا.

نظرت بداخل الحقيبة لتجد الشطائر، وزجاجه من الماء كادت أن تعترض لكنه قال سريعًا يمنعها:-

-لا بد أنكِ جائعة مثلي، فأرجوكِ لا تعترضي، تخيلي أن الطعام من أي شخص غيري إذا كان هذا سوف يريحكِ.

نظرت إلى الحقيبة مرة أخرى، وتغلب عليها الجوع فبدأت في تناول الطعام بشهية كبيرة خاصة إنها تمتنع عن تناول الطعام في منزل مراد بسبب نظرات والدته الغير راضية التي تستمر في إزعاجها ولكنها لا تملك أي خيار آخر غير البقاء حتى عودة مراد على الأقل.

لم تلاحظ عدي الذي توقف عن تناول الطعام وبدأ في تأملها بمزيج من الحنان والحب، رفعت رأسها لتتلاقى نظراتهما فتثير ارتباكها فأسرعت بالنهوض وتمتمت بشكرٍ واهٍ ثم بدأت في متابعة رحلتها للبحث عن عمل.

دلفت إلى داخل أخر محل وقد أعياها الإرهاق وابتهلت أن تجد غايتها هنا، لم تمر دقائق حتى خرجت من متجر العطور وقد بدا على ملامحها الاسترخاء مما دفع عدي ليتساءل في ترقب:-

-هل حصلتِ على الوظيفة؟

أومأت في هدوء ليبتسم في سعادة بالغة قائلا:-

-مبارك الوظيفة الجديدة.

هزت رأسها وتابعت طريقها للعودة إلى المنزل بينما عدي لا يتوقف عن اللحاق بها كظلها، ولكن تلك المرة لم يكن صامتًا فقد تفاجأت به يقص عليها قصصًا مضحكة من فترات طفولته ومراهقته، كان من الصعب في بعض الأحيان أن تمنع تلك الابتسامة من التسلل إلى ثغرها وقد سحرها بخفة ظله، ولكنها كانت تحاول إخفائها جيدًا حتى وصلت أمام منزل مراد وبدون أن تلتفت إليه دلفت إلى داخل المبنى، ولدهشتها فإن ذلك اليوم كانت أكثر هدوءًا وراحة من أي يومٍ مضى لكن تلك الراحة كانت على موعد مع النهاية وذلك الهدوء قد تبدد تمامًا ما أن فتحت لها والدة مراد وسمحت لها بالدخول صافعة الباب ثم عقدت ساعديها أمام صدرها تشير إلى شاشة الحاسوب المحمول تتساءل في غضب:-

-هل هذا صحيح؟

كان التوتر والقلق مصاحبين شيماء منذ أن دخلت الشقة خاصة أن ملامح وجه والدة مراد لا ينبأ بأي خير قادم، وما أن أشارت إلى شاشة الحاسوب المحمول حتى اتجهت إليه شيماء بخطوات بطيئة متوترة، شحب وجهها حتى كاد يحاكي الموتى عندما قعت عيناها على ذلك المقال وتلك الصورة التي تمثلها أمام المتجر تضع كفها فوق وجهها في حركة دفاعية..

اكتفت بالصمت لتكرر والدة مراد سؤالها في نبرة أكثر عنفًا:-

-هل هذا صحيح؟

نظرت إليها شيماء في ألم وقالت:-

-الأمر ليس كما هو مكتوب لقد...

قاطعتها الأم بعنف:-

-أنا لا أهتم كيف هو الأمر، ولكن ذلك خطأ من أحضرك إلى هذا المنزل بدون أن يفكر في شقيقته الصغرى وسمعتنا بين الناس من حولنا.

كانت مصابة بالجنون وكأنها كانت تنتظر هذا الخبر في شوق حتى تمتلك الحق لطردها من المنزل، شهقت شيماء عندما دفعتها إلى باب المنزل ثم فتحت الباب وألقتها في الخارج.. سقطت أرضًا على أثر الدفعة ونظرت إليها في ذهول وألم لكن الأم لم تبالي بل أسرعت إلى الداخل ولم تمر ثواني إلا وهي تلقي حقيبة شيماء أمامها ثم تصرخ في تحذير:-

-من الأفضل ألا أراكي في أي مكان بالقرب من أبنائي.

عضت على شفتيها في ألم تحاول منع دموعها من الانهمار وقد غمرها الشعور بالإهانة والخزي خاصة أن الجيران قد بدؤوا في الخروج من شققهم لمعرفة مصدر الضوضاء.

نهضت ببطء وحملت حقيبتها ثم خرجت من المبنى منكسة الرأس منكسرة كما لم يسبق لها أن كانت.

ها هي مرة أخرى بلا مأوى، وكأن الحياة لا يمكن أن تبتسم لها فعندما حصلت على وظيفة أخيرًا ها هي تفقد المنزل الذي احتواها.

لم تلاحظ أن سيارة عدي لم تغادر بعد إلا عندما صاح:-

-شيماء، انتظري.

توقفت ليسرع إليها يتساءل في قلق بينما يتأمل الحقيبة في يدها:-

-ماذا حدث؟

بللت شفتيها وحاولت أن تمنع دموعها بينما تقول بابتسامة ساخرة مرتجفة:-

-لقد تم طردي من المنزل.

نظرة واحدة إلى عينيها جعلته يدرك إنها ليست في وضع يسمح له أن يسأل عن أي تفاصيل، ولذلك فقد تساءل بجدية:-

-هل لديكِ أحدًا تستطيعين الذهاب عنده الآن؟

مرغمة تذكرت شهد في تلك اللحظة وظهر جرح الخيانة في عينيها ثم هزت رأسها في رفض فنظر إليها مفكرًا ثم قال:-

-حسنًا، تعالي معي الآن.

رمقته في مزيج من القلق والخوف بدون أن تتحرك من مكانها مما دفعه إلى أن يقول في ترجي:-

-أرجوكِ، ثقي بي قليلا.

أجابت سريعًا وبدون أي تردد:-

-لا يمكنني أن أثق بأي رجل أبدًا.

أردفت والكراهية النقية في عينيها:-

-خاصة رجل من دم عائلة الحداد.

كانت الكلمات جارحة للغاية له خاصة وقد اعتقد سابقًا أنه استطاع التسلل عبر الحصن من حولها وإن كان ذلك بخطوات قليلة لكن كلماتها أثبتت أنه لم يتحرك من مكانه أبدًا، ولذلك فقد تساءل في هدوء:-

-هل رأيتِ مني ما يضايقكِ أو يدفعكِ إلى الخوف مني؟

رمقته في تفكير ولكن صدقها دفعها إلى أن تهز رأسها في رفض مما دفعه إلى أن يردف:-

-إذًا أرجوكِ حاولي أن تثقي بي هذه المرة.

حمل حقيبتها إلى سيارته بينما هي فقد ترددت قليلا ولكن لم يكن هناك أي بدائل فأسرعت خلفه بدون أن تتخلى عن حذرها أو خوفها.

توقفت سيارة أمام مبنى فاخر في حي راقي، ترجلت من السيارة تلحق بعدي الذي يحمل حقيبتها، استطاعت أن تسمعه يخبر الحارس إنها قد اشترت شقته وسوف تعيش بها من الآن فصاعدًا، توترت عندما التفت إليها، ولكنه قال:-

-لا داعي للقلق فالحارس سوف يعتني بأي شيء تريدينه، وإذا احتجتِ إلى أي شيء فقط هاتفيني في أي وقت من الرقم الذي كلمتك منه في المرة السابقة.

التفت ليغادر ولكنها أوقفته تتساءل بدون وعي:-

-إلى أين سوف تذهب؟

ابتسم قائلا:-

-عند صديقي، لا تقلقي.

قالت في عدم اكتراث مصطنع:-

-أنا لست قلقة.

اتسعت ابتسامته وقال بنبرة مداعبة:-

-حسنًا، فلتصعدي مع الحارس الآن.

بعد دقائق كانت تجلس في الشقة الفاخرة، وبعد أن تأكدت من أن الباب موصدٌ استلقت فوق الأريكة تحاول النوم وقد امتنعت عن التوغل إلى داخل الشقة واستخدام أي من غرفها، ولدهشتها لم تكن أفكارها متعلقة بأحداث اليوم المليئة بالآلام بقدر ما كانت تدور حول مواقف عدي، ذلك الشخص الغريب الذي اقتحم حياتها في وقت قد أشبعتها الحياة فيه من الآلام ما يكفيها.

لا تثق به كثيرًا ولكن تثق به كفاية حتى تسكن في منزله، مشاعرها حائرة في الحكم عليه فوصمة عار اسم عائلته تجعله منبوذًا في نظرها.

خلدت إلى النوم بدون أن تجد إجابة صريحة لذلك السؤال، من هو عدي الحداد حقًا؟!

الفصل الحادي والعشرون

دلفت ناهد إلى غرفة سارة وابتسامة على ثغرها فقد بدأ الأمل يسيطر عليها بعد ذهاب سارة إلى الكلية البارحة، وبرغم إنها تغيبت عن العشاء لرغبتها في النوم إلا إن آمالها كانت عالية للغاية لكن سرعان ما اختفت ابتسامتها عندما وجدت سارة تجلس في مقعدها المعتاد أمام النافذة ولم تلتفت إليها، لم ترغب في أن تعود إلى عزلتها القديمة ولذلك فقد اقتربت منها قائلة في نبرة حاولت أن تجعلها عادية:-

-ألن تذهبين إلى الجامعة اليوم يا سارة؟

خيم الصمت حتى ظننت إنها لن تجيبها ولكنها أجابت في تردد:-

-لا أعرف...

تنهدت ناهد ثم جلست بجوارها وقالت في نبرة حانية:-

-لماذا لا تذهبين، فرؤية الآخرين سوف تشغلكِ بدلا من البقاء في سجن هذه الغرفة؟

ترددت كثيرًا ثم حاولت التغلب على مخاوفها ووضع كلمات شيماء نصب عينيها وأومأت في هدوء لتبتسم ناهد في رضى أما سارة فقد كان كل ما يشغلها هو الخوف من الاختلاط بهم مرة أخرى خاصة بعد ما حدث المرة السابقة.

***

كانت تسير متجنبة النظر إلى من حولها ولكنها توقفت فجأة عندما اعترض طريقها فتاتان رفعت رأسها إليهما وقد تعرفت عليهما من المرة السابقة، حاولت أن تتجنب مواجهتهما والمرور من جانبهما لكن إحداهما قد جذبت ذراعها هاتفة:-

-إلى أين أنتِ ذاهبة؟!

رفعت سارة وجهها الشاحب إليهما لترى الكراهية في نظراتهما، ولكن لا يمكن لومهما بسبب الشخص الذي كانت عليه سابقًا.

رمقت الفتاة وجهها الشاحب والحزن في عينيها في شماتة وأسعدها أن تكون على تلك الحالة وقد تبدد كبريائها الزائف وغرورها الذي قد جعل حياتها جحيمًا سابقًا، وبرغم إنها لا تعرف سبب ذلك التغيير لكن أيًا كان السبب فهي سوف تظل شاكرة له، تقدمت منها قائلة عبارات بدت مألوفة لسارة:-

-ألا ترين أمامكِ، أتعرفين ثمن حذائي الذي دهستيه؟!

كانت سارة مذهولة فهي لم تقترب منها ولكن الفتاة أردفت في نبرة آمرة:-

-فلتنظفيه كما دهستيه.

اتسعت حدقتها في صدمة ثم حاولت التملص منها ولكن الأخرى أمسكتها بقوة ودفعتها لتسقط أسفل قدميها، كان الخوف يتسلل إلى قلبها بينما اغرورقت عيناها بالدموع وقد شعرت بالخزي بينما الجميع يراقبها في

شماتة. لم تعرف ماذا تفعل وكأن حس التفكير السليم قد غادرها ظلت متجمدة في مكانها محنية الرأس تتمنى أن تصبح تراب تحمله الرياح بعيدًا عن هنا.

تصلب جسدها عندما لامست يدين كتفيها رفعت رأسها لتجد شابًا بوجه مألوف ولم تحتاج إلا ثواني قليلة لتتعرف عليه..قاسم! ذلك الشاب الذي أغضبها كثيرًا في السابق عندما دافع عن الفتاة التي تشارك في التنمر عليها الآن، لم تفهم نيته لكنها كانت واثقة أنه هنا ليشارك في تعذيبها ولكن لدهشتها فقد ساعدها على النهوض بلطف بدون أن ينظر إلى وجهها.

ارتفع صوت الفتاة معترضًا، ولكنه قال في نبرة لا تقبل أي جدال:-

-هذا يكفي!

قالت الفتاة في حنق:-

-ولكنها تستحق ذلك بعد كل ما فعلته.

نظر إلى قمة رأس سارة التي تقف بجواره محنية الرأس في انكسار، ولأنه كان أكثر الموجودين علمًا بسبب التغير الذي أصابها فقد قال:-

-نحن لا نستغل شخصًا في لحظات ضعفه كي نحصل على انتقامنا فذلك غير أخلاقي..

زفرت الفتاة في ضيق ثم جذبت صديقتها وابتعدت بينما سارة فقد ظلت في مكانها تزرف العبرات في صمت بينما خصلات من شعرها تخفي وجهها عن الأنظار.

تنهد قاسم ثم انحنى يلتقط حقيبتها التي سقطت سابقًا ومد يده إليها بها..بعد تردد رفعت إليه أعينها الدامعة المتألمة ثم التقطت حقيبتها وغادرت الجامعة راكضة تقسم إنها لن تعود مرة أخرى إلى هذا المكان، فقلبها لم يعد يتحمل المزيد، لقد تم كسرها تمامًا حتى تحولت إلى هشيم زجاج لا يمكن إعادة تدويره مرة أخرى.

غادرت بدون أن تلاحظ نظرات قاسم التي تبعتها حتى غادرت وقد رمقها في شفقة، فتلك المرة الأولى التي يراها بها بعد تلك الليلة وكم أثار حزنه رؤية النسخة الفاقدة للحياة التي أصبحت عليها. لقد كان أمرًا مؤسفًا حقًا، وبرغم أنها كانت أسوأ شخص رآه سابقًا لكن ما حدث لها لن يتمناه أبدًا ولو لأسوأ أعدائه.

زفر في ضيق ثم غادر وقد أدرك في قرارة نفسه أن طبيعته اللعينة على وشك أن تقحمه في المشاكل مرة أخرى فهو لن يتركها تدمر نفسها بتلك الطريقة، ولكن يجب أن يفكر جيدًا بشأن الخطوة الأولى في طريق مساعدتها.

***

-ما بكِ يا شهد، فقد قطعتي أجازتكِ فجأة ومنذ أن عدتِ إلى العمل منذ يومين وأنتِ تتحملين أضعاف مهامكِ؟

نظرت إليها بوجه شاحب وأعين تعكس ساعات الأرق التي تعاني منها ثم عادت إلى عملها مرة أخرى قائلة في اختصار:-

-أنا بخير.

كانت كاذبة ولكن لم تملك زميلتها أن تعترض على إجابتها فتركتها وشأنها حتى تقرر التحدث، وقد كانت محقة فلم تكن شهد حقًا بخير بين مشاكل العائلة وشيماء التي لا تجيب على مكالماتها، ولا يمكنها لومها على هذا، ولكنها فقط رغبت في أن تطمئن عليها بعد ما حدث مع الصحافة برغم إنها تعرف أن عدي لن يتركها وحيدة وقد شهدت على الإخلاص في صوته ولكنها رغبت في أن تسمع منها فقط إنها بخير.

ما يزيد من آلامها.. مراد، الذي لا يجيب على مكالماتها أيضًا مهما تكررت، يمزقها إربًا أنه لا يصدق إنها لم تقصد أبدًا أن تؤلم شيماء، وإذا ابتغت الصدق مع نفسها فهناك جزء صغير بداخلها يحزن لأسباب مختلفة شاعرًا بالغيرة من حماية مراد لشيماء وأنه مستعد لمحاربة الجميع من أجلها.

تدرك أنه ليس الوقت المناسب لمشاعرها تجاهه وربما لن يكون هناك وقتًا كهذا أبدًا؛ فسوف تظل شهد من عائلة الحداد والتي تسبب أحد أفرادها الأذى لشيماء، وتدرك جيدًا أن كراهية مراد لها أو لعائلتها لن تنتهي، ولن يمكنها لومه فعندما تفكر في هوية الشخص الذي ارتكب جريمة كتلك في حق شيماء تشعر بالغضب والكراهية والاشمئزاز..

تعترف بإنها جبانة لذلك تمتنع عن أن تعرف الحقيقة عن هويته خوفًا من الألم والخيانة التي قد تتعرض لهما أو تتسبب بهما للعائلة، ولذلك فقد أحنت رأسها في ضعف، ولكن في نفس الوقت لا تستطيع منع نفسها من الاستمرار

في المحاولة للتواصل مع مراد حتى تساند شيماء بطريقة أو بأخرى ولكنها محاولات بدون جدوى.

لكي تمنع نفسها من التفكير في أي شيء تجهد نفسها في العمل حتى وقت متأخر ثم تعود إلى منزل عائلتها مرهقة للغاية فتنام حتى الصباح التالي، ويتكرر الأمر خاصة أنها لم ترغب في العودة إلى الشقة التي تشاركتها مع شيماء وقد شعرت أنها سوف تضاعف من أحزانها.

زفرت في ضيق ثم نظرت إلى شاشة هاتفها في أمل أن يهاتفها مراد وقد شعر بصدقها ولكنه كان المستحيل بعينه، هل سوف يرى صدقها يومًا ما؟!

***

كانت أميرة ما زالت في عزلتها وكأنها تحاول التعافي من صدمتها في أدهم، وبرغم أنها لا تعرف بعد سر تلك الفتاة إلا أن نظراتها الخائفة وشحوب وجهها في الأخبار قد أثار شفقتها، وأن يكون أدهم هو المسؤول عن ذلك قد صدمها كثيرًا.

تنهدت بينما ترتدي ثيابها فيجب أن تختلط مع الأسرة حتى لا تثير قلق والدتها فيكفي ما تعانيه من قلق بسبب غياب عدي، وبدأت أفكارها تحوم حول عدي فما زالت تتعجب من تعلقه بتلك الفتاة وتصرفاته المندفعة بدون أن يبالي بأي أحد.

زفرت في ضيق وقد شعرت باشتياق شديد إلى شقيقها..دقات على باب الغرفة انتزعتها من أفكارها فتعجلت بارتداء ثيابها وخرجت من الغرفة لتتجمد ملامحها عندما وجدته أدهم، نظرت إليه بوجه خالي من أي تعابير وتحركت من أمامه متجاهله إياه ولكنه أوقفها قائلا:-

-أميرة، أنا لا أعرف حقًا ما الذي قد فهمتيه عندما استمعتي إلى محادثتي، ولكن لا تحكمي علي قبل أن تعرفي الحقيقة كاملة.

التفتت إليه في غضب وقالت:-

-أنا لا أريد أن أعرف شيئًا، فليس هناك مبرر أن تكون السبب في نظرة الخوف في عين تلك الفتاة.

كررت بينما تنظر إليه في خيبة أمل:-

-لا يوجد مبرر يا ابن العم.

تركته واقفًا واتجهت إلى الأسفل بينما هو فقد شعر بألم شديد وشعور من الخزي فنظرة تلك الصغيرة التي دائمًا ما كانت تتطلع إليه وكأنه بطلها قد أصابته في مقتل، ومجرد التفكير أنه قد شوه صورته في عينيها قد أزعجته كثيرًا ربما أكثر مما توقع.

حاول أن يتجاهل تلك المشاعر مقنعًا نفسه أنه لم يرتكب أي خطأ وعندما تعرف أميرة الحقيقة سوف تسامحه بالطبع، وسوف تدرك أنه يفعل كل ما في استطاعته للمحافظة على سمعة تلك العائلة.

بينما هو في سيارته كانت أفكاره تقوده بدون أي سيطرة منه إلى ذكرياته مع أميرة، تلك الطفلة الحلوة التي كانت دائمًا ما تلحق به في كل مكان ودائمًا ما تخبره عن حبها له وتفضيلها له عن عدي حتى ووالدها أيضًا.

مرغمًا فكر في اعترافها السابق ولعن نفسه على رد فعله القاسي ولكنه كان يفكر في صالحها؛ فهي ما زالت صغيرة لتعتبر مشاعرها حب كما أنه لا يملك مثل تلك المشاعر تجاهها، أو هكذا يؤمن على الأقل.

زفر في ضيق شاعرًا بأن حياته المستقرة عادة قد أصبحت في فوضى عندما بدأت أميرة في تجاهله وكل ما يحتاجه لكي تعود الأمور إلى ما كانت عليه هو أن تتصرف معه كما اعتادت من قبل.

قرر أخيرًا، ولسلامته العقلية، أن يتحدث معها عند عودته في المساء حتى يبرر لها سبب تصرفاته التي أزعجتها منه ودفعتها إلى تجاهله. كان ذلك القرار والتنبؤ بنتائجه كافيًا ليجعل يومه يسير على خير ما يرام.

***

تململت شيماء ثم انتفضت فجأة عندما لم تتعرف على المكان من حولها، بعدما تبددت الغمامة عن عقلها الضبابي تنهدت واعتدلت جالسة تأملت المكان من حولها لأول مرة ثم نهضت وبدأت تبحث عن مكان الحمام.

كانت الشقة رجولية تمامًا بلون جدرانها ويبدو أنه يتم العناية بها جيدًا من حيث النظافة وغيرها، غسلت وجهها ثم نظرت إلى انعكاسه في مرآة الحمام

بشرود فقد حان وقت المواجهة والتفكير في خطوتها التالية فلن تبقى للأبد في منزل عدي يجب أن تبحث عن مكان آخر ولكن مشكلة المال كانت لها بالمرصاد.

زفرت في يأس وشعور العجز يقيدها، بدلت ثيابها ثم قررت أن تترك حقيبة ثيابها هنا ثم تتجه إلى العمل وربما تسأل صاحب العمل عن شقة للإيجار ويمكنه خصم الإيجار من مرتبها حتى وإن لم تحصل إلا على ما يكفي قوت يومها هذا سوف يكون أكثر من كافي لها، وعندها يمكنها العودة لأخذ حقيبتها. دفعها ذلك الأمل إلى أن تشعر بشعور أفضل.

غادرت المبنى لتتوقف فجأة وقد تعرفت على سيارة عدي رمقتها في حيرة ثم اقتربت منها لتشهق عندما وجدته نائمًا بداخلها، نقرت على زجاج السيارة لينتفض سريعًا ثم استرخى عندما رآها أمامه وابتسم بنعاس ثم خرج من السيارة بتكاسل قائلا:-

-صباح الخير، هل نمتِ جيدًا؟

تجاهلت سؤاله وتساءلت في حيرة:-

-لماذا تنام هنا؟!

ابتسم في خجل وقال:-

-لقد سافر صديقي الوحيد، ولا أملك مكانًا آخر حاليًا.

تساءلت في تردد برغم البغض في نظراتها:-

-ماذا عن منزل عائلتك؟!

ابتسم قائلا في بساطة:-

-غير مسموح لي بالعودة إلى هناك.

أردف مداعبًا:-

-إن الأمر معقدٌ قليلا.

ظهر في عينيها تأنيب الضمير وقد أدركت أنها من تسبب في ذلك مما دفعه إلى أن يقول:-

-لكن لا داعي للقلق أبدًا فسوف أجد حلا، لا تقلقي.

كان يدرك أنه كاذبٌ فالمال الذي معه على وشك النفاذ خاصة أن والده قد جمد حسابه المصرفي، وحاليًا لا يملك في نطاق ممتلكاته إلا الشقة والسيارة حيث إنهما هدية والدته له، ولكنه أراد أن يطمئنها بأي ثمن حتى وإن قال الأكاذيب في سبيل ذلك.

أخفضت عيناها في خجل ولأول مرة تشعر بصدق نواياه ثم همست في ضعف:-

-أنا آسفة حقًا

ثم أردفت:-

-ولكني سوف أجد مكانًا آخر اليوم، وحينها يمكنك العودة إلى منزلك.

قال في واقعية:-

-أنا لا أريد إحباطكِ ولكنه من الصعب الحصول على مكان للإقامة بسهولة خاصة لفتاة.

زفرت في ضيق وقالت:-

-إذًا ما الحل؟ فلن أسمح بأن أحتل منزلك بتلك الطريقة وبدون أي حق بينما أنت تنام في سيارتك.

تأملها في صمت مفكرًا ثم قال بنبرة متأنية:-

-هناك حل ما..

نظرت إليه في ترقب ليردف في ثقة بعد صمت طويل:-

-تزوجيني؟

الفصل الثاني والعشرون

بعد انتشار خبر وفاة نور بين فتيات الميتم بسبب مرض قلبها وأدرك الجميع إنها قد قضت الليلة مع جثمانها بدأت القصص تسرد عنها، قصص خيالية وأخرى مرعبة بغرض التسلية ولكنها تسببت في إخافة العديد من الفتيات، وبالتالي فقد أصبحن يتجنبوها في خوف بينما الجزء الآخر من الفتيات الأكبر سنًا منها فقد كن يتنمرن عليها.

تمددت فوق فراشها تحدق بسقف الغرفة في شرود ثم حانت منها التفاتة إلى الفراش الفارغ منذ شهر فقد كانت الأقاويل تتلاحق عن إن شبح نور يتجول ليلا في الغرفة.

ابتسمت بحنين بينما تتذكر صديقتها الجميلة التي كانت تتعامل معها وكأنها والدتها رغم إن الفرق بينهما لم يكن إلا عام واحد.

توترت ملامحها فجأة عندما أنصتت إلى صوت أقدام مألوف يقترب من باب غرفتها، توقفت عن التنفس وقد عادت بذاكرتها إلى تلك الليلة المشؤومة.

مع كل خطوة كانت دقات قلبها تزداد في عنف، جاهدت لتحاول التنفس بدون جدوى وكأنها تناست تلك الطبيعة البشرية.

كانت الخطوات قريبة للغاية حتى توقفت أخيرًا، انكمش جسدها فوق الفراش، ولكن خلافًا لتوقعاتها لم يدلف أحد بداخل غرفتها لتتنفس الصعداء أخيرًا.

لم تستطيع منع نفسها من التساؤل عن وجهة صاحب تلك الخطوات، وبعد صراع طويل مع ذاتها الخائفة تركت فراشها واتجهت بخطوات بطيئة تجاه باب غرفتها، فتحته ببطءٍ شديدٍ وأطلت برأسها الصغير لترى ما يحدث في الخارج.

جحظت عيناها وارتجف جسدها في عنف، جاهدت لتمنع نفسها من صفع الباب والعودة إلى أمان فراشها، وتابعت صاحب الأقدام وذلك الجسد الصغير يتلوى بين ذراعيه بينما كفه يكمم فمها متابعًا السير بدون أي مبالاة.

بعد تردد طويل تسللت خلفه بحذر تحرص على أن تلتصق بالحائط وتتخذ المناطق المظلمة في طريقها حتى لا يُكشف أمرها، تحارب ذلك الصوت بداخلها الذي يدفعها للعودة إلى غرفتها سريعًا قبل أن يصبح الوقت متأخرًا للتراجع.

توقف الرجل أمام غرفة المشرفة التي تقع في نهاية الممر، استطاعت التعرف على المشرفة ما أن فتحت الباب ثم تنحت جانبًا لتسمح للرجل بالدخول.

التصقت بالحائط في خوف عندما تفحصت المشرفة المكان بعينيها في حذر، ولعل ضآلة جسدها ساعدتها على التخفي فتنهدت بارتياح عندما أغلقت المشرفة الباب.

استجمعت شجاعتها واقتربت من الباب بخطوات مرتجفة، وبداخلها إدراك عميق إن ما وراء ذلك الباب الموصد سوف يغير العديد من الأشياء.

***

-تزوجيني؟

ظهرت تعابير الصدمة والذهول على ملامحها بشكل مضحك ولكنه كان متوترًا يترقب إجابتها ليلاحظ ذلك حتى همست في تلقائية:-

-هل فقدت عقلك؟!

ابتسم في ارتباك وقال كاذبًا:-

-ربما كانت مزحة!

نظرت إليه في ضيق وتابعت طريقها ليوقفها صوته قائلا في شجاعة واندفاع:-

-لم أكن أمزح، فكري في الأمر بجدية.

لم تلتفت إليه برغم ذهولها من هذا الطلب الغير متوقع خاصة منه وفي ظل تلك الظروف.. تابعت طريقها إلى العمل وبدون أن تلتفت كانت متأكدة من لحاقه بها.

دخلت المحل ثم لم تستطع منع نفسها بعد برهة من أن تخرج لتلقي نظرة على ظهره وقد التفت عائدًا، كانت نظراتها متأمله تحاول اختراقه والتعرف على شخصه الحقيقي. تنهدت في حيرة ثم اتجهت إلى الداخل لتبدأ عملها.

***

-ما الذي سوف نخبر مراد به عند عودته اليوم؟!

تساءلت منى والشعور بالذنب في نظراتها بعدما لم تستطع منع والدتها عما فعلته في شيماء.

صاحت الأم في ضيق:-

-توقفي عن التحدث عن تلك الفتاة، وعندما يأتي شقيقكِ لا تتحدثي أبدًا.

-لكن...

توقفت عن المتابعة عندما رمقتها بنظرات غاضبة لتزم شفتيها في ضيق وتذهب إلى غرفتها بينما الأم فقد كانت تفكر فيما تخبر به مراد لتبرر به غياب تلك الفتاة، ولكن الوقت لم يسمح لها بذلك فقد استطاعت سماع صوت طرقات على الباب وبالفعل كان مرادًا وقد بدا عليه الإرهاق.

استقبلته في اشتياق وكذلك منى التي انطلقت كالصاروخ من غرفتها عندما سمعت صوت شقيقها، بعد دقائق من تبادل التحيات وعبارات الاشتياق جلس مراد يلتقط أنفاسه ثم نظر من حوله وكأنه انتبه أخيرًا.

تساءل بحيرة:-

-أين شيماء، أليست هنا؟!

ظهر التوتر والارتباك على ملامح منى بينما الأم فقد سيطرت على ملامحها وقالت في فتور:-

-لقد غادرت.

ردد في عدم فهم:-

-غادرت؟!

أردفت الأم:-

-لقد قالت إنها قد وجدت مكانًا آخر وغادرت.

انتفض مراد في دهشة قائلا:-

-أين ذهبت، وكيف وجدت مكانًا آخر؟!

-لا أعرف فلم تترك أي عنوان لها.

بدا على ملامحه القلق الشديد، ورمق والدته في شك ثم قال بينما يتجه إلى باب الشقة سريعًا:-

-يجب أن أبحث عنها.

صاحت الأم في أثره:-

-دعها وشأنها، أنه قرارها.

لم يبدو أنه اهتم كثيرًا بكلماتها فقد غادر الشقة تاركًا إياها تحترق من الغضب تجاه تلك الفتاة عديمة الأخلاق التي سحرت ابنها، ولكنها لن تسمح أبدًا بعودتها إلى هنا أو إلى حياة ابنها مهما كان الثمن.

***

كانت تعمل بجد وكأنه ليس هناك ما يفوق عملها أهمية، بملامح باردة اعتادها زملائها في الأيام الأخيرة فقد كانت مختلفة منذ الإجازة الماضية وكأنها فاقدة للحياة وقد خمن البعض أن يكون السبب بعض المشاكل العاطفية.

رمقتها صديقتها في إشفاق، واتجهت إليها تحاول التحدث معها مرة أخرى فهي تقتل نفسها بذلك المجهود الذي تبذله لكنها توقفت وانطلقت صرخة منها عندما سقطت شهد أرضًا أمام عينيها.

ركضت إليها تحاول إفاقتها بدون جدوى، أسرع الجميع إليها ونُقلت شهد إلى إحدى الغرف وتم استدعاء الطبيب ليكشف عليها.

نظرت إليها في عطف وقد بدت فاقدة لأي قوة بشحوب وجهها والهالات السوداء أسفل عينيها. تنهدت في ارتياح عندما جاء الطبيب، والذي كان نتيجة فحصه متوقعة فقلة الطعام والمجهود الزائد جعلاها على تلك الحالة.

جلست بجوارها لقليل من الوقت والحيرة تسيطر عليها عن سبب ذلك التغير الذي أصابها، وهل الأمر متعلق حقًا بمشكلة عاطفية؟!

زفرت في إرهاق ثم أسرعت تتابع عملها، وقد قررت ألا تخبر عائلتها حتى لا تثير قلقهم، بدون أن تلاحظ تململ شهد في عدم ارتياح وهمسها في خفوت:-

-مراد!

***

دلف أدهم إلى شركة العائلة بخطوات واثقة، واتجه رأسًا إلى غرفة عمه سيف الذي قابله في ترحاب مصطنع.

جلس أدهم ثم قرر التحدث مباشرة فقال:-

-عمي، ألن تعيد عدي إلى المنزل؟!

تغيرت ملامح سيف، وأجاب في اقتضاب:-

-لا أريد أن أسمع عن هذا الموضوع مرة أخرى.

اعترض أدهم:-

-ولكن يا عمي...

قاطعه سيف قائلا في فتور:-

-هو من فضل تلك الحقيرة على أسرته، فليتحمل نتائج فعلته، وعندما يعرف خطأه سوف يعود مرة أخرى.

زفر أدهم في ضيق وقد أدرك أنه لا يوجد ما يستطيع فعله لتغيير رأي عمه، وإن مهمته قد فشلت لذلك فقد استأذن مغادرًا.

ألقى التحية على الجميع في طريقه للخارج ولكنه توقف عندما التقى بوجه مألوف سرعان ما تعرف عليه فقد كان مساعد عمه خالد، ولكنه قد بدا مختلفًا أكثر شحوبًا وكأن هموم الدنيا تثقل كاهله، أتجه إليه محيًا ليجيب الرجل في احترام وحزن.

تساءل أدهم في فضول:-

-هل أنت بخير؟

اغرورقت عيناه بالعبرات وأجاب في اختصار:-

-لقد توفيت ابنتي الوحيدة.

ظهر كلا من الحزن والتعاطف على ملامحه قائلا:-

-البقاء لله.

أومأ الرجل في شرود واستأذن ليذهب في طريقه، ولكن أدهم لم يشعر بالارتياح من غير سببٍ واضحٍ، ولذلك اتجه إلى الخزانة يطلب زيادة في المرتب لهذا الرجل ثم غادر الشركة وقد تناسى الرجل تمامًا، وبدأ يفكر في أمر عدي، فهو لن يترك ابن عمه في رحمة تلك الفتاة التي استغلته.

يجب عليه أن يجده ويعيده إلى البيت مرة أخرى لكن المشكلة في تجاهل عدي لاتصالاته، ولذلك فقد قرر اللجوء إلى الحل الأخير خاصة بعدما لم يجد أي استجابة من عمه سيف.

هاتف محققًا خاصًا وطلب منه أن يبحث عن مكان تواجد عدي وأن يرسل إليه تقريرًا عما فعله في الأيام الماضية، وإذا كان قد تواصل مع الفتاة مرة أخرى بعد موقف الصحافة، والذي قد كلفه الكثير من النقود حتى لا ينشروا أي صور لعدي في نسخهم المطبوعة فيكفي إنه ظهر في البث المباشر برغم أن ملامحه لم تكن واضحة لحسن الحظ.

بعدما انتهى من مكالمته قاد السيارة وكل ما يشغل تفكيره هو التخلص من تلك الفتاة التي أصبحت كالألم في الخاصرة، وحماية اسم عائلة الحداد الذي تحاول جاهدة أن تشوهه.

***

كانت شيماء تعمل بجد فربما ذلك يساعد في طلبها من صاحب العمل أن يساعدها في الحصول على منزل، وقد كانت محقة فقد كان أكثر من راضي عن عملها وتعاملها مع الزبائن خاصة أن العامل السابق كان مهملا إلى أقصى الحدود وقد كان الأمر منهكًا البحث عن أحدٍ آخر ليحل محله.

التقط جريدة قديمة كان قد تركها موظفه السابق وبدأ يتفحصها في كسل تاركًا مسؤولية المحل على شيماء، ولكن بعد دقائق قليلة جحظت عيناه ونظر إلى صفحة محددة في الجريدة ثم رفع رأسه متأملا شيماء، وكانت نظراته لا تنبأ بأي خير.

تنهدت شيماء في ارتياح بالغ عندما انتهى دوامها وقد حان وقت مغادرتها لكنها قررت استجماع شجاعتها لتحدث صاحب العمل عن محل إقامة مناسب لها.

اتجهت إليه وقالت في حياء:-

-أستاذ محسن، لقد كان هناك موضوع أريد التحدث معك عنه إذا كان هذا مناسبًا.

ابتسم باتساع تاركًا مكانه خلف المكتب وقال:-

-بالطبع.

تراجعت خطوة إلى الخلف في ارتباك عندما شعرت بخطر من اقترابه منها برغم أنه لم يكن شديد الاقتراب إلى هذا الحد.

لاحظ ابتعادها ولم يتجاهل الأمر كما توقعت مكتفيًا بالاحتفاظ بمسافة آمنة بينهما بل قال في سخرية خفية:-

-لماذا تراجعتِ إلى الخلف؟!

لم تفهم حقًا سبب السؤال أو الإجابة التي يريد سماعها، ولكنه لم يسمح لها بالتفكير أكثر فقد جذبها بين ذراعيه صائحًا في شهوة:-

-أليس من حقي أنا الآخر فحص البضاعة مثل السابقين؟!

كانت مصدومة ومذعورة فبدأت تتخبط لتتخلص من ذراعيه، ولكنه كان قويًا للغاية، ما أن دفعها إلى الحائط بعيدًا عن أنظار المارة في الخارج، والذي قل وجودهم في هذا الوقت، حتى بدأت الذكريات تُعرض أمامها بكل وضوح خاصة مع اقتراب وجهه منها.

كانت تبكي وتضربه بقبضتها وتخدشه بأظافرها لكن بدون جدوى، أحبط مقاومتها بصفعها ثم قيد بقبضته معصميها. صرخت كغزال جريح بينما الدموع لا تتوقف فتلك المرة تعني موتها حقًا لن تتحمل حدوث ذلك مجددًا، ولكن سرعان ما شهقت بعنف تلتقط أنفاسها عندما تم دفعه عنها ومن بين دموعها استطاعت رؤية وجه عدي المألوف وهو ينهال ضربًا على صاحب المحل.

سقطت أرضًا تضم جسدها إليها بينما دموعها تنهمر بدون توقف وصوت نحيبها يعلو مما يزيد من غضب عدي وشراسة لكماته.. استطاع الرجل التخلص من قبضة عدي وألقى الجريدة إليه، وبينما يلتقط أنفاسه بصعوبة صاح:-

-إنها عاهرة، فما الذي أخطأت فيه؟

نظر إليه عدي في غضب جنوني وكاد أن يقترب منه وتلك المرة كان موت الرجل مؤكدًا لكن صوت شيماء الباكي قد أوقفه فقد همست في توسل:-

-أبعدني عن هذا المكان يا عدي.

رمق الرجل في غضب ثم ألتقط التحفة الموضوعة فوق المكتب وقذفها في اتجاه الواجهة الزجاجية التي كانت تحمي المعروضات لتسقط جميعها أرضًا ثم نظر إلى وجهه الخائف مرة أخيرة واتجه إلى شيماء يحيط كتفها ويساعدها على النهوض ثم قادها إلى خارج المحل.

كانت تتحرك معه في استسلام بالغ، وفي سيارته لم يكن هناك صوت مسموع إلا انهمار دموعها مما أشعره بالعجز الشديد وهو يراقب دموعها بدون أن يعرف كيف يخفف عنها.

أوقف السيارة فجأة محدثة صريرًا والتفت إليها سريعًا في ذهول عندما قالت بنبرة خالية من المشاعر والدموع عالقة في رموشها:-

-أنا موافقة على طلبك للزواج.

أردفت بينما تنظر إلى عينيه بحدة:-

-ولكن يجب أن تعرف حقيقة ما حدث لي، وسر الكراهية بيني وبين أسرتك.

-أنا أعرف ما حدث في الماضي..

قاطعته بحدة:-

-وهل تعرف أن عمك العزيز هو من اغتصبني؟

منذ أن عرف وكان هناك متهم مُحتمل واحد فقط في عائلة الحداد يمكن أن يرتكب جريمة بتلك البشاعة، ظنت أن صمته يعني أنه لا يصدقها فقالت بسخرية:-

-هذا ما توقعته.

ابتسم في وهن:-

-ليس الأمر كذلك، فقد خمنت ذلك بل كنت أتوقعه أيضًا.

أردف في احتقار متجنبًا النظر إليها:-

-فخالد الحداد دائمًا ما كان وغدًا تحركه شهواته، ولقد تعرفت على ذلك الوجه منه في سن صغير عندما كنت مجرد طفل يستمر في رؤية عمه يتحرش بالخادمات في المنزل بدون توقف جاعلا من حياتهن جحيمًا فيتركن العمل في نهاية الأمر وهكذا استمر الأمر لأعوام حتى قررت جدتي استخدام خادمات كبار في السن معتقدة أن سبب مغادرة السابقات هو عنفوان الشباب الطائش.

ضحك في استهزاء ثم التفت إليها وظهر الصدق في عينيه قائلا:-

-أنا فقط أريدكِ أن تثقي إني لست مثله، وسوف أدعمكِ بكل ما أملك حقًا.

أردف في تساؤل والتردد في عينيه:-

-والآن، هل توافقين على الزواج بي؟

كانت تدرك أنها لا تملك أي بدائل فقد أصبح الجميع يطمع بها خاصة بعد ما نشرته الصحافة ولن يمكنها الصمود وحيدة بعد الآن وبدون منزل أيضًا، ولذلك فقد أومأت في انكسار بدون أن تلاحظ نظراته الحانية التي احتواها بها وابتسامته السعيدة بينما يقود السيارة مرة أخرى فعلى الأقل أحدهما متفائل بذلك التغير في سير الأحداث وبطريقة غير متوقعة.

***

توقفت السيارة أخيرًا أمام المبنى الذي يضم شقته وقبل أن تترجل شيماء أوقفها عدي متسائلا في حماس لم يستطيع منعه:-

-ما رأيكِ أن يكون كتب الكتاب الليلة، أنا لا أرى أي مبررٍ للتأجيل؟

ظلت مصدومة لبرهة من سرعة سير الأحداث، ولكنها أدركت في انكسار إنه لا يوجد سبب للتأجيل حقًا، فإذا لم يحدث الآن سوف يحدث لاحقًا لا يوجد أي بديل، ولذلك فقد أومأت بدون أن تنظر إليه وترجلت من السيارة في صمت تلحقها نظراته المليئة بالحب والعطف.

انتبه إلى رنين هاتفه، اتسعت ابتسامته وأجاب هاتفًا:-

-كنت على وشك الاتصال بكِ.

تساءلت مريم في دهشة:-

-حقًا؟!

هتف بحماس:-

-هناك ما أريد إخبارك به.

صمت برهة ثم استطرد:-

-أريد أن أتزوجها الليلة يا أمي.

كان وقع الصدمة شديد عليها فظلت صامتة لفترة طويلة مما دفع عدي إلى أن يهتف في دفاع:-

-إنها ليست كما يقولون صدقيني، أنا أريدها في حياتي.

تساءلت بتأني:-

-هل أنت متأكد من ذلك؟

أجاب سريعًا وبدون أي تفكير:-

-أجل متأكد.

تنهدت وبرغم أن ذلك ليس ما كانت تتمناه، فطالما حلمت بأن تذهب معه إلى منزل فتاته والتعرف على أهلها، ولكن يبدو أن القدر مرة أخرى لا يقف في صفها، وفي سبيل سعادته لا يمكنها الرفض فلن تجعل ابنها يعاني ما عانته أبدًا، ولذلك فقد قالت في رضوخ:-

-أيًا كان قرارك سوف أدعمك، برغم طبيعتك العابثة غالبًا ولكني دائمًا ما أثق في بصيرتك.

اتسعت ابتسامته بينما ظهرت الفرحة على ملامحه وقال:-

-هذا ما كنت أحتاج إلى سماعه حقًا.

أردف في حماس:-

-سوف يكون كتب الكتاب الليلة، هل يمكنكِ المجيء لتكوني بجوار شيماء فهي لا تملك أحدًا؟

هتفت في تذمر:-

-بالطبع سوف آتي، فلن يستطيع أحد منعي من حضور زواج ابني!

ابتسم عدي وانتهت المكالمة وقد زادته سعادة ويقينًا من قراره، فما الذي ينقصه بعد دعم والدته له؟!

على الجانب الآخر كانت مريم وبرغم الظروف المحيطة إلا إنها شعرت بالسعادة من أجل ابنها متجاهلة عن عمد الشبهات حول فتاته، فإذا كان هناك شخص يستطيع النظر من خلال الأشخاص والتعرف على روحهم الحقيقية فهو عدي حتى إنها كانت تتعجب دائمًا من الشخص الذي أصبح عليه، مزيج من العبث وعمق البصيرة، ابتسمت في فخر واستعدت لترك الغرفة فهي لا تريد لسيف أن يعرف إنها تتواصل مع عدي..

فبعد آخر شجار امتنعت عن التحدث معه تجنبًا لأي جدال قد يؤثر على صحة أميرة النفسية والتي لاحظت إنها تأثرت كثيرًا بآخر جدال فقد أصبحت أكثر هدوءًا وانطوائية خاصة مع غياب شقيقها.

ما أن فتحت باب الغرفة حتى تجمدت مكانها عندما تلاقت عيناها بالشخص الذي يقف أمام الباب، ونظرة واحدة جعلتها تدرك أن محادثتها مع عدي قد تم الاستماع إليها بالكامل.

الفصل الثالث والعشرون

شعرت أميرة بالاختناق بداخل غرفتها وسيطرت عليها مشاعر الاشتياق إلى شقيقها فطبيعته المرحة كانت لتخفف عنها الضيق الذي يسيطر عليها.

قررت أن تتحدث مع والدتها فمن المؤكد أنها تعلم مكانه، اتجهت إلى الغرفة وقبل أن تدق الباب استطاعت أن تسمع صوتها فتوقفت في مكانها تستمع إلى حديثها وقد أدركت إن محادثها هو عدي، استمعت في صمت وعندما حل الهدوء في الغرفة كادت أن تقرع على الباب ولكنه فُتح بالفعل.

وقفت أمام والدتها في ارتباك ثم قالت بصدق:-

-أريد أن أذهب إلى عدي.

تنهدت مريم ثم سمحت لها بالدخول، وبدأت تخبرها عن قرار عدي، وبدت أميرة متحمسة للغاية للذهاب إلى زواج شقيقها، وقد حسمت أمرها على تنفيذ ذلك القرار الذي فكرت به طويلا، فذلك هو الوقت المناسب لتنفيذه.

قالت أميرة أخيرًا بينما تتجه إلى غرفتها:-

-سوف أجهز ثيابي لأذهب معكِ الليلة.

أومأت مريم ثم كررت تحذيرها:-

-لا ترتدي ثيابًا مبالغ بها حتى لا يتم الشك بنا، فسوف نقول إننا ذاهبتان لزيارة صديقة لي، حسنًا؟

أومأت أميرة في صمت ثم اتجهت إلى غرفتها وبدلا من أن تجهز زي مناسب بدأت تضع مجموعة من الملابس تتنوع بين المنامات المنزلية وثياب للخروج في حقيبة صغيرة، ثم استدعت إحدى الخادمات وقالت في حزم:-

-ضعيها في سيارة أمي، ولا تدعي أي شخص يراكِ، حسنًا؟

أومأت الخادمة في طاعة وبالفعل نفذت ما أُمرت به، وعادت لتخبر أميرة فتنهدت الأخيرة في ارتياح وشكرتها ثم بدأت في تجهيز ثياب مناسبة للخروج وقد شعرت بالارتياح والبهجة أن خطتها تسير على أفضل حال، وإذا تم الأمر فاليوم هو آخر وقت لها في ذلك المنزل، وبذلك سوف تتجنب الضيق وألم قلبها الناتج عن رؤية أدهم عدة مرات في اليوم الواحد.

***

مازال مراد يبحث عن شيماء في كل الأماكن المحتمل تواجدها بها بدون أي نجاح حتى انتهى به الأمر بالاتصال بهشام حتى يساعده في البحث برغم إنه لم يهاتفه إلا من فترة متسائلا إذا كان هناك أي أمل متعلق بقضية شيماء، وبينما هو يتجول في الطرقات أتى إلى خاطره شهد، آخر شخص قد تفكر شيماء في اللجوء إليه، ولكن هناك الكثير من الاحتمالات فربما لم تملك أي اختيار إلا هذا، ولذلك فقد أخرج هاتفه وبدأ يحاول الاتصال بها بدون جدوى فقرر أن يتجه إلى المشفى الذي تعمل به.

-أريد مقابلة ممرضة اسمها شهد إنها تعمل هنا.

قالت الممرضة في حزن:-

-لا بد أنك من أسرتها، إنها نائمة في غرفة 101، يجب أن تقنعها بأن ترتاح أكثر من هذا فهي تعمل بدون توقف في الآونة الأخيرة.

لا ينكر أن معرفة ذلك قد ألمته، وازداد الألم عندما رأى وجهها الشاحب ما أن دخل الغرفة، كانت مستيقظة شاردة ولكنها انتفضت عندما رأته هاتفة في ذهول:-

-مراد!

حاول أن يتجنب النظر إليها متسائلا في فتور مصطنع:-

-هل أنتِ بخير؟

حاولت الابتسام بدون تحقيق أي نجاح في ذلك وأجابت:-

-أنا بخير..

أردفت في توسل:-

-مراد أنا...

قاطعها في تساؤل:-

-هل رأيتِ شيماء بعد آخر مرة؟

-شيماء! لا لم أفعل، هل...

قاطعها رنين هاتفه، أجاب سريعًا عندما وجده هشام، ظهر الذهول على ملامحه ثم ترك مقعده في غضب ما أن عرف مكان شيماء وأدرك موضوع الزواج ثم نظر إلى شهد هاتفًا في احتقار قبل أن يغادر سريعًا لمنع تلك الكارثة:-

-اللعنة عليكم يا عائلة الحداد.

***

ربما كان هذا أكثر زواج هادئ قد حضره المأذون طيلة حياته، فالعروس ترتدي ثيابًا عادية بينما وجهها شاحب بدون أي بهجة وأعين خالية من الحياة أما العريس فقد كان يرتدي الجينز ولا يبعد عينيه عن وجه العروس، والسيدة وابنتها يتابعان في صمت أما الشاهدين فلم يبدوا مقربين للأسرة وابتسامة هادئة على ثغرهما.

أنهى الزواج بجملته المعتادة "بارك الله لكما وبارك عليكما" لتقترب مريم من عدي وتحتضنه في تهنئة وبالمثل فعلت مع شيماء التي لم تحاول أن تبادلها العناق وقد كانت في حالة من الذهول.

ربتت مريم مرة أخرى فوق كتف شيماء في حنان ثم قالت:-

-يجب أن نذهب الآن حتى لا نتأخر.

أومأ عدي في تفهم، ولكن أميرة صدمت الجميع بقولها:-

-أنا لن أعود، سوف أبقى هنا مع عدي.

نظر الجميع إليها بينما تساءلت مريم في صدمة:-

-ما الذي تعنيه إنكِ لن تعودي معي؟!

قالت في تصميم:-

-أنا لا أريد العودة إلى هذا المنزل بدون عدي، أريد البقاء هنا معه.

أردفت في توسل:-

-أرجوكِ وافقي يا أمي، أرجوكِ.

كان الرفض واضحًا على ملامحها ولكن عدي تدخل واضعًا ذراعه حول كتف أميرة قائلا في هدوء:-

-دعيها معي، ولا تقلقي.

ثم أردف في تساؤل لشيماء:-

-إذا كانت شيماء لا تمانع؟

تفاجأت شيماء من إشراكه لها في هذا الأمر العائلي وكأن رأيها ثمين بالنسبة له، حركت رأسها في رفض وأجابت في صدق:-

-بالطبع لا أمانع.

ولتعترف بالحقيقة فقد شعرت بالارتياح لتصميم أميرة على البقاء مع شقيقها، وبذلك لن تحتاج إلى البقاء وحيدة مع عدي خلف أبواب الشقة الموصدة.

رضخت مريم أمام إصرارهما ثم اصطحبها عدي إلى الأسفل حتى ركبت سيارتها ثم تساءل:-

-ماذا سوف تخبريهم في المنزل عن أميرة؟

تنهدت ثم قالت في حسم:-

-الحقيقة فقط.

ابتسم ولوح لها مودعًا حتى اختفت من أمامه ثم صعد مرة أخرى إلى الشقة معه حقيبة أميرة التي نجحت في إخفائها في السيارة، ولكن ما أن دخل إلى الشقة حتى أسقط الحقيبة أرضًا عندما سمع صوت رجل يأتي من غرفة المعيشة، هرع سريعًا إلى الغرفة ليجد ذلك الشاب ذو الوجه المألوف له يواجه شيماء ويتحدث في انفعال مما أغضبه فاقترب منه صائحًا:-

-من أنت، وكيف دخلت إلى هنا؟

ما أن أعلن عدي عن وجوده بتلك الكلمات حتى التفت الشاب إليه وبدون أي مقدمات لكمه بقوة، سقط عدي أرضًا نتيجة المفاجأة ولكن سرعان ما استجمع نفسه ونهض سريعًا فاحتد الشجار بينهما حتى صرخت شيماء:-

-كفى!

توقف كلاهما لتقف بينهما وتواجهه قائلة:-

-اذهب يا مراد، فهو قد أصبح زوجي الآن.

تساءل في يأس:-

-لماذا فعلتِ ذلك، لماذا لم تنتظري عودتي؟!

ابتسمت في انكسار وقالت:-

-لقد كنت وحيدة في الطرقات، وهو كان هناك من أجلي.

صاح في انفعال:-

-كان يجب أن تنتظريني، كان باستطاعتي حمايتك.

هتفت في سخرية:-

-هل ستقف أمام والدتك من أجلي، وهل ستسمح هي لك بذلك؟!

التفتت وقالت بنبرة خالية من أي مشاعر:-

-عد إلى منزلك يا مراد، فحياتي قد تدمرت بالفعل فلا داعي أن تدمر حياتك أنت الآخر.

رمقها بنظرات حزينة خائبة الأمل ثم غادر، وما أن سمعت صوت الباب يصفع خلفه حتى سقطت أرضًا وارتفع نحيبها وشهقاتها فها هي الآن قد خسرت ذلك الشخص الذي كان دائمًا موجودًا من أجلها.

احتضنتها أميرة وبدأت دموعها تنهمر حزنًا عليها بينما عدي فقد رمق كلاهما بمزيج من الحزن والألم، والغضب يشتعل في قلبه وربما القليل من

الغيرة؛ فرؤيتها تبكي من أجل رجل آخر وكأن وجودها هنا معه هو الجحيم ذاته يؤلم قلبه للغاية.

لم يعد يستطيع رؤية دموعها فغادر الغرفة وبعد دقائق قادت أميرة شيماء إلى إحدى الغرف وساعدتها على النوم ثم خرجت إلى عدي والذي بدا عليه التفكير العميق والحزن فقالت في مواساة:-

-أنا لا أعرف تفاصيل عن علاقتكما أو عن حياة شيماء سابقًا، ولكني متأكدة إن علاقتكما تحتاج إلى وقتٍ، فقط اصبر.

تنهد ثم قال في صدق:-

-أنا أتعلم الصبر من أجلها.

ابتسمت أميرة ثم قالت:-

-اذهب إلى النوم الآن، وأنا أيضًا سوف أنام في غرفة الضيوف.

أومأ عدي ثم اتجه إلى الأريكة في غرفة المعيشة ليحصل على قسط من الراحة، وتمنى أن يأتي سريعًا ذلك اليوم الذي سوف يرى فيه ابتسامة شيماء وتكون موجهة خصيصًا له، أهناك حلم أكثر جمالا من هذا؟!

***

بعد الشجار مع عدي غادر شاعرًا بمزيج من الغضب وخيبة الأمل فقد كان يريد من شيماء أن تختار الذهاب معه، أن تقاوم، ولكنها استسلمت سريعًا، كما أن غضبه موجه أكثر تجاه ذاته لفشله في حمايتها.

اتجه إلى منزله شاعرًا بالفشل والخذلان، فهو لا يملك أي وسيلة لمساعدتها خاصة بعد اقتحام ذلك الحداد حياتها، ولكنه يثق أن ذلك الشاب لن يأتي لها إلا بالمزيد من المتاعب ويجب أن يراقبه جيدًا.

مهما حدث سوف يستمر في حماية تلك الفتاة التي كانت بمثابة أخت له، وإن لم تريد هي ذلك..

***

أوقفت مريم السيارة أمام المنزل، تنفست في عمق تتخلص من توترها ورتبت كلماتها ثم دلفت بشجاعة.

في الردهة جلست كلا من الجدة وناهد أما الرجال فقد استطاعت التعرف على صوتهما من غرفة المكتب.

ابتسمت الجدة قائلة:-

-لقد عدتِ يا مريم.

أردفت في حيرة وهي تنظر خلفها:-

-أين أميرة، ألم تكن معكِ؟!

صمتت مريم برهة، وأجابت في ثقة:-

-أميرة سوف تبقى مع شقيقها لبعض الوقت.

ارتفع صوتٌ من خلفها قائلا في غضب:-

-ما الذي تعنيه بهذا؟

تجمدت ملامحها والتفتت قائلة في شجاعة:-

-كلماتي أكثر من واضحة يا سيف، أميرة سوف تبقى مع شقيقها.

قال في غضب:-

-هل تتحديني يا مريم؟

عقدت ساعديها قائلة:-

-فلتفهمها كما تحب.

جذبها بقوة صرخت على أثرها وقال في احتقار:-

-لقد نسيتي مكانتكِ أمامي يا ابنة الخادمة..

شحب وجهها ونظرت إليه نظر المغشي عليه من الموت فلم تكن تتوقع أبدًا إنه قد يهينها إلى تلك الدرجة حتى إن صياح الجدة مختلطًا بتوبيخ محمد الذي خرج من الغرفة هو الآخر لم يصلحا ذلك الكسر بداخلها.

خلصتها الجدة من بين يديه بينما هي تواصل النظر إليه في صدمة وهو يصيح في محمد ثم كأنها قد عادت إلى الحياة فالغضب والكراهية التي اختزنتهما لأعوام طويلة قد ثاروا الآن فصاحت في غضب بالغ:-

-اللعنة عليك يا سيف الحداد..

عم الصمت في المكان، وتوجهت الأنظار إليها في صدمة بعد صياحها، ولكنها لم تبالي فقد أردفت بدون أن تتخلى عن غضبها:-

-ابنة الخادمة تلك هي من تحملتك طيلة الأعوام السابقة، تحملت البقاء معك تحت سقف واحد برغم خياناتك من أجل أبنائها...أبنائك أيها القذر، ولكن كفى..

أصدرت صوتًا ساخرًا واغرورقت عيناها بالدموع لكنها منعتها من الانهمار وقالت:-

-لقد اكتفيت منكم جميعًا..

نظرت إلى محمد بينما تردف في ألم:-

-لقد اكتفيت من أنانيتكم يا عائلة الحداد.

نظرت إلى سيف وقالت بنبرة خالية من أي مشاعر:-

-أميرة سوف تبقى مع شقيقها، وعندما يعود شقيقها إلى المنزل سوف تعود معه.

غادرت إلى غرفتها بدون أن تبالي بصياح سيف الغاضب أو نظرات محمد أو حزن الجدة، وما أن أصبحت بداخل غرفتها حتى انهمرت دموعها وجلست على حافة الفراش تسمح لضعفها أن يظهر فلقد اكتفت منهم جميعًا، نظرت إلى انعكاس صورتها في المرآة ليظهر الأسى في نظراتها على ما أصبحت عليه؛ نسخة شاحبة من تلك الفتاة التي اعتادت أن تكونها في الماضي.

لم يتغير شيء في الطابق السفلي فسيف ما زال الغضب يسيطر عليه ولكن الجدة قد سيطرت عليه ليترك المنزل في غضب بينما محمد فقد تبعه بنظراته في احتقار ثم اتجه إلى غرفة المكتب تحت نظرات الجدة المشفقة ولحق به أدهم الذي شعر بألم لا يعرف مصدره بعدما عرف أن أميرة لا ترغب في البقاء في نفس المكان الذي يوجد هو به وكأنها كرهته إلى درجة أن تترك منزلها حتى لا تقابله مرة أخرى، أما ناهد فلم تتخلص من ذهولها فتلك النسخة من مريم لم تراها من قبل، ولكنها لم تبالي بما يحدث واتجهت إلى غرفة سارة تطمئن أن الصوت لم يصل إليها.

تنهدت الجدة في حزن بعدما أصبحت وحيدة ونظرت إلى صورة زوجها المرحوم هامسة:-

-لقد أصبح الحصول على ليالي هادئة معجزة في هذا المنزل.

نهضت واتجهت إلى غرفتها تتمتم بالأدعية عسى أن تكون الأيام القادمة أفضل، وأن يعود السلام مرة أخرى إلى هذا المنزل.

***

استيقظت شيماء تشعر بألم في رأسها نتيجة بكاء ليلة أمس، تأملت ما حولها في تشوش ثم سرعان ما تذكرت جميع أحداث ليلة أمس، زفرت في إرهاق وتركت الغرفة متجهة إلى المطبخ وقد أصابها الظمأ.

أصدرت صرخة مكتومة، وسقط الكوب من بين يديها عندما التفتت لتجد عدي خلفها مما أفزعها، ظهر القلق على ملامحه فاقترب حتى يساعدها في جمع قطع الزجاج، ولكنه توقف وظهر الجرح في عينيه عندما تراجعت إلى الخلف ما أن شعرت بتقدمه منها.

بلل شفتيه وقال في هدوء لا يخفي الألم بداخله:-

-أنا لن أقوم بإيذائكِ أبدًا مهما حدث، يمكنكِ التيقن من هذا.

صمت برهة ثم أردف بينما يغادر المطبخ:-

-بعدما يكون الوضع أفضل، وتكون الحياة أكثر أمانًا لكِ، سوف أمنحكِ الطلاق ما أن ترغبي به وبدون أي جدال، لن أجبركِ أبدًا على ما لا تريدينه.

غادر تاركًا إياها تشعر بمزيد من الحيرة والتشتت فلا تعرف أتثق به برغم نسبه؟! فبرغم ذلك الزواج الذي وافقت عليه لتحمي نفسها من البقاء في الطرقات تحت رحمة أصحاب الرغبات المريضة إلا إنها لا تثق به حقًا، ولكن في كل مرة يظهر لها جانبًا مختلفًا يزيد من حيرتها بداية من تركه لشقته ونومه في السيارة إلى كلماته الآن.

انتهت من تنظيف الأرض واتجهت إلى الغرفة مرة أخرى تفكر هل سوف يأتي اليوم الذي سوف تتخلص فيه من حيرتها وتستطيع أن تحكم على شخصية عدي الحداد؟!

***

لم ترغب أبدًا في العودة إلى هذا المكان ولكن تلك النظرة في أعين والدتها دفعتها إلى المحاولة من جديد للتغلب على تلك المخاوف ومداواة ذلك الانكسار في روحها.

في السابق لم تكن لتهتم بشيء غير رغباتها ولكن ما حدث غير الكثير وأصبحت رؤيتها للأمور مختلفة، فأصبحت ترغب في التقرب أكثر من والدتها خاصة بعد صدمتها في والدها ورد فعله عما حدث لها؛ فمنذ عودتها من المشفى لم تراه ولو لمرة واحدة وقد كانت تظن إنها مدللته حقًا..

على الجانب الآخر كانت والدتها تنظر إليها دائمًا مع الخوف والقلق في عينيها، وكلماتها بالأمس عن سعادتها ببدء اختلاطها من جديد مع الجميع جعلتها تريد المحاولة من جديد من أجلها، وها هي تدلف إلى داخل الجامعة، ومهما كانت توقعاتها عما سوف تلاقيه اليوم إلا إنها لم تتوقع أن يكون قاسم هو أول وجه تقابله.

حاولت أن تتجنب مواجهته لكن يبدو أن له رأيًا آخر فقد اتجه رأسًا إليها ما أن رآها مما جعلها ترتبك، وقف أمامها وبدون أي مقدمات قال:-

-نحتاج إلى أن نتحدث على انفراد.

رمقته في حيرة ولكنه تجاهل التساؤل في نظراتها وأردف:-

-الحقي بي.

شعرت بالغضب من تصرفاته الوقحة، وهتفت في غضب:-

-انتظر هنا.

التفت إليها بنظرة بريئة لتردف في ضيق:-

-من أنت لتأمرني هكذا؟!

حاول أن يمنع ابتسامته ولكنه فشل فابتسم باتساع مما بدد غضبها وأصابها بالارتباك والحيرة قال أخيرًا:-

-ها قد عدتي سارة من جديد.

أردف بينما يغادر:-

-هذا يكفي لليوم، لنتابع في الغد..

ظلت واقفة في ذهول تنظر إليه يغادر بدون أن تفهم الذي حدث للتو، ابتسمت لتفاهة الموقف ثم تابعت طريقها بدون أن تشعر بالتغير البسيط الذي حدث في تلك اللحظة أو الابتسامة الهادئة التي اعتلت ثغرها، ولكن قاسم كان يتابعها عن بعد وكان أكثر من سعيد لاستطاعته أن يخرجها من تلك الصومعة الخائفة التي كانت تحيط نفسها بها.

ابتسم بفخر وخيلاء وقرر أن يفكر جيدًا في الخطوة التالية، فقد جعل من عودتها إلى الحياة تحديًا له وهو اعتاد النصر دائمًا.

***

تململت شيماء ثم نهضت من الفراش ما أن رأت الساعة تجاوزت العاشرة صباحًا فلم تتوقع أن تنام مرة أخرى، استخدمت الحمام الملحق بالغرفة وخرجت ليصل إليها صوت من المطبخ، اتبعت مصدر الضوضاء في توتر خوفًا من أن يكون عدي..زفرت في ارتياح عندما وجدت أميرة تعد الإفطار.

انتبهت لوجودها فابتسمت بلطف قائلة:-

-صباح الخير.

بادلتها شيماء الابتسامة في خجل وأجابت:-

-صباح الخير.

كانت تشعر بالتوتر في التعامل مع أميرة خاصة بعدما شهدت انهيارها ليلة أمس، ولكن أميرة كانت لطيفة سهلة المعشر فسرعان ما كانت شيماء تساعدها في إعداد الفطار وتستمع إليها تخبرها قصص من طفولتها أو أحداث مضحكة في جامعتها متجنبة تمامًا ذكر أي فرد من عائلتها وكانت شيماء ممتنة لها من أجل هذا.

خرجت أميرة من المطبخ تلحق بها شيماء ثم توقفت عندما وجدت عدي يخرج من إحدى الغرف وقد بدل ثيابه، تجنبت النظر إليه وهي تضع الأطباق فوق المنضدة بينما أميرة فقد قالت:-

-تناول الإفطار أولا قبل أن تغادر.

أومأ في صمت بدون أن يبعد نظراته عن شيماء مراقبًا كل حركة منها مما أثار ارتباك وخجل تلك الأخيرة.

تساءلت أميرة بقلق:-

-هل سوف تتابع العمل في شركة أدهم أم سوف تطالب بمكانك في شركة أبي؟!

توترت ملامحها ما أن ذكرت أميرة أدهم وأبوها، ولكنها استرخت قليلا عندما أجاب عدي بدون أن يبعد نظراته عن وجهها المعبر عن أفكارها:-

-لم أدخل شركة أبي سابقًا ولن أفعلها الآن، لقد انتهى الأمر.

أومأت أميرة في تفهم، نهض عدي وقد أدرك أنه يصيب شيماء بعدم الارتياح ويعرف أنه إذا بقى هنا لن يمنع نفسه من الاستمرار في تأملها، ولذلك فقد ودعهم ثم قال بلطف موجهًا كلماته إلى شيماء:-

-إذا احتجتِ إلى شيء هاتفيني على الفور.

غادر إلى شركة أدهم بدون أن ينتظر إجابة منها تاركًا إياها تشعر بالحرج لإظهار اهتمامه بها أمام أميرة.

اختلست النظر إليها لتجدها تتظاهر بالانهماك في تناول الطعام لتبتسم بخفة بدون وعي ثم تتابع تناول الطعام هي الأخرى، وبدأت تفكر في شخصية أميرة فهي لغز آخر مثل أخيها وحتى يحين الوقت المناسب لحل اللغز سوف تحترس من الجميع فيكفي ما حدث سابقًا عندما وثقت بمن حولها سريعًا وانتهى بها الأمر بالخروج من منزل الحداد مهانة محتقرة منهم.

-هل أنتِ بخير؟

انتبهت إلى سؤال أميرة القلق لتحاول الابتسام بصعوبة ثم قالت في اختصار:-

-بخير.

ربما كانت أميرة تدرك الصراع بداخلها لا تعرف شيماء حقًا ولكنها وجدت نفسها لاحقًا تندمج معها مرة أخرى في قصص بلا معنى دفعت ابتسامتها إلى الظهور متناسية الوعد الذي قطعته على نفسها بالحذر والابتعاد.

***

دلف عدي إلى مكتب أدهم بعدما أبلغته المساعدة الجديدة بوجوده، وما أن رآه أدهم حتى رحب به واحتضنه.

جلس عدي في المقعد أمام المكتب وتساءل أدهم بينما يتخذ المقعد المقابل له:-

-ألن تعود إلى المنزل؟

أجاب عدي بدون تردد:-

-ليس بعد.

زفر في ضيق وهو يرى الإصرار في أعين عدي ثم قال في حنق:-

-أنت مخطئ يا عدي في تفضيلك لفتاة ليس لها أي قيمة...

قاطعه عدي بأن انتفض واقفًا وقال بغضب:-

-أدهم! لا أسمح لك بالتحدث بتلك الطريقة عن زوجتي.

شحب وجهه واتسعت حدقتيه مرددًا في صدمة:-

-زوجتك!

بعد فترة من الصمت يحاول فيها استيعاب الخبر أردف في غضب:-

-هل تزوجت من تلك الحقيرة؟!

-يكفي!

كان صوت عدي جهوري كافي ليسمعه الجميع في الخارج، أردف في غضب:-

-إنها زوجتي وكرامتها تعتبر كرامتي، اعتبرني مستقيل يا بشمهندس.

غادر عدي بدون أن يبالي بهتاف أدهم، وما أن أصبح خارج الشركة حتى تنفس بعمق ثم تابع طريقه مؤكدًا لنفسه أنه أقدم على القرار الصائب فإن بقائه في هذا المكان يعني إنه يؤكد صحة الكلام عن شيماء وهو لن يسمح بذلك، نظر من حوله إلى الكون الفسيح وابتسم في بساطة متمتمًا:-

-الآن وأخيرًا حان الوقت للبحث عن عمل بعيدًا عن نفوذ عائلة الحداد.

***

ما أن خرج عدي من مكتبه حتى ضرب أدهم بقبضته فوق المكتب في غضب أحمر وجهه على أثره؛ فتلك الفتاة ليست بالسهولة التي توقعها فلا بد أنها عبثت بعقل عدي حتى يتزوجها، اللعنة عليها، واللعنة على ذلك المحقق الذي فشل في إبلاغه عن ذلك قبل حدوثه.

كز على أسنانه وأقسم إنه سوف يجعلها تدفع ثمن العبث مع عائلته غاليًا، ألتقط هاتفه وما أن أجاب والده حتى اندفع قائلا في انفعال:-

-لقد تزوجها، تلك الحقيرة جعلته يتزوجها.

تساءل محمد في تشوش:-

-من الذي تزوج؟!

هتف أدهم في غضب بالغ:-

-عدي تزوج من شيماء.

صاح محمد في انفعال ودهشة:-

-ماذا؟!

صاح أدهم:-

-تلك الفتاة قد تجاوزت جميع الحدود، ويجب أن نجعلها تدفع ثمن العبث معنا بتلك الطريقة، لقد استغلت عدي وجعلته يتزوجها.

زفر محمد في ضيق وقال في إرهاق:-

-ما الذي يجب أن نفعله الآن يا أدهم؟

برقت عيناه في وعيد وقال في غضب:-

-دع الأمر لي.

كان محمد يدرك جيدًا أن أدهم أكثر من قادر على التعامل مع هذه الفتاة، ولذلك فقد قال:-

-لا تخبر أي شخص في المنزل عن هذا حتى نحل الأمر.

قال أدهم مفكرًا:-

-هل تعتقد أن عمتي مريم لم تكن تعرف؟!

أجاب محمد بتأني:-

-لا أعرف، ولكن ذلك لا يهم الآن فتلك الفتاة يجب أن تبتعد عن عائلتنا سريعًا فمنذ أن اقتحمت حياتنا ولم يعرف منزلنا الهدوء والراحة أبدًا.

زفر أدهم في ضيق فوالده محقٌ تلك الفتاة يجب أن تُعاقب على تجرؤها عليهم، قال في حزم:-

-لا تقلق، سوف أبذل كل ما في استطاعتي لإبعادها مهما كان الثمن.

أنهى أدهم المحادثة والغضب يشتعل في صدره فخداع تلك الفتاة لابن عمه أشعل غضبه أكثر، ويبدو أن أفعاله السابقة لم تكن كافية لتعرف تلك الفتاة مكانتها الحقيقية، أنها تحتاج أن ترى وجهًا آخر لعائلة الحداد حتى تظل في بيئتها الحقيرة وتتوقف عن التطلع إلى القمة، وحان الوقت الآن للكشف عن ذلك الوجه.

***

في خلال دقائق بمساعدة الإنترنت كان بحوزة عدي قائمة بأسماء الشركات التي قد تحتاج إلى خريج حقوق مثله.

دلف إلى الشركة الأولى مفعمًا بالأمل والحماس، وبالفعل استطاع بسهولة الحصول على فرصة للمقابلة الشخصية.

نظر إليه صاحب العمل في تفحص ثم نظر مرة أخرى إلى الورق بين يديه ثم قال في استهزاء:-

-هل حقا تعتقد أنك مؤهل للعمل هنا؟!

لم يروقه ذلك الأسلوب فقال في برود:-

-لم لا؟!

أعاد ظهره إلى الخلف ودفع الورق في احتقار قائلا:-

-أنت لست مؤهل للعمل في أي مكان، أنت لا تملك أي خبرة بالإضافة إلى ذلك، هل ألقيت نظرة على تقديراتك قبل أن تأتي إلى هنا؟!

لم يتأثر عدي بينما يجيب في سخرية:-

-وكيف من المفترض أن أحصل على خبرة وأنا حديث التخرج؟!

رمقه في امتعاض ثم قال منهيًا المقابلة:-

-أسف، لا يمكن تعيينك هنا.

لم يظهر عدي أي رد فعل وألتقط الأوراق مغادرًا، وما أن أصبح خارج الشركة حتى ظهر الغضب على ملامحه وجلس في سيارته صافعًا بابها في غيظ.

حاول أن يستعيد هدوئه ولكن تعامل ذلك الرجل معه بهذه الطريقة قد أثار غضبه وهو من اعتاد الاحترام من الجميع صغيرهم وكبيرهم.

زفر في ضيق ثم نظر إلى القائمة وقرر أن يتابع المحاولة من جديد، ولكن مع كل محاولة كان الرفض يستمر حتى اعتاده وتوقعه..انتهى اليوم بدون أن يجني أي فوز فاتجه إلى المنزل واليأس قد سيطر عليه ممزوجًا بالإرهاق

فيبدو أن الحياة بعيدًا عن مظلة اسم عائلة الحداد لن تكون بالسهولة التي توقعها في الماضي.

دلف إلى داخل المنزل ليبتسم في إرهاق عندما سمع ضحكات أميرة مختلطة بصوت شيماء، دخل الغرفة لتنهض أميرة تستقبله بينما شيماء فقد اختلست نظرات إليه وتعجبت من الإرهاق الظاهر على ملامحه؛ فالعمل في الشركة ليس مرهقًا في العادة إلى هذا الحد.

انتبهت عندما استأذن ليغير ثيابه فاتجهت إلى المطبخ مع أميرة تساعدها على تحضير الغذاء، مرغمة شعرت شيماء بالعطف تجاهه وهي تراه يتناول الطعام في تعب واضح لاحظت أميرة الأمر ذاته فتساءلت في قلق:-

-هل أنت بخير، تبدو مرهقًا؟

كانت تتظاهر بعدم الانتباه ولكنها كانت تنصت بشدة في انتظار تفسيره، أجاب مبتسمًا:-

-أنا بخير لا تقلقي، فقط أحتاج إلى النوم.

نظر إليهما ثم قال:-

-شكرًا على الطعام سوف أنام قليلا.

غادر إلى غرفته وما أن اختفى من أمامهما حتى تمتمت أميرة:-

-يبدو مرهقًا حقًا.

بدأت في جمع الأطباق تاركة شيماء تنظر إلى باب الغرفة في شرود وقد بدأت تتساءل عن السبب الذي جعله هكذا...تنهدت ثم بدأت في مساعدة أميرة تحاول تجاهل ذلك الجزء بداخلها الذي يحثها على الاهتمام بشأن عدي الحداد.

***

استيقظ عدي بعد ساعة واحدة من النوم القلق، خرج من الغرفة ليجد شيماء تجلس مع أميرة صامتة تبتسم بخفة بين الحين والآخر لكلام أميرة المرح، تأملهما في حنان فقد كان يدرك أن أميرة تحاول جاهدة التخفيف عن شيماء وجعلها تشعر بالانتماء وقد كان شاكرًا لها للغاية فبسببها استطاع لمح تلك الابتسامة الخاطفة على ثغرها.

لاحظت أميرة وجوده وهتفت:-

-لقد استيقظت سريعًا!

قال بدون أن يبعد عينيه عن شيماء التي تتظاهر بتجاهله:-

-لقد أصابني الأرق.

نقلت أميرة عيناها بينهما ثم قالت ببراءة كاذبة:-

-هناك فيلم رائع سوف يتم عرضه بعد قليل يمكننا مشاهدته معًا.

كان يعرف جيدًا ما تحاول تلك الصغيرة فعله، ولذلك فقد نظر إليها مبتسمًا لتغمز إليه في مرح.

لم تلاحظ الاتفاق الصامت بين الشقيقين، وقالت في ارتباك:-

-أشعر بالتعب، سوف أذهب إلى النوم.

تمسكت أميرة بها قائلة في توسل وبأكثر التعابير الطفولية اللطيفة التي تمتلكها:-

-أرجوكِ يا شيماء فأنا لا أريد مشاهدة الفيلم وحدي.

رمقتها بنظرات عاجزه وتمتمت في تلعثم:-

-ولكن أنا...

قاطعتها أميرة في طفولية:-

-إذًا لقد تم الأمر.

جذبتها خلفها بينما تردف في مرح:-

-لنحضر الفشار الآن.

بدت شيماء بلا حول ولا قوة بينما تتحرك خلف أميرة بشكل دفع الابتسامة فوق ثغره.

اختلست نظرة إلى أميرة التي بدا عليها الاستمتاع بالفيلم بدون أن تلاحظ توترها ثم نظرت إلى عدي الذي سرعان ما تظاهر بمتابعة الفيلم وأنه لا يحدق بها فحاولت متابعة أحداث الفيلم حتى جحظت عيناها فجأة عندما نهضت أميرة قائلة بنبرة ناعسة:-

-سوف أذهب إلى الفراش.

نهضت شيماء سريعًا واندفعت قائلة:-

-سوف أرافقكِ، فأنا أيضًا ...

قاطعتها أميرة بنبرة لا تقبل الجدال:-

-تابعي الفيلم، لقد شاهدته من قبل سوف يعجبكِ، وعندما ينتهي يمكنكِ النوم.

حاولت أن تعترض ولكنها التفتت مغادره فشعرت أنه سوف يكون من الحمق أن تهرع خلفها فجلست مرة أخرى شاحبة الوجه وقد تعرقت راحتيها في توتر مما دفع عدي إلى أن يقول في ضيق يختلط بالألم:-

-لا داعي لأن تخافي مني، لقد أخبرتك سابقًا لن أقوم بإيذائكِ أبدًا.

نهض مردفًا:-

-سوف أدخل إلى غرفتي إذا كان هذا سوف يشعركِ براحة أكثر.

نظرت إليه وقد شعرت فجأة إنها تؤذيه مما أزعج ضميرها لذلك فقد قالت في نبرة تحمل عدم الاكتراث الزائف:-

-يمكنك متابعة الفيلم إذا أردت.

لم يحاول أن يتظاهر بعدم المبالاة بل سرعان ما ابتسم في بهجة وجلس مرة أخرى. كانت تحاول جاهدة أن تتابع الفيلم وتتظاهر بعدم وجوده ولكنها كانت تشعر بوجوده أكثر من أي شيء آخر.

بعد ساعة كاملة من تجنب الالتفات حتى لا تتلاقى نظراتها معه استجمعت شجاعتها والتفتت إليه لتلين ملامحها فجأة فقد كان نائمًا في إرهاق بينما فمه مفتوح قليلا، تأملت وجهه بأريحية لأول مرة كانت ملامحه ما بين الخشونة الرجولية والبريق الطفولي.

نهضت سريعًا عندما تململ ولكنه عدل فقط من وضعيته متابعًا نومه في سلام، أغلقت التلفاز والتفتت لتتجه إلى غرفتها...توقفت ونظرت إليه فلم يسمح لها ضميرها بتركه هكذا، فاقتربت وبتردد شديد وبكف مرتجف دثرته ثم غادرت سريعًا إلى الغرفة التي نامت بها سابقًا تتسارع أنفاسها وكأنها كانت في سباق.

نظرت إلى المرآة تخاطب نفسها في صمت، إلى أين سوف يقودكِ هذا الطريق؟! هل سوف يكون جحيمًا آخر أم النعيم من نصيبكِ هذه المرة؟!

***

تململ في كسل ثم اعتدل سريعًا عندما تذكر أحداث أمس، نعت نفسه بالغباء لأنه نام وتركها وبينما ينهض لاحظ لأول مرة الغطاء، هل يمكن أن تكون هي من فعلت هذا؟!

ارتفعت آماله فمن المؤكد أنها من فعلت هذا، واتسعت ابتسامته في بهجة وكأن يومه لا يمكن أن يكون أفضل من هذا، شعر أنه يقترب خطوة من هدفه في التقرب منها.

نهض في حماس بالغ وقرر ألا يتحدث معها عن ذلك حتى لا تبتعد مرة أخرى كما أنه لا يريد أن يشعرها بعدم الارتياح لكن كل قراراته تبددت عندما اجتمعوا على مائدة الإفطار فلم يستطيع منع نفسه من تأملها بطريقة أكثر وضوحًا من سابقتها مما دفع أميرة إلى أن تكتم ضحكتها بصعوبة أمام شقيقها الذي يبدو متيمًا للغاية بزوجته، شعر عدي فجأة بالحرج فتحمحم متمتمًا:-

-يجب أن أغادر.

بعد مغادرته توترت شيماء تحت وطأة نظرات أميرة المرحة الشبيهة بأخيها فهربت إلى غرفتها قائلة:-

-لم أنام جيدًا ليلة أمس، سوف أستريح قليلا.

أومأت أميرة بدون أن تتخلى عن نظراتها المرحة وابتسامتها الواسعة، وما أن اختفت شيماء حتى بدأت في جمع الأطباق تضحك على شقيقها الذي أصبح يتصرف بطريقة تخالف طبيعته المعروفة العابثة.

شعرت بالسعادة؛ لأنه وجد الفتاة التي يريدها وتمنت أن تبادله شيماء الحب يومًا ما ويتغلبا سويًا على ذلك الماضي المجهول لها مهما كان مؤلمًا.

بدأت أفكارها تقودها إلى أدهم برغم محاولاتها المستميتة ألا تفكر به لكن تلك المرة أيضًا قد باءت بالفشل، ابتسمت في حزن يبدو أن حظها لم يكن جيدًا أبدًا عندما وقعت في حب ابن عمها الوسيم ذو القلب القاسي.

تنهدت في صمت بعدما انتهت من غسيل الصحون بدون أن تتوقف أفكارها ثم اتجهت لمشاهدة التلفاز بذهنٍ شاردٍ وجميع أمنياتها تتلخص في أن يعم السلام والسعادة حياتهم مرة أخرى، وألا تظهر الأيام لهم المزيد من الحقائق عن تلك العائلة؛ فالحقيقة مهما كانت نورًا إلا أنها دائمًا ما تكون مؤلمة لدرجة أنها تتمنى أن تعيش في الظلام دائمًا تجنبًا لذلك الألم .

***

مرت الأيام بدون تغييرات كبيرة فعدي مازال يخرج في الصباح الباكر بحثًا عن عمل ثم يعود بابتسامة مزيفة إلى المنزل بدون أن يحقق أي نجاح، وقد أدرك أخيرًا أن نفوذ عائلته كان يحميه من العديد من خيبات الأمل، وتخليه عنه ضاعف من الصعوبات التي تقابله.

نظر إلى القائمة في هاتفه ثم زفر في إرهاق فقد أجرى مقابلات في العديد من الشركات بدون جدوى فالجميع يشترط الخبرة من الخريجين، نظر إلى سيارته ثم قرر السير قليلا، كان يعرف جيدًا إنه خلال القليل من الوقت سوف تنتهي أمواله الخاصة والتي لم تكن حقًا مبلغًا كبيرًا وبما إنه يفضل الموت على العودة إلى المنزل أو طلب المال من سيف الحداد فيجب أن يجد مصدر دخل بدون الاستعانة باسم الحداد.

توقف فجأة وظهر الأمل على ملامحه مرة أخرى عندما وجد اليافتة المُعلقة أمام مبنى صغير تطلب مساعدين لمحامي، لم يتردد للحظة ودلف إلى داخل المبنى، لم تمر دقائق إلا وهو يخرج في سعادة بالغة فأخيرًا قد حصل على وظيفة.

عاد إلى حيث سيارته بخطوات مبتهجة برغم إن المرتب ليس ضخمًا لأنه سوف يكون هناك كمتدرب أيضًا إلا إنه كان سعيدًا للغاية فتلك إشارة لبداية حياته الخاصة كعدي.

وصل إلى المنزل بدون أن يزعج أي شيء سعادته، ولكنه توقف عندما سمع أميرة تقول في ضيق:-

-سوف ينزعج عدي من ذلك يا شيماء.

دلف إلى غرفة المعيشة فجأة متسائلا في قلق:-

-ما الذي سوف يزعجني؟!

نظرت أميرة إلى شيماء لتنهض الأخيرة وبينما تتجنب النظر إليه قالت في فتور:-

-أريد أن أبحث عن عمل؛ فأنا لن أبقى عالة هنا.

ردد في صدمة:-

-عالة!

صمت برهة ثم قال في صرامة:-

-أنتِ زوجتي مهما كان شعوركِ تجاه هذا، ولكن ما دمتِ تحملين اسمي فأنتِ من مسؤولياتي، ويكفي إهانتكِ لي بمجرد التفكير في هذا.

غادر تاركًا إياها تتلوى تحت تأنيب الضمير وقد أزعجتها كلماته برغم محاولاتها لتقنع نفسها إنها على حق، ولكن تأنيب أميرة قد ساهم في زيادة انزعاجها لتتركها وتدلف إلى غرفتها في ضيق، ولو كانت صادقة مع نفسها لأدركت أن ما يزعجها حقًا هو تسلل عدي أسفل حصونها بطريقة تخيفها للغاية.

تنهدت بينما تنظر إلى انعكاس صورتها في المرآة تخاطبها في صمت:-

-ما الذي سوف تفعلينه يا شيماء؟!

جلست على حافة الفراش وبعد دقائق وبدون سابق إنذار انهمرت دموعها في صمت وعضت على شفتيها تكتم آهة ألم، وضعت كفها فوق أذنها تمنع تلك

الضوضاء بدون أي نجاح؛ فكانت الأصوات بداخل عقلها تزعزع استقرارها.

سقطت على ركبتيها أرضًا وشعرت بطعم الدم على شفتيها، لم تستطيع التحمل لترفع رأسها تصرخ بقوة دفعت كلا من عدي وأميرة إلى اقتحام غرفتها سريعًا.

وقفت أميرة في صدمة وخوف وهي تراها تتلوى فوق الأرض تضع كفها فوق أذنيها وقد بدت في ألمٍ عظيمٍ، اقترب عدي سريعًا منها متسائلا في لهفة:-

-ما الذي يؤلمكِ يا شيماء؟

رفعت أعين دامعة إليه والألم يحتل ملامحها ثم قالت في توسل:-

-أوقف تلك الأصوات يا عدي.

صاح ينتزع أميرة من صدمتها:-

-هاتفي الطبيب سريعًا.

أسرعت أميرة إلى الخارج بينما نظر عدي في عجز إلى شيماء وبرقت عيناه بالدموع، كانت تتلوى وتأن في ألم مما مزق قلبه فاندفع يحتضنها ولدهشته دست رأسها في صدره تحاول منع الأصوات من الوصول إليها، تراجع بظهره يستند على الفراش بينما يشدد من ذراعيه حولها ويتحرك برتابة كتهويدة مربتًا فوق ظهرها برفق، لم تمر ثواني حتى شعر برجفة جسدها مع

ارتفاع نحيبها ليعض على شفتيه يمنع انهمار عبراته عجزًا وحزنًا، سمع همساتها الضعيفة فاقترب بأذنه من فمها ليسمع كلماتها فقد كانت تردد بنبرة مختلفة:-

-أمي!

اختفى صوتها فجأة ليتفحصها في لهفةٍ وقلقٍ بالغٍ...

-عدي، الطبيب.

رفع رأسه والقلق في عينيه ثم نهض حاملا إياها بين ذراعيه ووضعها برفق فوق الفراش ثم تنحى سامحًا للطبيب أن يفحصها وأخبره بما حدث سابقًا، بدا على ملامح الطبيب التفكير بينما يفحصها ثم نهض قائلا:-

-إنها نائمة الآن، ولا يبدو لي أن هناك أي سبب عضوي لما أخبرتني به، ولكن...

تردده دفع عدي إلى أن يتساءل في قلق:-

-لكن؟

قال في نبرة هادئة:-

-أعتقد أن الأمر نفسي، وربما يكون الأفضل أن تعرضوها على طبيب نفسي.

نظر إليها عدي في حزن بالغ فقد كان يعرف جيدًا إنها ما زالت تحمل ندوب الحادث التي لن تختفي بسهولة، شعرت أميرة بالعطف تجاه شقيقها وقادت الطبيب إلى الخارج تاركة له الفرصة ليبقى معها.

اقترب منها ممسدًا فوق رأسها بحنان وهمس في وعد:-

-يومًا ما سوف أزج بالجاني في السجن مهما حصل، وسوف أضمد تلك الجراح حتى تختفي آثارها.

غادر الغرفة ليجد أميرة تتطلع إليه في قلق ليبتسم في شحوب قائلا:-

-لا تقلقي سوف تكون بخير.

أردف في شرود:-

-سوف أحرص على ذلك مهما حدث.

تنهد في عمق ثم قال:-

-ابقي معها، فإذا استيقظت ووجدتني بجوارها قد تشعر بالخوف.

شعرت بالعطف تجاه شقيقها وقالت بتأكيد:-

-لا تقلق أبدًا، لن أفارقها.

أومأ ثم اتجه إلى غرفته وقد أظلمت عيناه بالغضب والكراهية تجاه خالد الحداد، تمنى أن يأتي سريعًا ذلك اليوم الذي سوف يحصل به على انتقامه

ليس لأجل شيماء فقط بل لأجل كل فتاة قد لطخ حياتها بقذاراته، ولقد شهد على الكثير منهن منذ طفولته.

-عدي، لقد استيقظت.

انتفض وأسرع إلى غرفتها ما أن أخبرته أميرة بذلك، نظر إلى وجهها الشاحب متسائلا في قلق ولهفة:-

-هل أنتِ بخير؟

أومأت في إرهاق ثم قالت بعد تردد:-

-أعتذر على تصرفي السابق لكني لم...

قاطعها قائلا:-

-لا تفكري في الأمر، فكل ما يهم هو إنكِ بخير الآن.

قالت أميرة في مرح بينما تحمل طبق من الحساء:-

-حان وقت الطعام.

حاولت شيماء التملص من أميرة بدون جدوى فقد كانت الأخيرة شديدة الإصرار على إطعامها، راقب عدي كلتاهما مبتسمًا ولكن رويدًا اختفت ابتسامته وقد عادت أفكاره تدور مجددًا حول الانتقام من خالد الحداد بأي طريقةٍ ممكنةٍ.

***

كان العمل في المكتب ممتعًا بالنسبة لعدي ربما أكثر مما توقع؛ فقد كان يتعلم الكثير من رئيسه، والمضحك له إنه قد وجد مهنة المحاماة ممتعة حقًا بشكل يدفعه إلى الاستمرار في العمل بها دائمًا.

دلف إلى مكتب رئيسه في توتر وقد استدعاه في حزم، أشار إليه مبتسمًا ليجلس ثم قال:-

-أنت تتدرب هنا منذ بضعة أشهر، ولقد وجدت فيك تلميذًا نجيبًا لأقصى حد مما أبهرني للغاية.

ابتسم عدي في فخر ليردف صادمًا إياه:-

-ولذلك لقد قررت أن أمنحك قضيتك الأولى تحت إشرافي.

هتف عدي في ذهول:-

-قضيتي الأولى؟!

فلقد كان أمر غير متوقع خاصة إن فترة تدريبه لم تدوم طويلا وفي نفس الوقت كان الأمر باعثًا للفخر.

قدم له ملفًا ورقيًا قائلا:-

-إنها قضية خطيرة، ويجب أن تدرسها جيدًا خاصة أن المتهم شخصية ذات شأن.

تساءل عدي في فضول بينما يلتقط الملف:-

-ما الذي جعلك تقبل مثل تلك القضية أعني إذا كان الشخص المتورط ذي شأن؟!

ابتسم قائلا:-

-وإذا لم أقبلها من كان سوف يفعل؟!

أردف قائلا بجدية:-

-معك أسبوع لتجميع الأدلة الكافية، وبعد الأسبوع سوف نطلب فتح القضية وسوف يتم إعلام المتهم بالأمر حينها.

أومأ عدي في جدية ثم فتح الملف أثناء خروجه من الغرفة ليتجمد في مكانه مما دفع رئيسه ليتساءل:-

-هل حدث شيءٌ؟

التفت عدي له ومازال مصدومًا ثم قال:-

-لا، لم يحدث شيء.

غادر الغرفة وسقط فوق مقعده والملف مفتوح أمامه يزينه صورة خالد الحداد تحت عنوان المتهم، ابتسم في استهزاء فيبدو أن الوقت الذي تمناه قد أقبل أخيرًا، لم يتردد لحظة وبدأ يقرأ في نهم؛ فمعرفة هوية المتهم قد أعطته سببًا إضافيا للعمل بجد أكثر، وما أن حان وقت العودة إلى المنزل حتى حمل الملف معه مقررًا أن يتابع العمل عليه في المنزل.

اتجه إلى غرفة شيماء والتي أصبحت مقرًا لأميرة منذ انتكاستها السابقة، وجد المشهد الذي اعتاده طيلة الفترة السابقة شيماء تتذمر بينما أميرة لا تبالي وتستمر في إطعامها في تسلط، تأمل وجه شيماء وقد بدت أكثر استرخاءًا عن قبل مما أسعده.

لاحظت وجوده وابتسمت بدون وعي لتتسع ابتسامته قائلا:-

-كيف حالكِ اليوم؟

قبل أن ترد هتفت أميرة في خيلاء:-

-بالطبع بخير، ألم ترى كيف أعتني بها؟

جذب خصلات شعرها في مرح هاتفًا:-

-ألن تتوقفي يا فتاة عن تعذيب زوجة شقيقكِ؟!

زمت شفتيها في مرح بينما ابتسمت شيماء ثم قال في جدية بعد تردد:-

-هناك شيء أريد أن أتحدث عنه معكِ.

قالت أميرة بينما تحمل الطبق:-

-سوف أحضر لك الغذاء.

انتظر حتى غادرت أميرة ثم وضع الملف بين يدي شيماء التي نظرت إليه في تعجب ثم فتحته ببطء وما أن رأت صورة خالد حتى ارتجفت يداها ونظرت إلى عدي الذي قال:-

-ربما لا تكون قضيتكِ، ولكنها فرصة أخرى لزجه في السجن.

انهمرت دموعها وهي تتأمل وجه عدي متسائلة في عدم تصديق:-

-هل سوف يدخل السجن حقًا؟

أمسك كفها بتلقائية وضغط عليه قائلا في وعد:-

-سوف أحرص على ذلك، أعدكِ.

ابتسمت بينما تنظر إلى صورة خالد، فأخيرًا بعد ذلك الانتظار والعذاب الذي شهدته، وجلد ذاتها كل ليلة بتكرار أحداث ذلك اليوم، والكوابيس التي لا تنتهي..سوف تحصل على العدالة.

راقبها في صمت، وقد أدرك أنه يجب أن يبذل كل ما في استطاعته لتحقيق الفوز في تلك القضية مهما كان الثمن، فهذه أيضًا هي الوسيلة الوحيدة لتحريرها من قيود الماضي.

الفصل الرابع والعشرون

تأملها بتفحص شديد، كانت في الخامسة عشر من عمرها رغم إن هزال جسدها يوحي بسن أصغر من ذلك، تأمل ملفها في الميتم، ومن الواضح أن ذكريات تلك الفتاة لا أساس لها من الصحة بناءًا على المذكور في تلك الأوراق فقد بدأت بعد مرور فترة طويلة على وفاة صديقتها تتحدث عن تلك الحقيقة التي لا يؤمن بها أحد غيرها.

قال بنبرة عملية بدون أي مقدمات:-

-المشرفات في الميتم قالوا إنكِ دائمًا ما تتعرضين للكوابيس مؤخرًا وتصرخين كثيرًا أثناء نومكِ.

أومأت في صمت، وبدأ توترها يزداد بعد تذكر كابوسها المعتاد.

أردف بنبرة متسائلة:-

-ما نوع الكابوس الذي تريه؟

صمتت حتى ظن أنها سوف تتجاهل سؤاله حتى أتى جوابها بنبرة مرتعشة:-

-عن نور، لقد كانت شريكتي في الغرفة منذ أعوام.

تساءل بإصرار:-

-وما الذي حدث لنور؟

كأن سؤاله أعطاها الإذن لتشرد بذاكرتها إلى تلك الليلةِ التي زعزعت استقرار حياتها وسلامها الداخلي.

همست بنبرة لا تزال تحتوي على صدمة رغم مرور تلك الفترة:-

-أدركت مؤخرًا الحقيقة، لقد اغتصبوها في الميتم، مشرفة الميتم منحت الفتيات الصغيرات لرجل ضخم.

مر عليه الكثير من الحالات كتلك الحالة، قضايا بدون أي أدلة وذلك بسبب أوهام عند المريض يتخيلها، ويؤمن بمصداقيتها.

تقدم بجسده إلى الأمام متسائلا في إلحاح:-

-هل تعتقدين أنه كان حقيقيًا أم من وحي خيالكِ؟

انتفضت للشك في نبرات صوته، وصاحت في استنكار:-

-حقيقة بالطبع! لقد رأيت الرجل يغتصب فتاة أخرى في غرفة المشرفة، لقد نظرت من خرم الباب، وفي اليوم التالي كانت ميتة تمامً مثلما حدث مع نور.

صمت قليلا بدون أن تبدو أي مشاعر واضحة على ملامحه، نهض من خلف مكتبه واتجه إلى المقعد المقابل لها ثم تساءل بحذر بينما نظراته ترصد ردود أفعالها:-

-ألا يمكن أن يكون الأمر كله عبارة عن كابوس، وأنتِ لم تري الفتاة أبدًا؟

وقفت في هياج واضح، وتلاحقت أنفاسها في انفعال صائحة بيأس:-

-لقد أخبرتك بالحقيقة، لم يكن حلمًا أنا أعرف ما رأيته.

لم يتحرك من مكانه وقال بنبرة هادئة لا تحمل أي مشاعر:-

-ألا يمكن أن تكون الكوابيس المتعلقة بوالدتك جعلتكي تتخيلين ذلك خاصة إنه حتى تلك الكوابيس ليس لها أساس من الصحة؟

أردف بحزم:-

-ففي فترة إيجادك لم يكن هناك أي بلاغ عن أي حالات اغتصاب مماثلة لما ترينه في كابوسك.

لم تقدر قدماها على حملها لذلك جلست بتثاقل على مقعدها وارتجف جسدها عندما تذكرت والدتها ذات الوجه الجميل، وتتابعت أحداث الكابوس بعنف أمامها.

أغلقت جفنيها بقوة وكأنها تمنع تلك الصورة من ملاحقتها وبدأت العبرات تندفع من بين جفنيها حتى تسلل أنينًا خافتًا من بين شفتيها وارتفع نحيبها.

انتظر حتى هدأت قليلا ثم نهض من مكانه قائلا ببرود:-

-يكفي لليوم، نتقابل الأسبوع القادم، وأتمنى أن تفكري فيما أخبرتكِ به.

غادرت المكتب بأرجل مرتجفة وأعين محمرة لتقابلها المشرفة في الخارج، وبدون أن تبالي بالسؤال عن حالها اصطحبتها للعودة إلى الميتم وكأنها تؤدي واجبًا أو تنقل حملا ثقيلا.

ما أن وصلت إلى الميتم حتى أسرعت إلى الفراش المخصص لها وأخفت وجهها في وسادتها تنهمر عبراتها في صمت مع ارتجاف بدنها.

بجوار ذكرياتها كانت أسئلة الطبيب لا تفارق ذهنها أبدًا، ورغم يقينها إلا إن الشك تسرب إليها، إنها تعرف جيدًا ما رأته فليست مصادفة أن تموت الفتاة في اليوم التالي في فراشها تمامًا كما حدث مع نور سابقًا.

بدأت الحيرة تراودها ولكنها حاولت التشبث بأقوالها فتلك الحقيقة كاملة رغم تزعزع ثقتها بفعل كلمات الطبيب.

***

مع اقتراب موعد الطبيب كان يقينها يتحول إلى شك، وثقتها قد تمزقت أربًا واحترقت تمامًا حتى لم يتبقى منها إلا رماد يوم المواجهة.

دلفت إلى الحجرة بأقدامٍ ثابتة، وكالمرة السابقة تمامًا بدأ يسألها نفس الأسئلة، وكأن الأجوبة السابقة لم ترضيه، برغم إن المشهد كان مكررًا إلى حد كبير إلا أن الأجوبة قد اختلفت فبعدما كانت واثقة أصبحت مترددة مهتزة، وبينما يتابع أسئلته كانت تزداد ارتباكا، لم يترك لها مجالا للتفكير وبدأ عقلها يقتنع بكلماته والصور تتلاحق أمام عينيها مختلفة تمامًا عن أقوالها الأولى حتى قالت بتردد بينما ذهنها شارد:-

-هل تخيلت ذلك؟!

كان سؤالا أكثر منه جوابًا، فقال بهدوء:-

-هذا هو التفسير الوحيد لذلك؛ لأن طبيب الميتم أوضح في تقريره إن صديقتك قد ماتت بطريقة طبيعية وبالمثل الفتاة الأخيرة، بالتالي فإن ما ذكرتيه لم يحدث قط.

ازدردت لعابها في ارتباك، وهمست بحيرة:-

-ما الحقيقة إذًا؟!

تساءل مرة أخرى بدون كلل أو ملل:-

-أخبريني مرة أخرى الذي حصل يوم وفاة صديقتكِ؟

صمتت قليلا ثم قالت:-

-أحدهم فتح الباب، ودخل رجل ثم وضع نور فوق الفراش و...

قاطعها قائلا:-

-هل كان الرجل وحيدًا؟

أومأت بدون تفكير وأردفت:-

-بعد فترة من وفاة نور سمعت نفس الصوت خارج غرفتي، وعندما خرجت وجدت رجلا يحمل فتاة من الغرفة المجاورة، لقد تحركت خلفه حتى وصل إلى غرفة المشرفة وقد فتحت له الباب...

قاطعها مرة أخرى متسائلا ببرود:-

-هل أنتِ متأكدة من إنها كانت فتاة أعني من الممكن أن يكون الرجل مجرد عامل يحمل شوالا واختلط عليكِ الأمر في الظلام؟

ردت بتأكيد:-

-لقد كانت فتاة، أنا متأكدة.

-هل كانت تتحرك بين يديه، هل كانت تقاوم؟

بدا التشوش في عينيها، وبدأ عقلها يستعيد صورة الرجل حاملا الفتاة، ولكن الفتاة لم تكن تتحرك، لماذا لم تقاوم؟!

جحظت عينيها عندما وجدت الصورة الوحيدة المنطقية التي تمثلت في ذهنها هي صورة للرجل يحمل شوالا ضخمًا ولم يكن هناك أثر للحياة به.

رفعت نظراتها إليه وقالت ببطء وفي تعجب:-

-كان شوالا!

برقت عينيه بنشوة الفوز؛ فانتصار آخر يُضاف إلى سجل انتصاراته، وحالة أخرى استطاع علاجها من أوهامها، قال أخيرًا:-

-كما أخبرتك من قبل كل هذا كان مجرد خيال في عقلك، مجرد كابوس سيئ وأنتِ صدقتي إنه حقيقة.

أردف قائلا:-

-إذا كان حقيقة لم تكن التفاصيل لتتغير في عقلكِ، وتختلف عندما تتحدثين عنها في كل مرة.

أومأت في صمت، وغادرت عائدة إلى دار الأيتام تحاول تصديق أن كل هذا كان من نسج خيالها، وأن "نور" ماتت بطريقة طبيعية لا مجال للشك بها.

تلاحقت الأيام بعدها، وذكرى "نور" لم تغيب لحظة عن ذاكرتها، ولكن مع مرور الوقت كانت ذكرى نور تختفي بسرعة وكأنما لم يكن لها وجود في حياتها من قبل وقد حرص عقلها ألا تتذكر ذلك تجنبًا لمزيد من الألم.

***

تأملته في عطف بدون أن يلاحظها، كان يعمل بجهد منذ أن تسلم تلك القضية حتى إن ساعات نومه قد قلت إلى أقل من النصف، ترى في عينيه جميع الأسباب التي تدفعه إلى بذل ذلك المجهود وكانت تشعر بالامتنان له.

لم تكن غافلة أيضًا عن التغيرات التي تصيبها تدريجيًا يومًا بعد يوم، ذلك البريق الغريب في عينيها وكأنها تعود إلى الحياة مرة أخرى.

ابتسمت في خجل عندما لاحظ وجودها وتساءلت في حرج:-

-لقد جئت لسؤالك إذا كنت تريد أن تشرب شيئًا ما معي؟

ابتسم وأومأ في صمت ثم قال:-

-سوف أشرب ما سوف تشربين منه.

أومأت وأسرعت من أمامه لتتسع ابتسامته، رؤية تفتحها البطيء كزهرة صغيرة يشعره بالمزيد من المسؤولية ويلقي على كاهله بحمل أكثر ليضاعف من جهوده للفوز بتلك القضية مهما كان الثمن..تأمل الأوراق أمامه بدون أن يخفي الاحتقار والاشمئزاز في نظراته تجاه خالد الحداد شاعرًا بوصمة عار ترافقه بسبب الدم المشترك بينهما.

بدأ يراجع المعلومات بين يديه قبل أن يبدأ التحقيق بنفسه، طفلة في الثانوية اختفت من المنزل بدون أن تترك أي أثر خاصة أن العمارة لا يسكنها الكثير من الأشخاص، وبعد بضعة أيام من تبليغ الأب وجدوها جثة في طريق خالي من المارة وبعد تقرير الطب الشرعي تم اكتشاف إنه تم اغتصابها ونتيجة للاغتصاب قد ماتت، وبعد فحص المكان بدقة وُجد أن مكان وجود الجثة يختلف عن مسرح الجريمة أي أن الاغتصاب قد وقع في مكانٍ آخر، الشاهد الذي وجد الجثة صرح بإنه استطاع سماع صوت سيارة ذات محرك غالي جدًا نادرًا ما يُسمع صوت مثل تلك المحركات في مصر، وعندما تم استجواب أهالي المنطقة التي تسكن بها الفتاة شهد أحد الشباب على وجود سيارة غالية غريبة في المنطقة في وقت مقارب للوقت الذي يتوقعه الطب الشرعي لحدوث الجريمة، وبعد البحث عن السيارات التي تحمل المواصفات الذي تلقتها الشرطة من الأهالي تم التوصل إلى السيارة الوحيدة من نوعها التي تتوافق مع تلك المواصفات وقد كانت بالفعل إصدارًا محدودًا لا يوجد منها إلا واحدة فقط في مصر، وتلك السيارة تخص خالد الحداد مما جعله

موضع اتهام ولكن بسبب اعتبار إن الأدلة ما زالت ضعيفة إذ يمكن لأي شخص أن يزور مواصفات سيارة أو يتناسى مواصفاتها تم تجاهل القضية.

وطبقًا لكلام ضابط الشرطة المسؤول "هشام " والذي رحب باتصال عدي فإن آخر قضية مع خالد الحداد لم تسر بشكل جيد فلم يرد رئيسه أن يتسبب في مزيد من العداوة مع عائلة الحداد، وهذا ترك المسؤولية على ولي أمر الفتاة مما أوصل القضية إلى مكتب المحاماة بناءًا على توصية من هشام نفسه، وقد كان متأكدًا إن رئيس عدي لن يبالي بنفوذ عائلة الحداد.

الآن كل ما يحتاج إليه هو أن يحقق بدقة حتى يجد ما يكفي لتوصيل القضية إلى المحكمة وزج خالد الحداد في السجن و...

انتبه إلى دخول شيماء ليبتسم شاكرًا ما أن وضعت الكوب أمامه، رن جرس الباب لتخرج من الغرفة لكن أميرة كانت قد سبقتها لفتح الباب، ابتسمت أميرة عندما تعرفت على صديق شقيقها قائلة:-

-كيف حالك يا حسن؟

هتف حسن في مرح:-

-أميرة الصغيرة، أنا في أفضل حال.

رمقته في غيظ عندما نعتها بالصغيرة لكن قبل أن يبدأ شجارهما المعتاد في أي وقت يلتقيا به تدخل عدي مرحبًا بصديقه وعرفه على شيماء التي ابتسمت

في خجل وتوتر، وبعد دقائق كان حسن يجلس في غرفة عدي وقد بدت على ملامحه الجدية البالغة بينما يستمع إلى تفاصيل القضية، قال في تردد:-

-هل تعتقد أن باستطاعتك تولي تلك القضية فأي تعاطف مع الجاني بسبب صلة القرابة..

قاطعه عدي في حدة:-

-أنا لا أنتمي إلى هذا الرجل، وكل ما يربطني به الآن هو إنه المتهم في القضية بين يدي الآن.

أومأ حسن في تفهم برغم أنه ما زال يتعجب من التغيرات التي أصابت عدي في غيابه، فقد كان منعزلا عن الأخبار في مصر منذ أن سافر إلى الخارج في رحلة عمل، زواجه وانفصاله عن أسرته وكون أميرة تعيش معه كما إنه تغير أيضًا كشخص فقد بدا أكثر نضجًا من أي وقت سابق.

انتبه إلى إنه قد أطال الشرود فاعتذر وبدأ يناقش معه تفاصيل القضية مما أثرى أفكار عدي للحصول على المزيد من الأدلة، قضوا العديد من الساعات يعملان بدون أن ينتبها إلى الوقت حتى أتت أميرة تحمل الطعام فبدأ حسن يمط جسده في إرهاق بينما عدي فقد كان يتناول الطعام في شرود مفكرًا في الخطوة القادمة.

بعد الانتهاء من الطعام جلسا يتسامران قليلا ثم قال حسن معبرًا عن الأفكار التي شغلته منذ رؤيته لعدي:-

-أنت تبدو مختلفًا للغاية عما كنت عليه قبل سفري المفاجئ.

ابتسم وقد بدا أن النسخة التي يتذكرها حسن عنه كانت منذ قرون طويلة حتى إنه لا يتذكرها حقًا، قال أخيرًا:-

-ربما القدر من غيرني بهذا الشكل.

ابتسم حسن ونظرة واحدة إلى عينيه المليئة بالحب جعلته يعرف اسم القدر الذي يقصده، تساءل بفضول لم يستطيع منعه:-

-كيف تعرفت على هذا القدر إذًا؟

اتسعت ابتسامة عدي عندما تأكد أن حسن لا يتذكر حقًا شيماء من اللقاء في المول، شرد قليلا وقال:-

-كان من المقدر أن تتشابك طرقنا برغم توازيها.

ابتسم حسن قائلا في مرح:-

-حسنًا يا روميو، يجب أن أذهب الآن، سوف أقابلك غدًا للتحقيقات.

كاد عدي أن يشكره لكن حسن قال في تذمر:-

-توقف عن التصرف بتهذيب فذلك يخيفني حقًا.

ضحك عدي بينما يودع حسن ثم عاد إلى غرفته مرة أخرى يتابع دراسة القضية مجددًا خوفًا من أن يكون قد تغافل عن أي تفاصيل مهمة، تحاوطه

نظرات شيماء العطوفة تتمنى أن تنتهي تلك القضية بعدالة حتى ينتهي ذلك الكابوس تمامًا لكلاهما.

***

جلس عدي في مكانه بقاعة المحكمة، وقد جاء اليوم المنتظر أخيرًا ليجني ثمار عمله الشاق طيلة الفترة السابقة، شاعرًا بالتوتر والرهبة لوجوده هنا لأول مرة مع قضيته الأولى برغم أن رئيسه يرافقه لكن تلك القضية كانت بغاية الأهمية من أجل شيماء ومن أجله أيضًا حتى لا يلطخ اسم رئيسه المسؤول رسميًا عن تلك القضية.

مازال يتذكر مكالمة أبيه الغاضبة بعدما استطاع أن يتوصل إلى دليل كافي لأن تصل القضية إلى المحكمة متهمًا إياه بأنه يخون اسم عائلته ثم أنهى المكالمة بأن قال بتهديد:-

" استعد لتوسم بالفشل طيلة حياتك المهنية بفشلك في أول قضية لك."

زفر في ضيق، وبخلاف مشاعره الداخلية فقد بدا شديد الثقة وهو يترافع لكن في المقابل لم يتأثر محامي خالد الحداد بل اتسعت ابتسامته في ثقة كما فعل منذ أن عرف بهذه القضية، وأبطل هجمات عدي فالسيارة تم سرقتها وبالطبع هناك أوراق رسيمة بالمحضر بالتالي ليس هناك قضية، وبعد استجوابه لوالد الضحية الذي عمل في الشركة طيلة عمره استطاع إثبات أن موكله لم يسيء إليه قط فلماذا قد يرتكب مثل هذا في ابنته؟!

بالإضافة إلى حراس الشركة الذين شهدوا لصالحه. كان شديد الثقة في الفوز بينما يعود إلى مقعده لكن بخلاف توقعاته فقد ابتسم عدي وأعلن عن ورقته الرابحة، الشاهد الإضافي والذي لم يعرف هويته أو طبيعة الدليل بحوزته إلا قاض المحكمة في آخر لحظة، توترت ملامح المحامي بسبب الشاهد الغير متوقع ونظر إلى خالد الحداد والذي بدا قلقًا فقد حرص كلاهما على شراء أقوال جميع الشهود المحتملين.

دلف الشاهد ولم يتعرف عليه خالد إلا بعدما ذكر عدي هويته ثم بدأ في استجوابه قائلا:-

-في الليلة التي حدثت فيها الجريمة، هل رأيت خالد الحداد في الشركة؟

تعرقت راحتيه في توتر ولكنه أجاب في صدق:-

-أجل، لقد كنت أعمل لوقت متأخر للغاية، ورأيته يدخل إلى مكتب الشئون.

تساءل عدي في ثقة:-

-لماذا ذهب إلى هناك، هل عرفت ذلك؟

-اعتقدت إنه يبحث عن شيء فلم يبدو على طبيعته لذلك لحقت به...

قاطعه عدي قائلا:-

-كيف لم يكن طبيعيًا؟

-بدا مترنحًا قليلا، واستطعت سماع صوت ارتطامه بالأشياء في المكتب.

أومأ عدي وقال:-

-هل عرفت ما الذي كان يبحث عنه؟

صمت قليلا ثم قال:-

-بعد مغادرته وجدت أن شاشة الحاسوب تعرض عناوين الموظفين في الشركة.

-هل كان من ضمنهم اسم مساعد خالد الحداد، والد الضحية؟

أومأ الشاهد في صمت ليشكره عدي ويلتفت إلى القاضي قائلا بنبرات واثقة:-

-لقد كان خالد الحداد مخمورًا في تلك الليلة، واتجه إلى الشركة ليحصل على عنوان بيت مساعده للحصول على تلك الطفلة التي جذبته.

اعترض محامي خالد متغلبًا سريعًا على صدمته، بينما خالد فقد اشتعل الغضب بداخله متذكرًا إرضاء طاقم الأمن لديه مانحًا إياهم مبالغ ضخمة للشهادة لصالحه ومن ضمنهم هذا الوغد إذًا لماذا هو هنا؟!

قال المحامي:-

-هذا استنتاج لا أساس له من الصحة، فغالبًا ما يحقد الموظفين على رؤسائهم، وبالتالي فإن شهادة موظف واحد مخالفه لشهادة باقي طاقم الأمن في تلك الليلة لا يعني أي شيء.

بدا على القاضي الاقتناع حتى ابتسم عدي قائلا بعذوبة:-

-ولذلك يا سيدي القاضي لقد وضعت بين يدي المحكمة دليلا آخر، وهو تسجيل لخالد الحداد يمنح رشوة لذلك الموظف مقابل صمته.

أدرك جيدا إنها النهاية شحب وجهه وجلس في استسلام بينما خالد فقد كانت نظراته كالموشك على الموت فقد كان متأكدًا إنه اشترى أقوال جميع الحراس لكنه لم يعمل حسابًا أن تُسجل أقواله على هاتف هذا الحارس أثناء تقديم الرشوة له.

ابتسم عدي بمكر متذكرًا زيارته إلى جميع الحراس في منازلهم ولكن لم يكن هناك من بينهم إلا هذا الحارس الذي شعر إنه قد ينقلب على سلطة الحداد بسبب قصر مدة عمله معهم وبالفعل تكررت زياراته له مستغلا تأنيب ضميره ولا يشعر بالحرج في الاعتراف إنه ابتزه عاطفيًا خاصة عندما أوضح له أنه أيضًا ينتمي إلى عائلة الحداد لكن الحقيقة لا يجب أن تختبئ فاعترف له في نهاية الأمر بالأموال التي صرفها خالد الحداد له بعد استدعائه إلى مكتبه وإنه شعر بالخوف عندما عرف من زملائه إنهم حصلوا على أموال لقاء صمتهم فتصرف كما يرى في الأفلام مستخدمًا هاتفه لتسجيل ما حدث خوفًا من أن يضمر له خالد الحداد أي شر.

تم تقديم الدليل إلى المحكمة يصاحبه تقرير فحص صحته وتم التعرف به على صوت خالد الحداد بوضوح يمنح الرشوة إلى موظفه طالبًا منه أن

يحتفظ بالصمت، وبربط الخيوط معًا واستجواب الشاهد مجددًا والذي أكد على أقواله.

بالفعل بعد دقائق كانت صرخات خالد الحداد ترتفع في تهديد ووعيد بعدما تم الحكم عليه بـالسجن لمدة خمسة عشر عامًا بسبب اغتصاب قاصر مما أدى إلى موتها.

خرج عدي من القاعة منتصرًا بخطوات واثقة ليجد شيماء تقف أمام القاعة في توتر ليبتسم لها بروعة صرخت في فرحة على أثرها ثم ركضت تحتضنه بتلقائية بينما تنهمر دموعها في سعادة بالغة لتتسع ابتسامته ويحتضنها في حب.

ابتعدت عنه في خجل عندما ارتفع صوت والد الضحية يشكر عدي بنبرة باكية همست بخفوت:-

-سوف أنتظرك في السيارة.

أومأ عدي ثم التفت إلى الرجل وربت على كتفه قائلا:-

-لا داعي أبدًا لشكري إنها العدالة فقط.

جفف الرجل دموعه وربت على كتفه في امتنان ثم غادر منكس الرأس تلحقه نظرات عدي الحزينة فقد كان يدرك إنه حتى إعدام خالد الحداد لن يؤثر على جرح ذلك الرجل فلن تعود طفلته الصغيرة مرة أخرى.

بالفعل كان الرجل يجر قدميه والدموع تنهمر من عينيه فحتى بعد معرفته بهوية قاتل طفلته منعه خالد الحداد من دخول الشركة ومع انهيار القضية في القسم استجاب لنصيحة هشام ولجأ إلى مكتب محاماة للمساعدة وبالفعل حصل على العدالة من أجل طفلته لكن كل هذا لم يعيدها إليه مرة أخرى لكن لعلها وجدت الراحة الآن.

على الجانب الآخر تم السماح لسيف بلقاء خالد لدقيقة قبل إرساله إلى السجن، قال خالد في غضب:-

-يجب أن تخرجني من هنا، أنا لن أموت هكذا..

لم يبدو على سيف أي تأثر بل قال:-

-كما احتفظت بالصمت في قاعة المحكمة فلتفعل ذلك حتى موتك، لا يجب أن يُذكر اسمي في تلك القضية أبدًا..

بدا خالد مشدوهًا وقال متلعثمًا:-

-ماذا تعني؟!

أردف:-

-ألن تخرجني من هنا؟

بدا عديم الاكتراث بينما يقول:-

-لقد انتهى الأمر فهناك شاهدين اعترفا عليك وهذا أكثر من كافي، ولذلك فلا داعي أن نذهب معًا إلى الجحيم الآن.

بلل شفتيه قائلا في ثقة لا يشعر بها محاولا الوصول إلى مساومة:-

-ما الذي قد يجعلني لا أذكر اسمك؟

ابتسم سيف وقال بنبرة ماكرة:-

-ربما لأني أعرف عن ماضيك ما لا تتذكره حتى، ألا تتذكر سمية؟!

شحب وجهه حتى كاد يحاكي الأموات بينما يردف سيف قائلا:-

-بالطبع إذا انتشر الخبر فإن الأمر سوف يفوق ألم السجن، أعني فمهما كان والدها غاضبًا منها إلا إنه إذا عرف هوية قاتلها فسوف يفضل أن يخرجك من السجن بأي نفوذ يمتلكه ليتعامل معك بطريقته الخاصة خاصة إنه ليس هناك أي عائق الآن مثل وجود ابنه في مكان الحادث سابقًا، ما رأيك؟

كان وجهه يزداد شحوبًا والذعر في عينيه يتضاعف ليبتسم سيف قائلا:-

-حسنًا، أرى إننا اتفقنا جيدًا، سوف أغادر الآن.

غادر سيف تاركًا خالد يتلوى تحت سلطة الندم حتى إنه لم يعر اهتماما إلى محمد الذي دخل يخبره إنه سوف يحاول جاهدًا مساعدته ثم تساءل بتردد إذا كان فعلها حقًا فاكتفى بابتسامة ساخرة بدون أن يبالي بالرد فقد كان يعرف

جيدًا إنها النهاية، وقد تم كتابتها بطريقة جيدة للغاية حتى إنه ليس هناك أي كاتب مهما كانت مهاراته أو نفوذه بقادرًا على تغييرها.

***

ظلت الجدة مصدومة ورددت:-

-15 سنة؟!

ساعدتها مريم على الجلوس بينما شهد وسارة فقد ظلتا واجمتين في ذهول وصدمة حتى صاحت ناهد:-

-كيف يتم إصدار مثل ذلك الحكم في حق خالد الحداد، أي قانون هذا؟!

وبين الحزن والغضب في الغرفة انطلقت ضحكة عالية مريرة جعلتهم يلتفتون إلى شهد في ذهول، قالت في سخرية برغم الدموع في عينيها:-

-هل حقًا تعتقدين لأنه العظيم خالد الحداد فلا يمكن معاقبته على جرائمه؟!

أردفت في شراسة بينما يعتلي ملامحها الاشمئزاز:-

-زوجكِ قد اغتصب فتاة، طفلة صغيرة انتزعها من والدها..

أردفت بدون تفكير:-

-ربما هذا هو السبب في أن القدر قد انتقم منه في سارة.

بعد انطلاق تلك الكلمات من فمها أدركت فداحة ما ارتكبته والتفتت إلى سارة في صدمة واعتذار واضح في عينيها لتبتسم الأخيرة قائلة في سخرية اكتسبتها في الفترة الأخيرة مع خروجها من صومعتها :-

-ربما أنتِ محقة.

نظرت إلى الجميع وقالت:-

-يجب أن أغادر الآن، إلى اللقاء.

صاحت ناهد في غضب:-

-إلى أين تذهبين الآن، ووالدكِ في السجن؟

لم تلتفت إليها وقالت بنبرة خالية من المشاعر:-

-كما ذهب إلى عمله وابنته بين الحياة والموت في المشفى.

لم يستطع أحدٌ أن يعترض طريقها فقد كانت أكثر من محقة، حاولت مريم أن تخفف عن الجدة لكن لدهشتها لم تزرف أي دمعة أو تنهار مما دفعها إلى أن تتساءل في قلق:-

-هل أنتِ بخير يا أمي؟

ابتسمت الجدة بشحوب وقالت:-

-كان فاسدًا لدرجة كانت تخيفني، ولكنني لم أتوقع هذا أبدًا.

أردفت بأعين دامعة:-

-لم أعرف أنه قد يرتكب تلك الجريمة البشعة يا مريم، لم أتوقع هذا أبدًا.

ربتت عليها مريم تخفف عنها ولكنها تابعت في ألم:-

-أشعر بالسخط على رحمي الذي أنجبه.

-لم يكن خطأكِ.

قالت ناهد ذلك بعدما استعادت هدوئها ثم تابعت وقد حازت على انتباههما:-

-لقد كان جيدًا للغاية في الادعاء حتى أنتِ كأمه لم تكوني لتعرفي الوجه البشع الحقيقي.

انهمرت دموعها بينما تقول ساخرة من نفسها:-

-لقد كنت أعرفه جيدًا، لكنني فقط ظننت أن البقاء هنا يستحق تحمله.

احتضنتها الجدة في صمت ربما للمرة الأولى منذ دخول ناهد إلى هذا المنزل، أجهشت بالبكاء في عنف وقد صعقها الواقع فقد أضاعت حياتها مع هذا الشخص وانتهى بها المطاف موسومة هي وبناتها بالعار طيلة العمر.

راقبتهما مريم وشهد في صمت وبأعين دامعة فيبدو أن سحابة الحزن لن تفارق هذا المنزل قريبًا على أية حال، وقد تأكد ذلك عندما دخل أدهم إلى المنزل منكس الرأس وكأن عمره تضاعف فجأة، ونظرة إلى عينيه كانت كافية ليعرفوا أنه قد أدرك أنه كان يحارب في الجانب الخاطئ منذ البداية.

***

ما إن خرجت من المنزل حتى تبدد تمامًا ذلك الهدوء الساخر الذي تظاهرت به سابقًا فانهمرت دموعها بدون توقف، فقد اكتشفت بنفسها بعد ما حدث لها أن والدها ليس بالشخص الذي ظننته ولكنها لم تفكر قط إنه قد يقدم على فعل مثل هذا، والمؤلم أن شهد محقة فربما تلك هي العدالة أن يتم اغتصابها كما فعل والدها مع أخرى.

ارتفع صوت نحيبها بينما تسير بلا توقف وقد نسيت أنه من المفترض أن تلتقي بقاسم لإجراء المشروع المطلوب منهما وذلك بعد إلحاحه عليها وملاحقته لها حتى وافقت أخيرًا..

نظرت إلى شاشة هاتفها ما أن رن بينما الدموع تمنع عنها الرؤية الواضحة ثم أجابت بدون أن تعرف هوية المتصل، ولكنها سرعان ما تعرفت على صوته القلق ما أن سمع البكاء في صوتها:-

-سارة، ماذا حدث، هل أنتِ بخير؟

شهقات باكية كانت الجواب فتساءل مرة أخرى:-

-أين أنتِ الآن، وسوف آتي إليكِ؟

أجابت في بكاء:-

-لا أعرف، لقد سرت فقط.

تنهد وقال في هدوء:-

-لا بأس، استخدمي هاتفك وارسلي لي موقعك، حسنًا؟

-حسنًا.

هتف وقد تسارعت أنفاسه دلالة على ركضه:-

-جيد جدًا، افعلي هذا، وسوف آتي من أجلكِ قريبًا.

فعلت ما قاله وظلت واقفة تنهمر دموعها في شرود، تفكر في تلك الفتاة التي قتلها والدها أتوسلت له ليرحمها ويتركها كما فعلت هي سابقًا؟ ألم يرى ابنته بها فيتركها لطفولتها البريئة، لماذا فعل هذا بهم؟!

-سارة!

ما إن رأته حتى ارتفع نحيبها وبدون أي تفكير ألقت بنفسها بين ذراعيه تجهش بالبكاء بينما شعر هو بالعجز ولم يملك إلا أن يربت فوق رأسها برفق يهدئها كطفلة صغيرة، وما أن هدأت شهقاتها قليلا حتى ابتعدت عنه في خجل غريب عنها.

تساءل في قلق:-

-ما الذي حدث؟!

نظرت إليه في تردد خوفًا من أن يحكم عليها بالسوء ويكرهها..

لاحظ توترها وقلقها فقال بصدقٍ واضحٍ:-

-أعدك أن ما سوف تقولينه هنا لن يعرفه أحد، ولا بأس أيضًا إذا لم تكوني في حالة جيدة للحديث الآن فأنا مستعد للإنصات في أي وقت يناسبكِ.

لا تعرف ما الذي حدث حقًا فبعد دقائق كانت تجلس في تلك الحديقة الصغيرة وقد اندفعت الكلمات من فمها بدون تردد وكأنها كانت تنتهز تلك الفرصة، أخبرته كل شيء تعرضها للاغتصاب وقضية والدها، ولم يحاول قاسم أن يقاطعها فقط تركها تعبر عن كل أفكارها والفوضى التي يزدحم بها عقلها، وبعدما انتهت صمت قليلا ثم قال وكأنه يحادث طفلة:-

-أنتِ تعرفين جيدًا إن والدكِ يستحق العقاب أليس كذلك؟

أومأت في صمت، وما زالت منكسة الرأس تنهمر دموعها.

أردف:-

-بالنسبة لما حدث لكِ فلم يكن أيًا من هذا خطأك أو ذنبك إنها فقط إرادة الله.

رفعت رأسها إليه تتساءل في ضعف:-

-حقًا؟

أومأ مبتسمًا بلطف وقال:-

-حقًا.

ترددت قليلا ثم تساءلت بينما تتجنب النظر إليه:-

-هل ما حدث معي غير من نظرتك لي؟

-لقد كنت أعرف ذلك منذ البداية.

رفعت رأسها إليه في صدمة ورددت في عدم تصديق:-

-كنت تعرف؟!

اعترف قائلا:-

-لقد كان أنا من وجدكِ في تلك الليلة.

نظرت إليه في صدمة ثم قالت بألم:-

-لذلك تقربت مني؛ لأنك أشفقت علّي.

كانت على وشك ترك المكان لكنه امسك كتفيها مثبتًا إياها قائلا في مرح:-

-اهدئي أيتها النارية.

أردف بجدية متجاهلا محاولاتها للتملص منه:-

-إذا كنت أشفق عليكِ فكان هناك العديد من الطرق لمساعدتكِ بدون التورط.

صمت برهة ثم قال بمرح بينما ينظر حوله:-

-ولم يكن لينتهي بي المطاف في تلك الحديقة الغريبة.

تساءلت في عدم ثقة:-

-حقًا، لم تكن شفقة؟

هز رأسه قائلا مبتسمًا:-

-لم تكن شفقة أبدًا.

اتسعت ابتسامتها وقد شعرت بالارتياح البالغ خاصة عندما أدركت أنه كان يعرف بخصوص الحادث فذلك كان مطمئنًا لها فبقائه بجوارها يعني لها الكثير.

تأملها في حنان يرى الطفلة بداخلها كما اعتاد في الفترة التي تلت الحادث كانت مجرد صغيرة تحتاج إلى الحنان، ابتسم في مرح متذكرًا مدى استحالة تحقق اللحظة الحالية في الماضي حين كان دائمًا ما يتذمر من ابنة عائلة الحداد التي تظن أنها أميرة، والآن ها هو واقعًا في حب تلك الأميرة.

نظرت إليه في تساؤل عندما طال شروده فحرك رأسه مبتسمًا وقال:-

-لنسير قليلا، سوف يجعلك السير أفضل.

أومأت في طاعة غريبة عنها ولحقت به في صمت تتعجب من التغيرات التي تصيبها في وجوده.

***

جلست في السيارة تشعر بوجهها يحترق خجلا من اندفاعها السابق، أخفت وجهها سريعًا عندما ركب السيارة لتتسع ابتسامته، بدأ التحرك بالسيارة لترفع رأسها وتتساءل في حيرة:-

-أين أميرة؟

-إنها تعتقد أنه من الأفضل أن تبقى مع أمي في ذلك الوقت، على الأقل في ظل الظروف الحالية في المنزل.

أومأت في تفهم ليتابع في مرح:-

-والآن أين تريدين الذهاب لنحتفل؟

-لا بأس فـ...

قاطع اعتراضها قائلا:-

-يمكننا الذهاب إلى مطعم قريب أعرفه سوف يعجبكِ.

أومأت في رضوخ ليبتسم ويتجه إلى ذلك المطعم بينما هي فقد شردت في سير الأمور حتى الآن..لقد تحققت العدالة حتى وإن لم تكن موجهة لها بذاتها.

-هل أنتِ بخير؟

انتزعها صوته من شرودها، وقد انتبهت إلى توقف السيارة، وبعد دقيقة كانت تتأمل المطعم في إعجاب واضح دفع الابتسامة إلى ثغره.

قال بجدية:-

-لقد وعدتكِ سابقًا بأمرٍ ما أن ينتهي كل شيء.

نظرت إليه في انتباه ليتابع قائلا:-

-الخطة كانت أن أمنحك حريتكِ في هذا اليوم.

شحب وجهها للغاية فذكر الانفصال قد ألم قلبها فهي لم تعد تدرك ما تريده حقًا، أردف مبتسمًا:-

-لكن الخطة تغيرت تمامًا، فبدلا من منحك حريتكِ أريد أن أسلبكِ إياها، وتلك المرة بإرادتكِ.

تساءل في توتر بينما يلتقط كفيها:-

-ما رأيكِ، هل تقبلين الزواج بي؟

شعرت أنها تعود إلى الحياة مرة أخرى ووجدت نفسها تبتسم في خجل وتقول:-

-ولكننا بالفعل متزوجين!

حرك رأسه في رفض، وقال:-

-لا، ليس هكذا، بل نتزوج في حضور الجميع حيث أنظر إلى جمالكِ في فستان الزفاف الأبيض..

انهمرت دموعها ليتابع في توتر:-

-ما رأيكِ؟

كانت سابقًا لا ترى في ملامحه إلا نسب عائلة الحداد، ولكن مؤخرًا تعرفت على عدي الحقيقي فأصبح كل ما تراه عند تأمله هو الرجل الذي تتمنى أن

تتابع حياتها معه فأشرقت ابتسامتها من بين دموعها وأومأت لتتسع ابتسامته ويشدد قبضته على كفيها متأملا ملامحها في حب ممتنًا لذلك القدر الذي جمعهما في ذلك اليوم.. هو الشاب العابث والفتاة التي دائمًا ما كانت تتحمل المسؤولية، وجودهما معًا كان معجزة بالنسبة له وسيظل شاكرًا لتلك المعجزة التي غيرت حياته للأبد.

الفصل الخامس والعشرون

ترك مراد مكتبه عندما أخبروه أن هناك فتاة في الخارج تريد رؤيته ولم تفصح عن هويتها، تغيرت ملامحه عندما رآها فقالت في تبرير:-

-إذا عرفت إنها أنا لم تكن لتسمح لي بلقائك.

تجاهلها وقال بنبرة فظة:-

-ماذا تريدين؟

صمتت برهة وقالت:-

-لقد اعتذرت لشيماء بسبب ما فعله والدي بها وبغيرها، وأنا حقًا أشعر بالخزي لما فعله، ولكن لا أحد يملك حق اختيار الدماء في عروقه.

أردفت بتوسل عندما أبدا تململه:-

-سوف أنتهي سريعًا، أعدك.

ضمت شفتيها محاولة أن تمنع نفسها من البكاء لكن مرغمة برقت عيناها بالعبرات، وقالت ببطء:-

-أعرف أن ما سوف أقوله الآن لن يغير من الأمر شيء، ولن يمحي ما فعله والدي، ولكني حقًا آسفة.

أردفت بصدق بدون أن تبعد عيناها عنه:-

-آسفة لأني من عائلة الحداد، أسفة لأني تسببت في جرح كبير لكما بدون أن أتعمد ذلك، وأسفي الأكبر إني ما زلت أمتلك مشاعر تجاهك...

جحظت عيناه في ذهول واضح ولكنها قالت سريعًا:-

-لا أنتظر منك أي رد فأنا أعرف جيدًا رأيك بي، ولكني فقط أردت أن أخبرك بذلك، سوف أغادر الآن وسوف أحرص على ألا تراني مجددًا لا تقلق.

غادرت بدون أن تترك له فرصة للتحدث كان مشدوهًا منذ مغادرتها لا يصدق إنها اعترفت بمشاعرها له في الشركة.

زفر في ضيق لا يعرف ما الواجب فعله حقًا، هل يتحامل عليها بذنب والدها؟ ولكن فكرة اسم الحداد الذي يلي اسمها تثير غضبه للغاية، أن تكون ابنة الرجل الذي دمر حياة الفتاة التي يعتبرها شقيقته يغضبه ويثير حنقه كثيرًا.

تابع عمله بذهنٍ شاردٍ لا يعرف حقًا هل سوف يكون قادرًا يومًا ما على النظر إلى وجهها بدون رؤية وجه شيماء الباكي من ذلك اليوم بالمشفى؟!

***

نهض عدي في كسل يفتح الباب ولكن سرعان ما اختفت ابتسامته ما أن رأى وجه الطارق.

-ألن تسمح لي بالدخول؟

ظهر التردد على ملامحه ثم تنحى جانبًا يسمح له بالدخول، أغلق الباب وقاده إلى غرفة المعيشة.

خيم الصمت على كلاهما لفترة ثم قال أدهم أخيرًا:-

-أدرك أني ربما أكون آخر شخص تريد رؤيته الآن، ولكن..

تردد قليلا ثم أردف في شجاعة:-

-لقد أردت أن أعتذر لك عن كل شيء، لقد كنت مندفعًا بسبب حرصي على اسم العائلة ربما ذلك ليس عذرًا ولكني فعلا أشعر بالأسف، رؤيتك في المحكمة بينما تقدم الأدلة ورؤية دموع والد تلك الفتاة دفعتني إلى إدراك الحقيقة بطريقة جعلتني أشعر بالخزي..أنت أخي الصغير قبل أن تكون ابن عمي، وأتمنى حقًا أن تسامحني فأنا لا أريد أن نظل في خصامٍ دائمٍ.

صمت عدي برهة ثم قال:-

-إذا سامحتك شيماء حينها سوف أحذو حذوها.

أومأ أدهم في تفهم وقال:-

-وأنا أكثر من مستعد للاعتذار لها شخصيًا.

ابتسم بخفة قائلا:-

-جيد.

أردف في هدوء وثقة:-

-يمكنكِ الظهور الآن يا أميرة.

خرجت أميرة من خلف الباب منكسة الرأس في خجل وقد جعلها الفضول ما أن سمعت صوت أدهم إلى أن تتخفى وتتصنت على محادثتهما، قال عدي:-

-استدعي شيماء.

رمقت أميرة أدهم في شك ثم قالت:-

-حسنًا.

بعد دقيقة وقفت شيماء أمامهم وحاولت أن تخفي الضيق الذي شعرت به فرؤية أدهم استدعت العديد من الذكريات المزعجة لها، ولكنها حاولت إخفاء ذلك الانزعاج حرصًا على مشاعر عدي.

قال أدهم في صدق وندم:-

-أعرف أن ما ارتكبته في حقك لا يمكن مسامحته بسهولة، ولكن عذري الوحيد هو خوفي على عائلتي وحبي لهم، وأتمنى حقًا أن تقبلي اعتذاري.

نظرت إليه في تردد ولكنها كانت تعرف أنها لا تملك إلا مسامحته حتى وإن كان ذلك ظاهرًا فقط خاصة بعدما أخبرتها أميرة بالشرط الذي وضعه عدي حتى يسامحه، ولذلك فقد قالت في هدوء:-

-لا بأس، لقد انتهى الأمر أخيرًا.

ابتسم لها في امتنان واضح ثم نظر إلى أميرة التي ما زالت توجه إليه نظراتها النارية فيبدو أن كسب ود تلك الصغيرة لن يكون سهلا.

قاد سيارته إلى المنزل ما أن حصل على مسامحة كلا من عدي وشيماء، ولكن الكراهية الواضحة في نظرات أميرة ما زالت تزعجه كانت إشارة شديدة الوضوح تخبره أنها لن تسامحه بسهولة كما فعل شقيقها وزوجته حتى إنها تجنبت محاولاته للانفراد بها.

زفر في ضيق مدركًا إن أمامه طريقًا طويلا لكسب ود الصغيرة وكان يعرف أن ذلك مهم بالنسبة له، فاستمرار غضبها منه لا يفعل شيئًا إلا إضافة مزيد من الإزعاج على كاهله ويزعزع استقرار حياته..

***

-هل سوف تذهبين إلى ابنك الذي قد دنس اسم تلك العائلة؟

زفرت مريم في ضيق والتفتت إليه قائلة بنبرة ساخرة أصبحت تلازمها مؤخرًا:-

-ابني من دنس اسم العائلة أما شقيقك فقد جعلنا نرفع رؤوسنا في تباهي بين الجميع أليس كذلك؟

صاح سيف في غضب:-

-راقبي كلماتك جيدًا يا مريم.

ابتسمت بسخرية وقالت:-

-أنا ذاهبة لأحضر حفل زفاف ابني بما إنك قد فقدت ذاكرتك في هذا العمر ونسيت إنه ابنك أيضًا.

هتف ببرود:-

-ليس هناك ذهاب لأي مكان.

عقدت ساعديها أمام صدرها وقالت في سخرية:-

-ومن الذي سوف يمنعني يا ابن الحداد، أنت؟!

غادرت الغرفة بعد أن رمقته في ازدراء واضح وما أن أصبحت في الردهة حتى ارتفع صوته جهوريًا قائلا:-

-إذا خرجتِ من هنا فلا تعودي مجددًا.

التفتت إليه قائلة في ازدراء:-

-هذا هو المتوقع منك.

أردفت في عدم اهتمام:-

-سوف أذهب لحضور الزفاف ولن يمنعني أحدٌ اليوم.

ظهر على ملامح محمد الضيق من نزاعات مريم وسيف الشبه يومية، وقال:-

-ليسِ هناك داعي للشجار يا سيف، دعها تحضر زفاف ابنها.

نظر إليه سيف في عدم اكتراث وقال في تصميم:-

-إذا خرجت من هنا تنسى مكانها في هذا المنزل.

حاولت الجدة أن تعترض على تصرفات سيف لكن مريم قالت بدون أي تردد:-

-هذا للأفضل صدقني فلقد اكتفيت منك يا سيف الحداد، والسبب الذي دفعني لتحملك زواجه اليوم أما السبب الآخر فهي في حماية شقيقها سعيدة.. على الأقل بعيدًا عن عدم مبالاتك.

التفتت لتغادر ولكنها تجمدت عندما صاح قائلا:-

-أنتِ طالق يا مريم.

لم تلتفت لتواجههم فقط انهمرت دموعها وتنهدت في ارتياح ثم ارتسمت ابتسامة سعيدة فوق شفتيها، التفتت إليه معترضة توبيخ كلا من الجدة ومحمد له قائلة في امتنان:-

-شكرًا، حقًا تلك أجمل هدية تمنحها لي.

كان رد فعلها غير مفهوم، ولكنها كانت حقًا سعيدة للحصول على حريتها منه بعد تلك الأعوام، أصابه الغيظ من عدم اكتراثها وقد ظن إنها سوف تتوسله ليستعيدها فغادر إلى غرفته في غضبٍ واضحٍ بينما الجدة فقد نظرت إليها لتقول مريم في راحة:-

-إنه للأفضل، أنتِ تعرفين ذلك.

لم تستطع الجدة أن تنكر ذلك وأومأت في هدوء ثم اقتربت تحتضنها وقالت:-

-وصلي تهنئتي إلى عدي.

أومأت مريم في صمت، والتفتت لتغادر تدخل محمد قائلا وبدون أن ينتظر منها إجابة:-

-سوف أوصلكِ إلى هناك.

ركبت بجواره في صمت، واكتفت فقط بأن أخبرته بالعنوان ثم انزوت تفكر بدون أن تدرك أن أفكارهما متماثلة، فكلا منهما يتذكر ذلك الماضي المشترك بينهما والذي بدا في تلك اللحظة كأنه كان بالأمس.

تذكرت حياتها القديمة وتعرفها على محمد، حبها الأول، فقد عمل والديها في قصر عائلة الحداد منذ صغرها فوالدتها كانت تعمل في المطبخ بينما والدها فقد كان سائقًا، ولعل صغر سنها دفع والدتها إلى أن تطلب من الجدة أن تأذن

لها أن تجلبها معها، ولاقى طلبها ترحيبًا بالغًا منها، تتذكر إنها في بعض الأحيان كانت تلعب معها.

حينها بدأت الصدف تجمعها مع محمد حتى بدأت نبتة الحب تزدهر في قلبهما معًا أو هكذا ظنت حتى أصابتها صدمة بالغة عندما دفعه والده ليتزوج، وقد سمعت من والدته بعد ذلك إنها لم تكن رغبته فلم يكن يستطيع الرفض بسبب مرض والده آنذاك، ما زالت تتذكر شعورها حينها ولكنها لم تملك أي حق لمنعه فالنظرات لا تمنحها أي سلطة عليه، وبالفعل تم الزواج وسافر محمد لمتابعة أعمال الأسرة في الخارج تاركًا إياها تتلوى ألمًا من لوعة العشق فتتجنب التواجد في القصر خلال أيام زياراته، واشتد جرحها عندما أُعلن خبر حمل زوجته.

زمت شفتيها في ضيق عندما تذكرت كيف استغل سيف جرحها وحاول التقرب منها، ولكنها لم تستطع أن تتقبله مما زاده غضبًا وحقدًا، وفي يوم قرر إنه اكتفى من محاولات كسب ودها فهددها بعائلتها ولم يكتفي بالتهديد الشفوي بل تسبب في حادث لوالدها أسفر عن بقائه في المشفى لعدة أيام، ولم تستطع أن تخبر أي شخص فمن كان ليصدق أن سيف الحداد يفعل كل ذلك ليجبر ابنة الخادمة على الزواج منه!

دفعها خوفها إلى الموافقة رغمًا عنها لعلها تستطيع أن تسدد جزء ضئيل من فضل والديها عليها، لم تمانع الجدة فهي تحب مريم بينما والد محمد فقد حقق

طموحه في زفاف ابنه البكر فلم يرى سببًا للرفض، وبدأت بالفعل إجراءات الزفاف والتي امتنع محمد عن حضورها لحمل زوجته.

شهدت ليلة زفافها اغتصابها لأول مرة لينتج ثمرة ذلك الاغتصاب "عدي" تلاها ابتعاد سيف عنها بعدما حقق رغبته في امتلاكها وبدأت تتوالى خياناته لكنها لم تهتم كثيرًا فقد كانت حياتها من أجل طفلها، ثم جاء الخبر المفجع عندما توفيت زوجة محمد في حادث سيارة، وعندها عاد مع طفلٍ صغيرٍ يكبر عدي ببضعة أعوام لا يستطيع تربيته فتكفلت عن طيب خاطر بالعناية به.

ابتسمت بنعومة وهي تتذكر أدهم الصغير ففي هذا الوقت كان الأمر وكأن الحب بداخلها تحول إلى ذلك الطفل، ولم يُخفى حبها لذلك الطفل عن أحد، ولكن سيف كان يعرف سر تعلقها بالصغير فاشتدت غيرته وتوالت ليالي مؤلمة مليئة بالذل والمهانة حتى حملت للمرة الثانية بصغيرتها "أميرة"، ومع التغير في شخصية محمد منذ عودته من السفر وتحوله إلى شخصية باردة مع الجميع لم يجد سيف سببًا للغيرة وقد أيقن أنه قد حقق غرضه في تدميره فابتعد عنها تمامًا.

تنفست بعمق وهي تتذكر كيف كان محمد في الماضي ذلك الشخص المرح خفيف الظل لكن الشخص الذي عاد كان شخصًا باردًا رجل عملي لا يهتم إلا بأعماله فقط، ولم يعد يعرف لحس الدعابة سببًا.

نظرت إليه لتتلاقى نظراتهما صدفة كان يعرف جيدًا ما الذي تفكر به فلا أحد يستطيع منعهما من تذكر الماضي، فما زال الألم حيًا بداخله عندما أخبره والده عن زواج مريم من شقيقه فهذا لم يكن متوقعًا وقد ظن أنها أحبت شقيقه وظن أنه سوف يصونها ويحبها، ولكن عندما عاد كان الأمر مختلفًا عن الصورة التي اعتقدها فقد كان سيف مازال ذلك العابث الذي كان عليه سابقًا بينما مريم فقد كان الألم والحزن في نظراتها وقد تحولت إلى زهرة زابلة تختلف عن الشخص الذي عرفه سابقًا.

كانت رؤيتها مؤلمة له خاصة وهو يدرك جيدًا إنها لا تنتمي له فقرر أن يتخذ وجهة باردة حتى لا يكشف شيئًا من مشاعره، وقد وجه كل ألمه في لومها وكرهها وكأنه يعاقبها لأنها أصبحت لآخر-أنانية منه- وكذلك تحول إلى الشخص الذي هو عليه الآن.

توقفت السيارة أمام الفندق حيث سوف يقام الزفاف، همست بشكر ثم ترجلت من السيارة بدون أن تلتفت إليه، ظل واقفًا يراقبها ثم تنهد وغادر المكان، وهناك أمل صغير يداعبه أن يكون هناك بداية جديدة لقصتهما.

***

نظرت إلى انعكاس صورتها بفستانها الأبيض البسيط، ابتسمت في عدم تصديق، لم تكن لتتخيل أبدًا أن يأتي يوم مثل هذا فذلك كان متوقعًا لأي فتاة إلا هي، ولكن ها هي هدية القدر لها تفوق توقعاتها فلقد وجدت الحب والعدالة في طريقٍ واحدٍ.

تعرقت راحتيها في توتر، ولكن لم تسمح لها الفرصة أن تنفرد بأفكارها الخائفة فقد اقتحم الغرفة كلا من أميرة وشهد.

تأملتها شهد في انبهار وقالت بنبرة صادقة:-

-تبدين رائعة الجمال يا شيماء.

أكدت أميرة كلامها بينما تدور حول شيماء لتتأملها بدقة قائلة:-

-أنتِ جميلة للغاية حقًا سوف يفقد عدي عقله عندما يراكِ.

ارتفع صوت مريم من خلفهن:-

-ذلك إذا لم يكن فقده بالفعل في الانتظار.

ابتسمت شيماء في خجل وقد توردت وجنتيها، احتضنتها مريم وهمست:-

-مبارك يا ابنتي، عسى أن تكون حياتكِ سعيدة دائمًا مع ابني.

شكرتها شيماء ومسدت فستانها في توتر لتمسك شهد كفها وتهمس:-

-لا تخافي، كل شيء سوف يكون بخير، عدي يحبكِ وهذا كافي.

تذكيرها بحقيقة حب عدي لها كان كافيًا ليجعلها تهدأ قليلا، وتنتظم أنفاسها فابتسمت لشهد بامتنان فقد كانت خير صديقة من بعد المحاكمة فاعتذرت لها في انهيار وخزي على ما فعله والدها وقد أدركت الحقيقة كاملة، وكذلك أدركت شيماء بعد بقائها مع عدي تلك الفترة إنه لا ذنب للأبناء فيما ارتكبه

الآباء فأعادت روابط الصداقة بينهما إلى ما كانت عليه وحرصت على عدم التطرق إلى ذكر والدها حتى لا تثير حزنها أكثر..

بعد دقائق كانت تسير في ثقة بجوار مريم إلى عدي الذي كان ينتظرها في ردهة الفندق في توتر، وما أن رآها حتى اعتدل واقفًا وقد فغر فاهه في انبهار شديد وكانت تعابيره أجمل من أي كلمات.

ابتسمت في خجل عندما اقترب منها ليلتقط كفها ويدلفا سويًا إلى داخل القاعة.

لا تتذكر حقًا الأحداث فكل شيء كان ضربًا من الخيال فقد كانت سعيدة للغاية، تحيات من أصدقاء عدي، مفاجأة عدي لها بدعوته لمراد حاولت الاعتذار له عن آخر لقاء بينهما ولكنه اكتفى بالابتسام قائلا إنها قد أحسنت الاختيار، وقد ترك لقائه بعدي على انفراد أثرًا إيجابيًا به وحاز على ثقته ثم عبر عن سعادته من أجلها مما أسعدها للغاية فهو يعتبر القريب الوحيد الذي تمتلكه حقًا.

كان كل شيء في تلك الليلة مثاليًا للغاية وقد حرص عدي على أن يجعل ذلك اليوم ذكرى لا تنسى لها، ولكن كل سعادتها قد تبددت في طريقهما إلى المنزل وبدأت المخاوف تسيطر عليها برغم محاولات عدي المستميتة ليشعرها بالراحة لكن الخوف بداخلها كان في تزايد مستمر بلا توقف.

تعرقت راحتيها وتسارعت نبضات قلبها أكثر من أي وقت مضى ما أن دلفا إلى داخل الشقة، لم تكن المرة الأولى لهما في تلك الشقة معًا، ولكن غياب

أميرة، ومعرفتها أن تلك الليلة لن تكون كسابقتها جعل الخوف ينهش في قلبها.

الفصل السادس والعشرون

تأملها بنظرات متفهمة، وقال بمرح مخففًا من وطأة الوضع:-

-هيا لنأكل من كعكة الزفاف، فلم يسمحوا لي حتى بتذوقها.

حاولت أن تبتسم بدون جدوى، ازدردت لعابها بتوتر وقالت بنبرة مرتجفة:-

-أنا خائفة.

تجنبت النظر إليه تعبث بأصابعها، واستطردت بنبرة متألمة:-

-أدرك أنك تمتلك حقوقًا، وإنه يجب أن أتغلب على ماضي ولكن الأمر يفوق قدرتي، أنا...

وضع أصبعه أمام شفتيها يمنعها عن المتابعة، وقال بنبرة هادئة:-

-لا داعي لكل تلك المخاوف يا شيماء، لن يحدث أي شيء يخالف إرادتكِ، لن يجبركِ أحد على ما لا ترغبين به.

أبعد أصبعه، ومسد وجنتيها بحنان واستطرد بينما يحثها بعينيه على الثقة به:-

-حتى أنا لا أستطيع إجبارك على أي شيء.

ردت بنبرة متألمة:-

-لكن أنا..

قاطعها بنبرة حازمة تلك المرة:-

-لا تفكري في أي شيء الآن، ودعي كل شيء لوقته.

أطرقت صامتة دون أن تدرك كم بدت ضعيفة وبريئة، قال بنبرة حانية:-

-هل يمكنكِ أن تثقي إني لا أستطيع أبدًا إيذائكِ؟

واجهته لتجد الصدق في نظراته واضحًا، ولا يمكن التشكيك بصحته فارتسمت الابتسامة على ثغرها كشعاع شمس دافئ بعد ليلة ممطرة. انبسطت ملامحه وقال بنبرة مبتهجة:-

-بدلي ثيابكِ، أنا سوف أعد العشاء.

أومأت في صمت، وما أن أصبحت بداخل الغرفة حتى اغرورقت عيناها بالعبرات عندما حانت منها التفاتة إلى الفراش الضخم وبتلات الزهور تزينه، لم يكن من المفترض أن يحدث هذا، بعد صراعها النفسي ليلة أمس لتتغلب على مخاوفها، ولكن العزيمة التي تحلت بها تهدمت ما أن أصبحا في خلوة في منزلٍ واحدٍ بعيدًا عن الجميع.

لا يستحق عدي أبدًا أن يُفجع هكذا في عروسه، فقد تحمل الكثير من قبل في سبيلها، وها هي تحزنه وتثقله بما لا يتحمل في ليلة كهذه.

ارتدت منامتها الحريرية المكونة من بنطالٍ قصيرٍ وقميصًا...تأملت ملامحها في المرآة، أصبغت بقايا مستحضرات التجميل على وجهها لمسة من الجمال، صففت شعرها بذهنٍ شاردٍ ثم جلست صامتة مطرقة تحاول أن تستجمع كامل

شجاعتها لتقدم على تلك الخطوة، فالماضي يجب أن يُمحى تمامًا ويندثر ولحدوث ذلك يجب أن تخاطر بالخطوة الأولى.

رغم قناعتها بضرورة التخلي عن الماضي إلا أنها لم تملك أي سيطرة على شحوب وجهها الخائف، وارتجاف كفيها.

زفرت بعمق ثم غادرت الغرفة واتجهت إلى غرفة الطعام، تأملت انهماكه في وضع الأطباق ومازال ببدلته السوداء وعقدة عنقه محلولة بينما شعره مبعثرًا بعشوائية زادت من جاذبيته، إن كان هذا ممكنًا.

ابتسمت بشحوب ولم تملك أي سيطرة على تلك الحمرة التي لونت وجنتيها لنظرة الإعجاب التي اعتلت محياه ما أن لاحظ وجودها، أطلق صفيرًا معجبًا، أطرقت خجلا على أثره.

قالت بتلعثم في محاولة فاشلة منها في إخفاء خجلها والابتعاد عن سلطة نظراته:-

-أساعدك؟

ابتسم وقال ملاطفًا:-

-فقط اجلسي كالأميرة التي كنتِ عليها اليوم، وأنا سوف أعد كل شيء.

ابتسمت بخجل، وأشاحت بنظرها بعيدًا لتتسع ابتسامته، ويتابع مهمته بدون أن يخلو الأمر من بعض المداعبات والملاطفات البريئة.

بعد دقائق اتخذ مكانًا بجوارها متعمدًا، وبدأ في إطعامها بدون أن يبالي باعتراضها المتلعثم أو الخجل الواضح على محياها.

ارتفعت حرارة جسدها لذلك القرب الغير مرغوب به، واشتعلت نيران قلبها كلما التفت إليها يلاطفها قليلا أو يطعمها ويزداد الطعام حلاوة في فمها.

كانت تلوك الطعام ببطء، وتتمنى أن تمتد تلك الوجبة إلى ما لا نهاية رغم أنها حسمت أمرها واتخذت قرارها إلا أن الخوف ما زال يحكم قبضته حول قلبها.

-هل شبعتي؟

ازدردت لعابها ببطء، وتباطأت في الإجابة ثم أومأت في صمت، ولم تسعفها الكلمات، فمن غير المعقول أن تظل تتناول الطعام بدون أي إحساس بالجوع.

طفق يجمع الأطباق رافضًا عرضها الواهي في أن تساعده، وما أن أصبحت وحيدة حتى زفرت بحرارة، كان جسدها يرتجف رغم دفء الغرفة وتجمعت حبيبات العرق فوق جبينها.

عاد ليتفاجأ بكونها ما زالت في مكانها، دنا منها لتنتفض ويسري التوتر في كل جسدها، تجولت نظراتها في جميع أنحاء الغرفة بارتباك تتحاشى رؤيته.

كان توتره مماثلا لتوترها، ولكن كان لزامًا عليه أن يبادر بالخطوة الأولى فلم يرغب في أن تطيل في إبداء التكلف بل رغب في أن تعود إلى شخصيتها المزيج من اللسان اللاذع والعذوبة البريئة.

اقترح بنبرة هادئة:-

-ما رأيك أن نشاهد فيلمًا؟

صدر نشيج خافت مصدره رأسها المطرق فأندفع بتلقائية يرفع وجهها، انعقد حاجباه عندما وجد الدموع تطفر من عينيها، ارتسم الحزن غائرًا على ملامحه وسرعان ما ثاب إلى رشده، وتساءل بعتاب:-

-لماذا تجعلين الأمور بهذه الصعوبة عليكِ؟

استخرطت في البكاء وقالت بصوت ضعيف بين شهقاتها:-

-ما ذنبك، لماذا لا تسعد في يومٍ كهذا، وبدلا من ذلك ها أنت تكون طبيبًا نفسيًا لي؟

ابتسم بحنان وأحاط وجهها بين راحتيه، وقال بلطف بينما تداعب أنامله وجنتيها:-

-من أخبركِ أني لست سعيدًا، لقد أصبحت الأسعد في هذا العالم عندما جعلتكِ زوجتي.

أردف مداعبًا إياها:-

-والآن بينما تنظرين إلي هكذا، لا تريديني أن أسعد!

كانت عبراتها تنساب بنعومة فوق وجنتيها، تمتمت بنبرة مُعذبة:-

-أنا لا أستحق شخصًا مثلك.

لم تتزحزح ابتسامته قائلا بصدق:-

-بل أنا من لا أستحقكِ يا عزيزتي.

استطرد بمرحه المعتاد:-

-والآن هل بإمكاننا النوم حتى نسافر في الغد.

أومأت في صمت واتجهت إلى الغرفة تحت مراقبة نظراته العاشقة، وما أن اختفت من أمام ناظريه حتى تنهد بعمق محاولا أن يهدئ من نفسه، فالنار تشتعل بداخله لمجرد قربها منه، ووجودها تحت سقف واحد معه لا يساعد أبدًا، لعله لم يعترف لها إنه خائف أيضًا من أن تتغلب عليه مشاعره دون أن يستطيع السيطرة عليها، ويتسبب في أذيتها.

تنفس بعمق، ولحق بها، ما أن دلف إلى الغرفة حتى وجدها جالسة فوق الفراش تتأمل الفضاء بشرود.

تساءل بقلق:-

-لماذا لم تنامي بعد؟

انتبهت إليه، وتركت مكانها متجهة إليه بخطوات بطيئة حتى أصبحت مقابلة له.

ازدردت لعابها بتوتر، وقالت بخجل ممزوج بالخوف بينما تتحاشى النظر إلى عينيه:-

-لا أريدك أن تنتظر.

ارتسم الذهول على ملامحه واتسعت حدقتيه، ولم يستطع إلا أن يفتح فمه ببلاهة بالغة.

أردفت عندما لم يبدي أي رد فعل:-

-أنا أثق بك، وأريد أن يكون لحياتنا الجديدة بداية صحيحة.

ثاب إلى رشده، واعتلى الحنان والحب نظراته بينما يرمق رأسها المنحني، فهو يعلم مدى صعوبة تلك الخطوة التي خطتها بكل شجاعة، حبيبته المحاربة، كم يزداد فخرًا بها في كل لحظة.

وضع كفه أسفل ذقنها مجبرًا إياها على مواجهته، وتساءل بعدم يقين:-

-هل أنتِ واثقة من قرارك؟

أردف قبل أن تتحدث:-

-إذا كان هذا من أجلي فسعادتي في وجودكِ بجواري فقط.

همست بخفوت وخجل:-

-أنا واثقة.

لم يستطع منع البهجة التي اعتلت ملامحه، حاول أن يخفف من ثورة مشاعره، ويتصرف بحذر شديد فأي تصرف خاطئ من قبله قد يتسبب في إخافتها أو أسوأ في أن تعود لها لحظات الماضي المؤلمة.

شعرت بكفيه يحيطان وجنتيها برفق وكأنما يخشى أن تُكسر بين يديه، لم تستطع منع الرجفة التي سرت في أوصالها عندما شعرت بقبلته الرطبة فوق جبينها.

أغلقت جفنيها بقوة بالغة بينما أظافرها فقد جرحت كفها من شدة خوفها.

انتظرت بترقب خطوته التالية، ولكن لم يحدث شيء سوى أن همس بحنان بجوار أذنيها:-

-لا تغلقي عيونكِ الجميلة.

فتحت عينيها ببطء لتجده يتأملها بحب، بثت نظراته الطمأنينة بداخل فؤادها، خاصة إنه لم يكن هناك تلك الشهوة الحيوانية التي انعكست في نظرات الآخر.

توتر جسدها عندما ضمها بين ذراعيه، ولكن سرعان ما استرخت، وهدأ عناقه البريء مخاوفها، ابتعد عنها يتأملها بأعين تفيض بمشاعره العميقة ثم حملها بين ذراعيه إلى حيث فراشهما.

كان متفهمًا للغاية لذعرها ومخاوفها فكان يطمئنها بكلماته الحانية وقبلاته، كان حنونًا مراعيًا للغاية جاعلا من ليلة زفافها لا تُنسى، محى حنانه كل ذكرى سيئة قبله ليفقدا وعيهما في تلك المشاعر وتنتهي ليلتهما وهما متعانقين والسعادة اتخذت مسكنًا على وجههما.

تسلل ضوء الشمس إلى الغرفة لتتململ شيماء بكسل، وسرعان ما فتحت عينيها سريعًا، وما أن وقع نظرها على عدي حتى غزت حمرة الخجل وجنتيها وقد تذكرت ليلة أمس حيث غابت عن الوعي في العالم الذي جذبها إليه، لم تستطيع أن تواجهه، ولذلك بدون أي تفكير التقطت روبها ترتديه سريعًا والتقطت ثيابها ثم دلفت إلى الحمام بدون أن تلقي نظرة على الفراش خلفها.

لم تمر لحظات حتى استيقظ عدي وارتسمت ابتسامة كسولة على ثغره، التفت إلى الجانب الآخر من الفراش ليجده خاليًا إلا منه، غادر الغرفة سريعًا، ليتنهد في ارتياح بالغ عندما وصل إلى مسامعه صوت اندفاع المياه في الحمام الرئيسي، عاد إلى الغرفة وقد اطمأن قلبه إلى أن ليلته المفضلة لم تكن ضربًا من الخيال.

تجمدت قدماه أمام الفراش، وانعقد حاجباه، وجحظت عيناه في ذهول حقيقي، عدم الفهم كان باديًا بوضوح على ملامحه، وكأن ما يراه يفوق استيعاب عقله المسكين الذي مازال في غياهب ضباب النوم.

مرت لحظات ثم صاح مناديًا شيماء مثيرًا فزعها، فأسرعت بارتداء ثيابها على عجل، وهرعت إلى الغرفة لتجده على تلك الحالة المذهولة، ليدب القلق والخوف في قلبها مغطيًا على حيائها منه بعد ليلة أمس.

تساءلت بنبرة قلقة، وكفها يلامس ذراعه:-

-ماذا هناك يا عدي، ما الذي حدث؟

نظر إليها بدون أن يفارقه الذهول، وأشار في صمت إلى الفراش، وكأن الكلمات لم تسعفه للتعبير.

التفتت إلى الفراش الذي شهد على إتمام زواجهما، شحب وجهها وجحظت عينيها في ذهول بدون أن تنبس ببنت شفة، فالفراش قد تلطخ بحمرة الدماء..دماء عذريتها!

الفصل السابع والعشرون

-هل جرحت نفسك؟!

تلعثمت شيماء في صدمة بينما تتفحصه في قلق..

هز رأسه في رفض بدون أن يتخلى عن ذهوله وصدمته، أردفت في عدم فهم:-

-إذًا ما هذه الدماء؟

كانت الإجابة في نظراته لتهز رأسها تعترض في نبرة مفعمة بالألم:-

-أنت تعرف أن هذا مستحيل.

أحاط كتفها برفق فهو لا يتعمد جرحها ولكن ذلك غير قابل للتصديق بأي طريقة ممكنة، اقترحت فجأة:-

-لنذهب لرؤية طبيبة.

أومأ وذهب ليبدل ثيابه بينما هي فقد كان التشوش يحتل ملامحها.

***

خرجت شيماء من خلف الحاجز وجلست بجوار عدي الذي أمسك كفها في تشجيع.

قالت الطبيبة مبتسمة:-

-مما فهمته إنك خائف من أن تكون مصابة بأي طريقة ممكنة ولكن لا تقلق إنها بخير... هذا طبيعي، وسوف أكتب لها بعض الأدوية لتشعرها بالتحسن.

بللت شفتيها وتساءلت بخجل:-

-عذرًا، ولكن هل يمكنكِ معرفة إذا كان ذلك قد حدث قريبًا أم لا؟

ظهر عدم الفهم في نظرات الطبيبة وهي تنقل نظراتهما بينهما ثم برقت عيناها بفهم وقالت بنبرة عملية:-

-إن غشاء البكارة تم فضه في وقتٍ قريبٍ.

هتف عدي في ذهول:-

-هل أنتِ متأكدة؟

نظرت إليه الطبيبة ثم تساءلت في شك:-

-أنتما متزوجان أليس كذلك؟

بدون أن يجيب أخرج من محفظته قسيمة الزواج ووضعها أمامها لتقول الطبيبة:-

-أنا متأكدة من ذلك، المدام كانت عذراء حتى فترة قريبة.

كانت شيماء شاحبة الوجه لا يمكنها تصديق ذلك كيف يمكن لهذا أن يحدث، ساعدها عدي على المغادرة بدون أن ينطق أي منهما بحرفٍ واحد فقد كان ذلك خياليًا بكل المقاييس، وعدم وجود أي تفسير يقودهما إلى الجنون.

رن هاتف عدي ممزقًا حدة الصمت في السيارة، أجاب:-

-نعم يا أمي، لا لسنا في المنزل انتظري في السيارة دقائق وسوف نعود.

تنهد بعمق وأردف:-

-لا، لا تقلقي، عندما أعود سوف نتحدث.

أنهى المحادثة وعاد الصمت ليخيم عليهما كلا في عالمه يبحث عن تفسيرٍ لتلك الصدمة.

***

-هل أنتما بخير، أين كنتما؟!

تساءلت مريم ما أن دلفت إلى داخل الشقة يقابلها وجههما الشاحبان.

بدأ عدي يخبرها بما حدث بينما شيماء فقد كانت ما زالت تحتفظ بصمتها منذ أن خرجا من العيادة وكل الأفكار تتجول بعشوائية في رأسها تكاد تفقدها عقلها.

بدت مريم مصدومة للغاية مما سمعت نظرت إلى شيماء في حيرة ولكن تلك الأخيرة كانت في عالمها الخاص فلا سبيل للشك أن كلام الطبيبة صحيحٌ فشيماء كانت عذراء حتى الأمس، ولكن السؤال الحقيقي هو كيف؟!

قالت مريم بعد تردد:-

-لماذا لا تحاولا مع طبيبٍ نفسي؟

انتفض عدي واعترض في ضيق:-

-ماذا تقولين يا أمي؟

قالت مريم في تبرير:-

-ربما يمكنه مساعدتكما لتجدا تفسيرًا لذلك.

هز رأسه رافضًا أن يتسبب في جرح أو إهانة لشيماء بهذا الاقتراح لكن قبل أن يتحدث ضغطت شيماء على ذراعه وأومأت ثم تحدثت لأول مرة:-

-أنا موافقة على الذهاب إلى طبيبٍ نفسي.

أردفت في شرود:-

-أنا أيضًا أريد أن أفهم.

قالت مريم بينما ترمقها بنظرات مشفقة:-

-سوف أحجز لكما مع أكبر الأطباء النفسيين هنا.

أومأ عدي بينما ينظر إلى شيماء في قلقٍ واضحٍ فقد كانت صدمة لكلا منهما وبرغم إنها صدمة سعيدة، ولكنها قد أثارت الآلاف من التساؤلات حولها، فما الذي حدث في تلك الليلة حتى تظل عذراء وهل معنى هذا أن تقرير الطب الشرعي لم يكن مزورًا في ذلك الوقت؟!

تنفس بعمق بينما شيماء فقد ظلت منغلقة في عالمها الخاص تحاول أن تستعيد تفاصيل تلك الليلة لعلها تجد تفسيرًا، ولكن الأمر بدون جدوى فلم تتذكر أي جديد، ما الذي فعله خالد الحداد في تلك الليلة بها؟!

***

-ما تقوله يا دكتور ضربًا من الخيال؟

قال دكتور شريف بينما يعدل عويناته متأملا وجه متدربه.

قال وائل في إصرار:-

-ولكن يا دكتور لقد أجرت دكتورة إليزابيت لوفتس العديد من الأبحاث والدراسات عن هذا الموضوع، ومثلها الكثيرون إذًا لم لا يمكننا إجراء دراسة على هذا الموضوع في مصر؟!

تنهد شريف بدون أن يستطيع منع نفسه من الإعجاب بإصرار ذلك الشاب، يأس من أن يغير رأيه فذلك الأسبوع الثاني حيث يأتي وائل إلى مكتبه يوميًا ليقنعه بفكرته فقال في يأس:-

-أين سوف تجد الحالة، وكيف سوف تقنعها؟!

حينها بهتت قليلا ملامح وائل وقال في حزن:-

-هذا هو العائق الوحيد.

كاد شريف أن يتحدث ولكن قاطعه دخول مساعدته تخبره بوجود الحالة الخاصة، قال:-

-دقيقة وادخليهما.

تساءل وائل في حيرة:-

-من العجيب أن أراك تعمل أيام السبت.

-بدا الأمر غير قابلٍ للتأجيل لهما فحددت معهما الموعد اليوم.

أومأ وائل وقال بينما يغادر:-

-سوف أعمل بجد حتى أجد حالة يمكن إجراء الدراسة عليها.

أومأ شريف في يأس من عناده وسمح للحالة بالدخول.

جلست شيماء في توتر بدون أن تترك كف عدي الذي مسد بإمهامه كفها مطمئنًا، لاحظ الطبيب قلقهما وقال بنبرة مطمئنة:-

-لا داعي للقلق، وأيًا كانت المشكلة سوف نحلها معًا.

بدأ عدي يخبره عن تعرض شيماء للاغتصاب ثم زواجهما وصدمة صبيحة اليوم الذي يلي زفافهما ثم ما أخبرتهما به الطبيبة، أنهى كلامه قائلا في حيرة:-

-إننا فقط لا نفهم كيف يمكن أن يحدث هذا؟

نظر شريف إلى شيماء وتساءل في هدوء:-

-هل تتذكرين أحداث تلك الليلة؟

أومأت في صمت ثم قالت في خفوت:-

-أنا فقط لا أفهم، كيف...

صمتت برهة ثم رفعت رأسها إليه بأعين تفيض بعدم الفهم وقالت:-

-أنا أعرف ما حدث في تلك الليلة حقًا..

تأملها الطبيب ثم برقت عيناه فجأة وتساءل:-

-هل معكما أي نسخة من المحضر الذي قدمتيه بعد الحادث؟

قال عدي بتفكير:-

-أعتقد أن معي نسخة منه على الهاتف.

أردف مفسرًا:-

-لقد استعنت به في القضية السابقة.

بحث في هاتفه ثم تنفس في ارتياح عندما وجده، وقدم هاتفه إلى شريف الذي قرأه بدقة في دقائق قليلة ثم قال لعدي:-

-هل يمكن أن تتركنا قليلا؟

نظر عدي إلى شيماء في قلق، ولكنها أومأت بعد تردد، ترك كفها بدون أن يتخلى عن قلقه الذي أدركه شريف فقال مطمئنًا إياه:-

-لا تقلق، دقائق قليلة فقط وسوف ننتهي.

أومأ عدي، وما أن أصبحت شيماء وحيدة مع الطبيب حتى قال في هدوء:-

-هل يمكنكِ إخباري بما حدث في تلك الليلة؟

أومأت شيماء وبدأت تخبره عن تلك الليلة بينما هو ينصت في اهتمام وصبر حيث كانت تتوقف في تأثر مراتٍ عديدةٍ، وبعدما انتهت أخيرًا بأعين دامعة تساءل في هدوء:-

-هل كنتي انتهيتي من تبديل ثيابكِ عندما اقتحم الغرفة أم لا؟

ترددت قليلا ثم أجابت:-

-أجل، كنت قد بدلت ثيابي.

أومأ ثم تساءل مرة أخرى:-

-هل كان شقيقيكِ نائمًا عندما تركتي المنزل؟

ظهر التشوش في نظراتها، وقالت:-

-أجل كان نائمًا.

-كيف وجدتي الصورة التي تحمل وجه خالد الحداد؟

-لقد وقعت منه عندما كان يقتحم الغرفة.

-أين وجدتها؟

ظهر على وجهها التوتر من انهمار الأسئلة السريع وقالت:-

-لقد كانت بجوار الخزانة.

تساءل في حيرة:-

-ألم تكن بجوار الفراش؟!

ترددت قليلا وظهر عدم اليقين في نظراتها قائلة:-

-ربما كانت بجوار الفراش أعتقد.

أومأ الطبيب وابتسم قائلا:-

-هل يمكنكِ فقط الانتظار قليلا في الخارج؟

أومأت في هدوء وغادرت تحاول أن تستجمع شتات نفسها فالتحدث عن تلك الليلة قد أنهكها كثيرًا، ما إن خرجت حتى ألتقط شريف هاتفه يجري محادثة ثم قال:-

-أعتقد أني قد وجدت حالة مناسبة.

أردف سريعًا:-

-ولكنها حالة محتملة فقط، لا يمكن التأكد الآن..

ذهبت كلماته مع الرياح فقد أغلق وائل سريعًا قائلا:-

-أنا في الطريق إليك الآن.

زفر في يأس ثم بدأ يسجل ملاحظاته عن حالة شيماء.. كانت متأكدة من حادثة تلك الليلة ولكن في نفس الوقت كانت تفتقد للتفاصيل بل أن هناك تفاصيل مفقودة أو تم تغييرها عما ذكرته عندما أبلغت في نفس اليوم، وكأن الذكرى تغيرت في عقلها قليلا أو ربما أنها لم تكن موجودة منذ البداية.

ابتسم ساخرًا فقد بدأ يفكر بجنون كتلميذه وائل، وكأنما أدرك إنه يحتل أفكاره فبعد ثواني كان يجلس أمامه وبدون أي مقدمات قال:-

-سوف أتولى تلك الحالة.

هز رأسه في يأس وقال:-

-لقد أخبرتك أن الأمر ليس مؤكد.

ابتسم في تفاؤل وقال:-

-إذًا دع الأمر لي للتأكد.

تنهد شريف ثم قال في تحذير:-

-لا تدع هوسك بذلك الموضوع يفوق اهتمامك بالحالة بين يديك.

أومأ وائل وقال بجدية:-

-أنا أتذكر ما تعلمته منك يا دكتور، مصلحة المريض قبل أي شيء.

ابتسم شريف في فخر ثم غادر الغرفة يلحق به وائل، نهض كلا من عدي وشيماء ما أن أقبل عليهما في غرفة الانتظار، قال شريف معرفًا:-

-دكتور وائل تلميذي، أستاذ عدي وزوجته مدام شيماء.

أردف شريف في هدوء:-

-دكتور وائل سوف يتابع حالة مدام شيماء.

ظهر الشك في نظرات عدي ليردف شريف مطمئنًا:-

-لا داعي للقلق أبدًا، دكتور وائل على قدرٍ كبيرٍ من الكفاءة كما إني سوف أتابع الحالة معه أيضًا.

أومأ عدي ثم تساءل في قلق:-

-هل هناك تخمينات عن سبب ما حدث أعني أنا كنت ضد فكرة المجيء إلى هنا فلم أكن متأكدًا إن الوجود هنا قد يساعد؟

أجاب وائل هذه المرة بعملية:-

-هناك احتمال ما قد يفسر الأمر، ولكن هناك دراسات سوف نحتاج إلى إجرائها إذا تقبلتوا الأمر.

-أي نوع من الدراسات؟

قال مطمئنًا:-

-لا داعي للقلق سوف تكون الجلسات عبارة عن محادثات في البداية ثم سوف نرى ما الذي سوف يحدث بعد هذا.

أردف في جدية:-

-يمكننا أن نبدأ من الغد إذا كان هذا مناسبًا.

نظر عدي إلى شيماء الصامتة بشكل مخيف ولكنها أومأت في هدوء ليقول وائل:-

-جيد جدًا، أراكما غدًا في نفس الموعد.

غادر شيماء وعدي بينما وائل فقد جلس يستمع إلى استنتاجات أستاذه عن الحالة حتى يستطيع تفهم درجة الصعوبة التي يتعامل معها الآن، ولكن برغم كل شيء لا ينكر مدى حماسه للتأكد إذا كانت تلك الحالة هي ما يبحث عنه، فذلك سوف يكون أكثر من رائع حقًا لدراسته خاصة إذا استطاع مساعدتها للتغلب على تلك الحالة.

***

قال عدي مطمئنًا ما أن ركبا السيارة:-

-لا داعي للقلق أبدًا، سوف أكون بجوارِكِ دائمًا.

قالت في جمود بعد برهة من الصمت:-

-أنا فقط همٌ كبيرٌ قد سقط فوق رأسك، ولا بد أنك تكره اليوم الذي جمعنا معًا.

أوقف السيارة والتفت إليها قائلا في صدقٍ بالغٍ:-

-أنتِ لا تفهمين حتى الآن كيف جعلتيني شخصًا سعيدًا للغاية بوجودكِ معي، لقد أصبحت شخصًا مختلفًا منذ أن دخلتي حياتي لذلك توقفي عن التفكير في هذا، حسنًا؟

تأملت الصدق في نظراته ثم أومأت تبتسم بضعف لتتسع ابتسامته ويتابع قيادة السيارة بدون أن تبعد نظراتها عنه تتساءل ما الحظ الذي حازت عليه فجأة لتفوز بقلب هذا الشخص الثمين؟!

***

قالت شيماء:-

-هذا ما حدث في تلك الليلة.

-ماذا عن الكوابيس؟

-جميعها تتعلق بتلك الليلة بطريقة أو بأخرى..في بعض الأحيان يكون هناك تغير في الأحداث.

تساءل وائل في اهتمام:-

-ما نوع التغيرات؟

-في بعض الأحيان يكون هناك طفلة صغيرة تختبئ تراقب من الخزانة ما يحدث وتبكي مرددة أمي..

ظهر عليه التفكير ثم قال يحاول أن يبسط الموضوع:-

-قبل مجيئكما كنت أتحدث مع دكتور شريف عن أبحاث متعلقة بموضوع الذاكرة الكاذبة، هل سمعت عنه من قبل؟

هز رأسه ليردف وائل:-

-في اختصار فإن العقل قد يخدعك بذكريات لم تحدث قط وتظل لأعوام مؤمنًا بحدوثها وتتصرف على هذا الأساس، وهناك أشخاص إذا لم يحدث ما يؤكد لهم إنها ذاكرة كاذبة سوف يظلوا مؤمنين بصحة الذكرى طيلة العمر.

فغرا فاههما وتمتمت شيماء:-

-هذا مستحيل!

لكن أمام تعابير وائل الجدية تساءلت في تردد:-

-هل تعتقد أن تلك الليلة...؟

لم تستطع أن تتابع وقد شحب وجهها وارتجف جسدها ليقول وائل:-

-هذا مجرد احتمال.

قال عدي بنبرة فظة:-

-لا يمكن فهذه تراهات فما الذي قد يجعل أحدهم يخترع ذكرى أليمة؟!

قال وائل:-

-هناك العديد من الأسباب فقد يحدث الأمر بسبب صيغة اقتراح من أحدهم غيرت أحداث معينة في الذاكرة أو العلاج النفسي بطريقة خاطئة أو إنه فقط حدث بدون سبب، كأستاذ في إحدى الجامعات أعتقد أنه قد حضر حفل تخرج شقيقته وقابل صحفي شهير هناك وبعد سنوات اكتشف إن ذلك الشهير لم يكن في الحفل بل إنه نفسه لم يحضر حفل تخرج شقيقته.

كان عدي مذهولا ثم ألتقط كف شيماء يمدها بالقوة وقد شعر بتشوشها المشابه له وخوفها ثم تساءل:-

-كيف نتأكد إذا كان ذلك ذكرى كاذبة حقًا؟

صمت وائل قليلا ثم قال:-

-لن يكون الأمر سهلا أبدًا فلم يكتشف أحد كيف يتم اكتشاف الذكرى المزيفة من الحقيقية حتى الآن ولكن...

تردد قليلا ثم استطرد:-

-ولكن هناك طريقة للعودة إلى تلك الليلة ومعرفة بعض التفاصيل عما حدث حقًا لكن تلك الطريقة سلاح ذي حدين؛ لأنها أيضًا قد تتسبب إذا تم استخدامها بشكلٍ خاطئ في توليد ذكرى كاذبة أخرى.

تساءلت شيماء في تردد:-

-ما هي تلك الطريقة؟

تردد وائل قليلا ثم قال:-

- التنويم الإيحائي (المغناطيسي)

انتفض عدي قائلا:-

-لا، أنا لن أوافق على هذا أبدًا.

حاول وائل أن يتفاهم معه ولكن عدي كان رافضًا تمامًا للفكرة بسبب ما يعرفه عن مخاطر ذلك، همست شيماء:-

-عدي!

نظر إليها لترمقه في توسل وتقول:-

-أنا أحتاج أن أعرف الحقيقة، ما يحدث يدفعني إلى الجنون.

نظر إليها في عجزٍ واضح ثم التفت إلى وائل متسائلا في قلق:-

-هل سوف تستطيع فعلها بدون أن تتعرض للخطر.

-لا تقلق، تلك ليست مرتي الأولى فأنا حاصل على رخصة لممارسة التنويم المغناطيسي.

أردف قائلا:-

-هناك أوراق موافقة يجب أن توقعا عليها حتى أستطيع إجراء الجلسة.

أومأ عدي في قلة حيلة وامسك كف شيماء يستمدان من بعضهما القوة.

***

-لا داعي للتوتر يا مدام شيماء، فقط استرخي.

أومأت شيماء، وزفرت بعمق وحاولت أن تسترخي فوق الشازلونج.

قال الطبيب الشاب بنبرة هادئة عميقة:-

-ركزي على المصباح الصغير فوق رأسكِ.

رفعت رأسها وبدأت تركز على شعاع الضوء الخافت المتسلل من المصباح الصغير في ظل عتمة الغرفة.

غمامة تقترب على نظراتها، ولكنها ما زالت تستمع إلى صوته العميق في رأسها، وكأنما يأتي من كل مكانٍ حولها.

-هل تستطعين سماع صوتي؟

كان الصمت هو الرد الوحيد، ازدرد لعابه وقال:-

-شيماء!

خرج صوتها عميقًا:-

-أجل.

زفر في ارتياح ثم قال بنفس النبرة الهادئة:-

-شيماء، أنتِ الآن عائدة من العمل ليلا، وقد أصطحبكِ صديقكِ مراد إلى المنزل، أنتِ تصعدين درجات السلم المتهالكة، هل ترينها؟

ظهرت على ملامحها عدم الارتياح، ولكنها ردت:-

-أجل أراها.

-جيد، إنكِ تدخلين من باب المنزل، ماذا ترين؟

قالت بصوتٍ عميقٍ:-

-لاشيء، لقد كان المنزل فارغًا.

ظهر الذهول على ملامحه بوضوح، ولكنه استمر في إلحاحه متسائلا:-

-ماذا عن شقيقكِ يا شيماء؟

-أنا أعيش وحيدة منذ عودتي إلى ذلك المنزل.

ظل يتأملها في ذهولٍ بالغٍ، فأجابتها قد غيرت مجرى الأحداث تمامًا، تمالك أعصابه، وبدأ في أعادتها إلى وعيها مرة أخرى.

-ماذا حدث؟

تساءلت بقلق عندما لاحظت نظراته المتعجبة التي يرمقها بها.

قال بهدوء مريب:-

-ربما يجب أن تستمعي مع عدي إلى ما قلتيه خلال التنويم المغناطيسي.

أثارت أجابته قلقها للغاية، فماذا قد تكون قالت ليثير ارتباكه إلى هذه الدرجة، وبدأ الخوف يتسلل إلى قلبها مرغمة.

***

-ما معنى هذا؟

ارتفع صوت عدي متسائلا ممزقًا حدة الصمت الممتد منذ أن توقف جهاز التسجيل.

قال وائل في تفكير:-

-أنا مذهولٌ أيضًا، ولكن هذا ما قالته مدام شيماء عندما سألتها عن ليلة الحادث.

كان وجه شيماء يزداد شحوبًا بينما جحوظ عينيها كان مخيفًا، أصبح ذهنها في فوضى عارمة، انتفضت عندما تسلل الدفء فجأة إلى كفها، التفتت إلى عدي والخوف والحيرة في نظراتها يمزق قلبه.

تشابكت أصابعهما، وضغط على كفها بخفة مطمئنًا إياها، حاولت أن تبتسم ولكن وجهها قد خانها فأكتفت بالتشبث بكفه بكلتا كفيها، ولكن الخوف وشحوب وجهها دفعاه ليقول في صرامة:-

-يكفي هذا لليوم، سوف نغادر الآن.

أومأ وائل في تفهم وقال:-

-تواصل معي في أي وقت لتحديد موعدٍ آخر.

أومأ عدي في صمت وقاد شيماء إلى الخارج وقد بدت خائرة القوى شاحبة تشعر بالذهول، لم تعد تفهم ما الصحيح وما هو الزائف؟

التفت إليها عدي قائلا بينما يمسك كفها بقوة:-

-سوف نكتشف كل شيء معًا، أنا معكِ.

أومأت وقد ظهر الضياع على ملامحها، تمسكت بكفه بقوة تتشبث به ليخرجها من تلك الدوامة.

ما أن وصلا إلى المنزل حتى ساعدها على النوم حتى لا تفكر كثيرًا وما أن اطمئن إنها قد خلدت إلى النوم حتى خرج من الغرفة قائلا لمريم وأميرة:-

-اعتنيا بها حتى عودتي.

تساءلت مريم في قلق:-

-ماذا حدث عند الطبيب؟

تنهد عدي وقال:-

-سوف أخبركِ عند عودتي، ولكن الآن هناك مكان يجب أن أذهب إليه.

غادر للقاء وائل وقد قرر أن يجد الحقيقة بنفسه حتى لا يعرض شيماء إلى تلك التجربة مرة أخرى فلا بد أن العودة إلى الماضي مرهقة لها كما أن خوفها من المجهول يقتله، يجب أن يعرف الحقائق أولا حتى يجعل الأمور أقل حدة عليها.

***

-ما الذي جاء بك هنا؟

أردف خالد بسخرية:-

-لا أعتقد أنك قد اشتقت إلّي.

رمقه عدي باحتقار واضح ثم قال ببرود:-

-أمر واحد أريد سؤالك عنه، وأريد الحقيقة.

هز كتفه في عدم مبالاة قائلا:-

-لن يفيد الكذب في شيء فليس بإمكانهم عقابي مرتين.

تردد قليلا ثم قال:-

-هل اغتصبت شيماء؟

ضحك قائلا:-

-لا، لم أفعل..لقد كانت المرة الأولى التي أراها بها..مضحك إني كنت بريئًا حقًا هذه المرة.

نهض مغادرًا وذهنه شاردًا تتصادم الأفكار به ذهابًا وإيابًا بدون حذر.

اتجه إلى مكتب وائل حيث توطدت علاقتهما في الأيام الماضية بسبب كثرة تردده عليه يقص عليه كل ما يعرفه عن شيماء منذ أن قابلها أول مرة وتطور علاقتهما لعلهما يجدان ما يساعد على توضيح ذلك الغموض اللعين.

أخبر وائل على مضض بزيارته لخالد في السجن، وما أن انتهى حتى اقترح وائل البحث بداية من قبل تعارفهما من بيت عائلتها الذي عاشت به.

وبالفعل بعد ساعات من ذلك اللقاء أوقف عدي سيارته أمام منزل شيماء، تعلقت به الأعين فقد كان لا يتناسب مع المكان من حوله بوسامته وسيارته الغالية، دلف إلى داخل المنزل متتبعًا إرشادات شيماء التي سمعها من تسجيل جلسة التنويم المغناطيسي، طرق باب الشقة ولكن مرت دقيقة بدون أي إجابة ليدق الباب عدة مرات بدون جدوى، ارتفع صوت طفولي من خلفه قائلا:-

-هل تبحث عن أبلة شيماء؟

التفت ليجد طفلة صغيرة تبدو في السابعة تقريبًا اقترب منها مبتسمًا في لطف وقال:-

-هل تعرفين شيماء؟

أومأت الطفلة وقالت في سعادة:-

-أبلة شيماء لطيفة جدًا، وتجلب لي الحلوى أحيانًا..

اقتربت منه تهمس:-

-ولكن أمي تغضب عندما تجدني أتحدث معها.

تساءل في همس هو الآخر:-

-لماذا؟

التفتت تطمئن أن لا أحد موجود في طفولية لذيذة وقالت:-

-لقد سمعتها تقول لأبي أن أبلة شيماء مجنونة، ولم يكن يجب أن يسمحوا بعودتها إلى المنزل من جديد بعد تلك الأعوام.

ردد في صدمة:-

-عودتها بعد تلك الأعوام؟!

تساءل مرة أخرى:-

-ماذا عن شقيقها؟

ظهرت عليها الحيرة وتساءلت:-

-شقيق من؟

-محمود، شقيق شيماء.

هزت الطفلة رأسها في حيرة وقالت:-

-لا يسكن أحد هنا غير أبلة شيماء.

شحب وجهه في صدمة وفغر فاهه ثم ازدرد لعابه وتساءل مجددًا:-

-هل أحد والديكِ في المنزل يا صغيرة؟

أومأت قائلة:-

-أجل، أمي موجودة.

-هل يمكنكِ أخبارها أن هناك شخص يريد التحدث إليها؟

أومأت الطفلة وهرعت إلى الطابق الأول تنادي والدتها يلحق بها عدي، ولم تمر دقيقة إلا وقد خرجت سيدة سمينة من الشقة وعلى ملامحها الحيرة، قال عدي في احترام:-

-أنا عدي الحداد، زوج شيماء جارتكِ.

تغيرت ملامح وجهها عند ذكر شيماء، وبدأت تتفحصه بعدما عرفت هويته، أردف قائلا:-

-لن أستغرق الكثير من وقتكِ، أنا أريد فقط أن أسألكِ عن شقيق شيماء.

بخلاف الصغيرة فلم يبدو على الأم أي دهشة أو حيرة وبهدوء أخبرته أن يدخل، وما أن جلس على الأريكة المتواضعة حتى قالت:-

-ليس هناك أي شقيق لشيماء...

أردفت بأسى:-

-على الأقل لم يعد موجودًا الآن.

كانت الصدمات تتوالى فوق رأسه، فقد عرف من جلسة التنويم المغناطيسي أنه لم يكن موجودًا في تلك الليلة ولكن ألا يكون له وجود نهائيًا فهذا هو الغير متوقع تمامًا، تساءل في صدمة:-

-ماذا تعني بأنه لم يعد موجودًا؟

-لقد مات..

اتسعت حدقتيه في صدمة وهمس:-

-مات!

-لقد مات محمود ووالده عندما كانت شيماء في السابعة تقريبًا في حادث سيارة.

هز رأسه في عدم تصديق وشعر بالتخدير في سائر جسمه وتلعثم قائلا:-

-إن هذا غير صحيح، لقد أخبرتني شيماء إنها تعيش مع شقيقها.

تنهدت السيدة وهمست بصوت مسموع:-

-من المؤكد أنها قالت ذلك..

نظر إليها بعدم فهم لتردف:-

-بعد عودة شيماء إلى هنا بفترة بدأت تتصرف كأنها تعيش مع شقيقها، وفي أكثر من مرة سمعت أحاديثها الوهمية معه وفي ليلة مغادرتها للمنزل سمعت صرخاتها الهيستيرية لكن...

ترددت قليلا واستطردت باعتذار:-

-لقد شعرت بالخوف من أن أقتحم خلوتها..

مسح على وجهه بكف مرتجف وبعد فترة من الصمت حاول فيها أن يستجمع فيها ذاته المشتتة تساءل:-

-أنا لا أفهم أي شيء..

رمقته في إشفاق، وقالت:-

-ربما يجب أن أخبرك بكل ما أعرفه منذ البداية.

بعد ساعة أو أكثر كان يركب سيارته بذهن شارد فلحقت به السيدة وقالت في خجل واعتذار:-

-لقد عجزنا عن مساعدتها، لقد شعرنا بالخوف من النفوذ الذي أغلق القضية بدون أي تحقيق.. خفنا أن نتعرض للأذى إذا تحدثنا..

أومأ في صمت ولم يملك أن يلومها ثم قاد سيارته وقد ربط ما أخبرته به السيدة بما تتذكره شيماء بالإضافة إلى تفاصيل القضية لتتكون أمامه صورة كاملة عن الحقيقة.

لقد كان الأمر لا يصدق حقًا، كان غريبًا ومخيفًا..لقد آمنت شيماء بصدق كذبة كبيرة لفترة طويلة.

شعر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه ليخبرها بتلك الحقائق اليوم فكأنه يلقي بكل ما آمنت بصحته يومًا في وجهها، هو ذاته ما زال يرتجف جسده من تلك الحقائق التي انهالت فوق رأسه كجمرات نارية.

تنفس بعمق ثم قرر أن يستشير وائل قبل أن يخبرها بأي شيء خوفًا من أن يكون تأثير ذلك سلبيًا عليها، وبالفعل هاتفه فنصحه أن يأتي بها لجلسة التنويم الإيحائي الثانية وبناء على نتائج تلك الجلسة سوف يخبراها بما عرفه عدي.

نظر إلى صورة شيماء التي تزين شاشة هاتفه بعدما أنهى المكالمة وشعر بالشفقة والحنان تجاه تلك الطفلة التي كانت حياتها عبارة عن متاهة ضخمة ولم تعرف حتى بوجودها في تلك المتاهة..

الفصل الثامن والعشرون

جلست سمية على الأريكة تحاول أن تتوقف عن نحيبها حتى لا ثير فزع طفلتها ولكنها فشلت في تلك المعركة لتطفر الدموع من عينيها، فمنذ أسبوع وفي ليلة واحدة خسرت كلا من حب عمرها وابنها.

تذكرت عندما كانت مدللة أبيها "حسين الباشا" مالك أكبر مجموعة من محلات المجوهرات في العالم، كانت مفضلته لا يُرفض لها طلب، طالبة في كلية الفنون الجميلة حتى تركت الكلية وهربت مع "فتحي إبراهيم" الموظف الفقير بعدما وقعت في حبه عندما تعددت لقاءاتهما صدفة في كل مرة تذهب إلى والدها في شركة صديقه أو عندما تزور صديقة فقيرة لها.

نبذها والدها وأعلن للعالم أجمع إن ابنته الوحيدة متوفاة، ولكن وجود فتحي معها كان أكثر من كافي لمواساتها. قضيت معه سنوات سعيدة للغاية فمهما كانت الأموال قليلة كانت كلماته الحنونة وابتسامته اللطيفة أجمل دواء لها، وها قد خسرته الآن لتشعر لأول مرة بالبرد الذي كانت تحميها أحضانه منه دائمًا، وفقدت فلذة كبدها رجلها الصغير الذي ما زالت تشعر برائحته في أنفها وكأنه لم يغادر حضنها قط.

رفعت رأسها المنكس عندما شعرت بكفٍ صغيرٍ يربت فوق رأسها، نظرت إلى ابنتها "شيماء" ذات السبعة أعوام في حزن.

قالت شيماء في طفولية:-

-هل أنتِ بخير يا ماما؟

حاولت أن تبتسم بدون جدوى وجذبتها لأحضانها تستنشق رائحتها وتربت على ظهرها وكأنها تواسيها في صمت على غياب والدها وشقيقها.

ارتفع صوت شقيقها والذي كان يتابع ما يحدث في تململ:-

-توقفي عن النحيب، لقد ماتا وانتهى الأمر.

أردف قائلا في برود:-

-لقد جئت لأخبركِ ألا تتوقعي أي مساندة من أبي بعد وفاة من فضلتيه على عائلتكِ، فلا تحاولي العودة إليه.

أجابت بنبرة قوية بينما تشدد من احتضان ابنتها:-

-لم أكن لأفعل هذا، لن أترك منزل فتحي أبدًا.

ابتسم بسخرية ثم قال في عدم مبالاة:-

-بعض الأقرباء عرفوا بالأمر وقادمين لمواساتكِ.

قبل أن تستفسر عن هويتهما نظر إلى ملابسها في احتقار مردفًا بعصبية:-

-فلتبدلي ثيابكِ تلك، هل سوف تقابلين الناس هكذا؟

رمقته في ضيق واضح ثم ربتت على رأس شيماء الصغيرة وقالت في حنان:-

-سوف أبدل ثيابي، حسنًا يا جميلتي.

أومأت شيماء وبدأت تلعب بعروستها بينما خالها يتابع هاتفه في اهتمام بدون أن يكف عن تحريك يده في عصبية وتوتر واضح، لم تمر دقائق إلا وارتفعت طرقات على الباب ليصيح بشيماء أن تدخل إلى إحدى الغرف ولكنها لم تهتم واختبأت في غرفة المطبخ حيث تستطيع رؤية القادم بوضوح بسبب صغر الشقة.

كان رجلا ضخمًا بدا عليه الثراء، لم يجلس الرجل بل أخرج من معطفه كيسًا أبيضًا وألقاه في احتقار تحت قدميه، لم يبالي سليم بتلك الإهانة وركع أرضًا يلتقطه في لهفة ثم بدأ في سكب محتوياته على المنضدة واستنشقه في جوع ليبدأ في الابتعاد عن الواقع ببطء.

شعرت شيماء بالخوف مما تراه برغم أنها لم تفهم حقيقة ما يحدث، استغلت التفات الرجل إلى خالها وتسللت إلى غرفة والدتها بجوار المطبخ وقد كانت انتهت من تبديل ثيابها، ما أن أصبحت داخل الغرفة حتى اختبأت خلف الباب في خوف مما دفع سمية إلى أن تتساءل في قلق:-

-ماذا هناك يا شيماء، ما الذي أخافكِ هكذا؟

قبل أن تسمع أجابتها وجدته أمامها، تعرفت عليه سريعًا "خالد الحداد" الرجل الذي بذل كل ما يستطيع حتى يدمر علاقتها مع فتحي حتى يحصل عليها وعندما فشل قضى على علاقتها مع والدها، صاحت بغضب:-

-ماذا تفعل هنا؟

ابتسم في برود وقال:-

-لقد أخبرتكِ سابقًا إنه ليس خالد الحداد من يخسر أبدًا.

أشارت إلى الخزانة خلسة وقد بدأت تشعر بالخوف مما هو قادم، ولحسن الحظ فقد كانت شيماء الصغيرة ذكية كفاية لتفهم الإشارة فزحفت ببطء واندست في الخزانة يساعدها في ذلك ضآلة جسدها ثم أغلقتها خلفها تراقب ما يحدث من خلف باب الخزانة الموارب بينما سمية فقد كسبت لها الوقت لتختبئ بينما تماطل في الحديث وسرعان ما أدركت أنها قد كانت محقة في مخاوفها.

راقبت شيماء في خوف والدتها تصيح بهيستيرية بالغة:-

"دعني وشأني، أرجوك..فقط دعني"

كانت تصرخ، تتلوى وتتنازع بشراسة حتى تتخلص من هذا الرجل، راقبت بأعين متسعة مذعورة ابتسامة الرجل وسمعته يقول باستمتاع:-

" لتدركي إني لا أقبل "لا" كجواب مهما مر الوقت فلم أنساكِ أبدًا وصبرت حتى الوقت المناسب"

غادر الرجل لتلاحظ شيئًا يسقط من جيب سرواله، خرجت من الخزانة تزحف بعدما تأكدت من مغادرته ثم اتجهت إلى الفراش بخطوات

خائفة..كانت ملامح والدتها ساكنة بينما اللون الأحمر لطخ الفراش، همست في خوف بالغ:-

-ماما، ماما استيقظي أرجوكي.

أردفت بتساؤل بريء بينما عبراتها لا تتوقف عن الانسياب فوق وجنتيها:-

-هل تتألمين يا ماما؟

لم تجد منها أي إجابة فهرعت لإحضار حذائها وجلست أرضًا ترتديه وقد قررت أن تنزل بحثًا عن طبيب لوالدتها، لاحظت الصورة التي سقطت من الرجل فالتقطتها بعفوية ووضعتها في جيبها الصغير.

خرجت من الغرفة لتجد خالها نائمًا فوق الأريكة أو هكذا ظنت وعلى وجهه آثار تلك البودرة البيضاء، لم تهتم وجففت دموعها تطمئن نفسها أن والدتها سوف تكون بخير بعدما تحضر لها الطبيب.

خرجت من الحي إلى الشوارع الرئيسية كان المكان ساكن للغاية في هذا الوقت المتأخر فقررت أن تركب أي سيارة حتى تصل إلى المشفى، في ذات الوقت كان هناك سيارة لنقل البضائع تقف أمام إحدى المحلات لم تهتم كثيرًا أن تلفت انتباه صاحب السيارة أو تطلب مساعدته بل ركبت واندست في الخلف بين البضائع لكن الهواء البارد وحركة السيارة المنتظمة دفعتها إلى النوم بعمق.

استيقظت في كسل فركت عيناها ثم نزلت من السيارة، بدأ الخوف يتسلل إلى قلبها وقد وجدت نفسها في مكان غريب عنها، تجولت بلا وجهة في الطرقات حتى شعر أحدهم بالعطف عليها، واصطحبها إلى مركز الشرطة وتم عمل محضر، بطفولية أخبرتهم بما رأت، ذلك الرجل الذي ضرب والدتها وكيف أنها كانت تريد إحضار الطبيب لوالدتها.

بدأ البحث عن إذا كان هناك بلاغات عن اختفاء طفلة، ولكن كان الأمر مستحيلا لأنها لم تملك ما قد يقودهم إلى هويتها إلا اسمها بدون أن تعرف حتى عنوانها، ونتيجة لوجودها في محافظة أخرى مما جعل من الصعب التوصل إلى عائلتها فقد تم تقرير إرسالها إلى دار الأيتام.

لم يكن مكانًا لطيفًا وهي من اعتادت على الحب والحنان من عائلتها، راودتها الكوابيس عن تلك الليلة وفي كل مرة تشعر بالعجز لعدم إنقاذها. كانت القاعدة الأكثر أهمية في الدار هو أن تتناسي حياتكِ قبلها حتى تتقبلين الحياة مع عائلتكِ الجديدة إذا تم تبنيكِ يومًا، ولذلك فقد كان الضرب والعقاب من نصيبها في كل مرة تذكر عائلتها واشتياقها إليها.

مع مرور الأعوام بدأت في تقبل تلك الحياة وحصلت على صديقتها الأولى وزميلتها في الغرفة "نور" كانت طفلة هادئة لطيفة وقد أحبتها كثيرًا حتى استيقظت في ليلة ما فلم تجدها في فراشها، سيطر عليها الخوف خاصة بعد انتشار القصص بين الفتيات مؤخرًا عن اختفاء الفتيات في وقت متأخر من الليل ثم يصبحن جثة هامدة في الصباح برغم إنها اعتقدتها قصص للتسلية.

لم تتوقع أبدًا أن تقضي تلك الليلة مع جثة نور، دفعتها الصدمة والحزن للجوء إلى الصمت والانطواء حتى جاءت تلك الليلة التي دفعها فضولها لتعرف سر الصوت الذي تسمعه كل ليلة والذي سمعته أيضًا يوم وفاة نور، وحينها تعرفت على حقيقة مشرفة دار الأيتام التي كانت تبيع الفتيات للبغاء.

بدأت تصر أمام الجميع إن نور قد قُتلت وإنها من المؤكد تعرضت للاغتصاب، ولكن لم يصدقها أحد وتم عرضها على طبيبٍ نفسي، أكد الجميع أن وفاة نور لمرض قلبها وأن اتهامات شيماء لا أساس لها من الصحة.

كان الطبيب فاشلا في مهنته وقد شوه حقيقة الذكريات في عقلها دافعًا إياها إلى أن تشكك بكلماتها وصحتها، وخلال بضعة جلسات اقتنعت تمامًا أن كوابيسها التي رافقتها منذ قدومها إلى الدار قد تكون السبب في تكدس ذكريات مظلمة في عقلها وأن ظنونها المتعلقة بنور ما هي إلا أضغاث لا شيء آخر.

تعايشت في دار الأيتام بدون أي مبالاة أو اهتمام بأي شخصٍ آخر حتى تم تبنيها من قبل أرملة عجوز ثرية، فحازت على لقب عائلتها وتغير اسمها إلى "شيماء عبد الفتاح" ومع الوقت نسيت تمامًا اسمها الحقيقي.

في البداية كانت متمردة تخاف من فكرة الأهل بالتبني الذين دائمًا ما يعذبون أبنائهم بالتبني، ولكن الحياة مع تلك السيدة كانت أفضل مما تخيلت يومًا؛ فانتقلتا معًا إلى الإسكندرية حيث كانت طلباتها مجابة دائمًا، يتنزهان معًا ويذهبان إلى أفخم المقاهي كأم وابنتها بل إنها أيضًا حصلت على تعليم جيد

والعديد من الكورسات من ضمنها كورسات اللغة الإنجليزية برغم سنها الصغير.

أحبتها كثيرًا وحصت معها على حياة جميلة للغاية، ولكن تلك الحياة شارفت على الانتهاء عندما مرضت السيدة بدون إنذار، بكت كثيرًا تتوسلها ألا تتركها وحيدة فتبتسم السيدة مطمئنة إياها ولكن الأمور لم تصبح بخير فقد فارقت السيدة الطيبة الحياة تاركة أهم إرث إلى شيماء وهي على فراش الموت؛ سلمتها صورة قديمة للغاية لرجل ما كانت بحوزتها عند دخولها دار الأيتام وقد استطاعت السيدة الحصول عليها باستغلال نفوذها، وهمست لها أن عائلتها في إسكندرية أيضًا وأعطتها عنوان تعتقد أنه ربما يكون بداية جيدة لها وقد أنفقت الكثير والكثير من الأموال للتوصل إلى هذا العنوان.

بعد وفاة السيدة أصبحت وحيدة كجزع نخلة خاويًا فاستغل ابن أخت السيدة وحدتها وطردها من المنزل مستوليًا على كل الميراث وكل ما قد ابتاعته السيدة لها..

فقررت شيماء أن تبحث عن أسرتها الحقيقية وباستخدام الأموال القليلة التي خبأتها جيدًا معها خرجت إلى الحياة القاسية بعدما حمتها أمها بالتبني من كل شيء بالخارج لكن الأمور لم تسير على ما يرام فقد تعرضت لحادث سير مما أسفر عن بقائها في المشفى عدة أيام بدون أن تتذكر أي شيء عن نفسها إلا اسمها الموجود في البطاقة أما العنوان فلم يكن صحيحًا فعندما تواصلوا

مع صاحب العنوان أنكر معرفته بها لذا لم يبقى إلا العنوان في تلك الورقة بحوزتها.

كان المشفى متواضعًا فلم تتوفر لها العناية اللازمة لكنهم اشفقوا عليها كفاية ليمنحوها فراش برغم أنها فقدت كل ما تملك من مال قبل نقلها إلى المشفى، وعطف عليها الطبيب النفسي في المشفى أمام دموعها اليومية وانهيارها بسبب عدم تذكرها لأي شيء بالإضافة إلى الكوابيس التي أرهقتها في كل ليلة فتابع حالتها.

-هل يمكن أن يكون العنوان في الورقة عنوانك؟

نظرت إلى الورقة في حيرة وارتباك وتمتمت:-

- أنا لا أعرف.

تأمل حزنها وقلقها بشفقة ثم قال:-

- لا تقلقي سوف تتذكرين قريبًا.

أومأت بدون أن تبعد عيناها عن تلك الورقة ومع كل جلسة وأسئلة الطبيب المتعلقة بذلك العنوان آمنت أن هذا العنوان يخص بيتها، وبمساعدة الطبيب عرفت القليل عن ذلك العنوان فيبدو أنها لم تعيش هناك منذ فترة طويلة وقد اقترح إنها ربما كانت مسافرة بالإضافة إلى أنها كانت تعيش وحيدة وقد توفيت عائلتها، لم تقتنع كثيرًا بفكرة سفرها لكنها كانت فكرة منطقية خاصة

أن ثيابها لا تتناسب مع ظروف البيت الذي ذكرها الطبيب، وبالتالي فقد خرجت من المشفى لا تعرف عن حياتها إلا ما تم إجبار ذاكرتها على تذكره.

في الليالي الأولى في المنزل كانت تشعر بشيء غريب في كل مرة يلامس جسدها الفراش الصغير وكأن هناك شيئًا يجب عليها أن تفعله بدون أن تتذكر ذلك حقًا، وما زاد الطين بلة هو تلك الكوابيس التي عادت تهاجمها في شراسة عن تلك الغرفة الصغيرة حيث امرأة تُغتصب وطفلة صغيرة تراقب في خوف.

كانت الملابس في الخزانة قديمة فخمنت إنها لأمها لكنها لم تفهم لماذا لا يوجد ملابس لها هنا، وبالمال الذي منحها الطبيب إياه في عطف اشترت ثوبين جديدين وبعض المشتريات للثلاجة، وتأكدت من دفع المياه والكهرباء.

أما الجيران فقد كان هناك شيئًا غريبا حولهم يتجنبوها وكأنها وباء معدي وفي نفس الوقت يراقبوها بحذر لكنها رجحت أن يكون السبب غيابها الطويل لكنهم حقًا كانوا يتجاهلوها حتى عندما حاولت أن تسأل عن عائلتها.

كان الفراغ يزداد مع مرور الأيام فقررت أن تتغلب على هذا الفراغ بالذهاب إلى الجامعة مرة أخرى لتضييع الوقت بالإضافة إلى شغلها المسائي في متجر قريب من المنزل للحصول على المال.

استمرت في الدراسة لمدة عام ومع نهايته كان مراد قد أصبح صديقًا لها لكن الكوابيس أيضًا كانت تزداد مما جعلها في حالة دائمة من الإرهاق بسبب قلة النوم.

...قبل الذهاب إلى الجامعة بدأت في تنظيف المنزل تفكر في حالتها المادية المتدهورة فما تجنيه من المتجر غير كافي لدفع مصروفات الكلية، بينما تشغلها الأفكار سقطت تلك الصورة المجعدة والتي كانت قد نسيت أمرها تمامًا، نظرت إليها في تفحص ولأول مرة منذ أن حصلت عليها من والدتها بالتبني بدا الرجل مألوفًا للغاية، تأملت ملامحه مجددًا حتى تتوصل إلى هويته ثم سقطت أرضًا فجأة.

بعد فترة من الوقت نهضت تأن بألم وبدون أن تنظر إلى الصورة التقطت هاتفها الذي كان يرن في صخب وقد كان مرادًا يسألها لماذا لم تأتي إلى الآن أجابت في حزن:-

-لن أستطع أن آتي إلى الكلية بعد الآن.

-لكن لماذا؟

-لقد منعني شقيقي بسبب مصاريف دراستي.

تساءل في اهتمام:-

-هل هناك ما أستطيع فعله من أجلكِ؟

قالت في تفكير:-

-فقط إذا استطعت أن تجد لي عملا براتب أكبر سوف أكون مدينة لك دائمًا.

-اعتبريه قد حدث.

شكرته وأنهت المحادثة..أيام وشهور تعيش تلك الحياة التي نسجها علقها مع شقيقها الغير موجود، وفي أحد الليالي رأت الكابوس مرة أخرى ولكن تلك المرة لم يكن هناك أي طفلة صغيرة أو امرأة غريبة بل كانت هي بطلة ذلك الكابوس، ولذلك لم يكن هناك أي أدلة تثبت اغتصاب خالد الحداد لها؛ لأن هذا لم يحدث أبدًا.

***

انتهى وائل من إخبارها بما حدث حقًا بناءًا على نتائج بحث عدي وتسجيل جلسة التنويم الإيحائي الثانية، وأضاف:-

-لقد شككت في فكرة فقدان الذاكرة عندما أخبرني عدي بأنهيارك من قبل وحديثك عن الأصوات الصاخبة في عقلك.

راقب عدي رد فعلها في قلق ولكنها لم تنهار بل ظلت هادئة بشكل مخيف ثم همست:-

-أمي!

شردت قليلا ثم ابتسمت بدون وعي وهمست:-

- كانت جميلة للغاية، كانت تمتلك أجمل ابتسامة في الكون.

صمتت قليل والذكريات تهاجمها من كل صوب ثم قالت:-

-نور كانت عكسي تمامًا، اجتماعية ولطيفة للغاية فأحببت صحبتها كثيرًا، كانت صديقتي الوحيدة.

أردفت بأعين متسعة:-

-لم يكن خيال بل كان حقيقة، لقد اغتصبوا نور لكن ذلك الطبيب قال...

أراد عدي أن يقترب منها ولكن وائل منعه تاركًا لها فرصة التعبير عن تلك الذكريات التي سُجنت طويلا، ظلت لساعات تتحدث عن الماضي وكأنها تهمس به إلى نفسها حتى انتبهت أخيرًا إلى وجودهما.

نظرت إلى وجه عدي في عمق وكأنها تراه لأول مرة ثم انهمرت دموعها ببطء وحركت رأسها في عدم تصديق، ارتفع صوت نحيبها، كانت تبكي بحرقة من أجل أمها وصديقتها نور، من أجل المرأة التي اعتنت بها لأعوام، بكت من أجل الجميع، بكت من أجل نفسها التي تدمرت من أجل لا شيء.

لم يعد يحتمل عدي دموعها فاندفع يضمها إليه لتغرس وجهها في صدره وتتابع نحيبها، ربت فوق رأسها في تفهم فقد كان الأمر شديد الصعوبة عليه ولا بد أن وقع الأمور عليها كان أشد حدة فكأن حياتها قد انفجرت فجأة أمامها.

العديد من الحقائق ظهرت أمامها ولم تكن مستعدة لذلك أبدًا فقد كان الأمر يفوق حادثة اغتصابها المدعوة. لقد فقدت كل من اهتمت لأمره يومًا بأسوأ الطرق الممكنة بدون أن تملك الوقت حتى للبكاء من أجلهم.

ربت فوق رأسها هامسًا:-

-لا بأس، أنا هنا من أجلكِ..لا بأس.

انتهت أخيرًا من البكاء ولم يتبقى إلا نشيجًا خافت ليساعدها عدي على المغادرة وقد تشبثت به كطفلة في السابعة، شكر وائل ثم قال:-

-سوف أهاتفك لتحديد موعد الجلسة القادمة.

-بالطبع، لكن تذكر أن التنويم الإيحائي وما أخبرناه لها ليس كافيًا فسوف تستعيد المزيد من الذكريات في الأيام القادمة ويجب أن تساندها في تلك المرحلة.

همست بنبرة باكية قبل المغادرة:-

-ما الذي حدث تلك الليلة بعد مغادرتي؟

أعترض عدي بقلق:-

-نتحدث عن هذا لاحقا يا شيماء.

هزت رأسها في رفض وانهمرت دموعها بينما تنظر إليه في توسل تتابع:-

-أريد أن أعرف.

تنهد وقال:-

-لقد كان الباب مفتوحًا فدخل أحد الجيران ليجدوا خالك ميتًا فوق الأريكة بسبب جرعة زائدة ثم والدتك فبلغوا الشرطة وأخبروهم أيضًا عن اختفائك وعن ذلك الشخص الثري الذي زار الحارة قبل الوفاة بيوم، وكل ما عرفوه بعد ذلك أنه تم إنهاء القضية بدون أي تحقيق وتم دفن كلا من والدتك وخالك سريعًا.

ارتجف فمها وهمست:-

-لقد أضاعوا حقها..ربما يمكنها أن ترتاح الآن في قبرها.

شدد من احتضانه لها وأومأ ثم اصطحبها إلى الخارج خوفًا من تدهور حالتها أكثر.

ابتسم وائل في فخر ما أن غادرا، وقد اسعده اكتشاف الحقيقة أخيرًا، ولم يستطع منع نفسه من تأمل ملف شيماء في إعجاب فقد كانت حالة شديدة التعقيد فلم يتم خداعها بالاقتراح من طبيب نفسي مرة واحدة بل مرتين كما أن اضطراب ما بعد الصدمة المتأخر أدى إلى انفتاح ذهنها أكثر إلى التخيلات وهكذا عاشت في دوامة من الذكريات الكاذبة.

الفصل الأخير

-الكلام في الكتاب وليس على وجهي.

قال قاسم بدون أن يبعد عيناه عن الكتاب بين يديه، لتتذمر سارة قائلة في غيظ:-

-وكيف عرفت إني أنظر إليك؟!

ترك الكتاب ثم نظر إليها متمعنًا وقال بنبرة ماكرة:-

-ألم تكوني تنظرين إلّي؟

نظرت إليه في حب وقالت بنبرة عابثة مرحة:-

-ماذا أفعل إذا كان خطيبي بمثل هذه الوسامة؟!

ابتسم في مرح ثم قال في صرامة مصطنعة:-

-ذاكري جيدًا وإلا فإننا لن نتزوج قريبًا.

هتفت سريعًا:-

-سوف أصبح من الأوائل أيضًا لا تقلق، أنا لن أسمح بتأجيل زفافنا مرة أخرى يكفي خطوبة لثلاثة أعوام.

ضحك عليها ثم تأملها في صمت بينما تذاكر، لا يستطيع تصديق إنه استطاع أن يجعلها توافق عليه، وقد كانت كلماته لها إنها تجربة وإذا لم تشعر بالراحة

معه يمكنها تركه وكم لعن نفسه على تلك الكلمات التي جعلته يعيش في توتر لشهور خوفًا من أن تتركه، ولكنها كانت تزداد قربًا وتملكًا، وعندما عرض عليها تحديد موعد الزفاف لم تعترض مما أسعده للغاية، ولكن والدتها رفضت التسرع وقد خمن أن السبب هو خوفها من أن يكون كوالد سارة، ولذلك فقد رضخ لرغباتها وانتهى الأمر بربط نجاح سارة في آخر عام لها بزواجهما مما جعله يتحمل مسؤولية مذاكرتها حتى تنجح في الامتحانات.

رمقته في حيرة عندما طال شروده ليبتسم ويحرك رأسه ثم يتابع قراءة الكتاب في صمت لتبتسم هي الأخرى وكأن ابتسامته معدية لها، لقد اقتحم حياتها فجأة ليلطخها بالألوان جاعلا إياها تشعر بسعادة تؤمن إنه لم يسبقها أحد إليها، تنهدت في رضا من تلك الفرحة في حياتها وتابعت مذاكرتها..

***

-أريد أن أحمله أيضًا؟

صاحت أميرة في تذمرٍ عندما ألتقط أدهم الطفل منها، ليبتسم قائلا بمكر:-

-لقد أخبرتكِ تزوجيني سريعًا، وسوف أحرص على أن تحصلي على العديد من الأطفال.

توردت وجنتاها ورمقته في غيظٍ شديد ثم غادرت إلى حيث تجلس شيماء مع مريم والجدة، جلست بجوارهما لتتساءل شيماء في قلق:-

-أين عاصم؟

قالت في غيظ:-

-مع أدهم.

ابتسمت شيماء لتقول الجدة في حب:-

-لا أستطيع تصديق إني أخيرًا قد رأيت ابن عدي.

ابتسمت مريم وتأملت ابنها الذي اتجه ليقف مع أدهم يتباهى بطفله الصغير خاصة إنه قد جاء بعد عام كامل من الانتظار حتى كاد الجميع يفقد الأمل، ولكن ها هي معجزة أخرى تجعل عدي سعيدًا أكثر من أي وقتٍ مضى.

تنهدت مريم تتذكر عندما رفض أن يعود إلى القصر مرة أخرى مقررًا أن يستمر في حياته في تلك الشقة وعمله كمحامي، وقد رفض أيضًا عندما عرضت عليه أن يفتح مكتبًا خاصًا به.

كانت إجابة عدي الدائمة إنه يريد التعلم أكثر من أستاذه حتى يكون مؤهلا لإنشاء مكتبه الخاصة ومساعدة الناس أكثر، شعرت بالفخر لرؤية الجانب المسؤول الناضج من ابنها، نظرت إلى أميرة التي ترمق أدهم في غيظٍ طفولي واتسعت ابتسامتها فلم تكن لتصدق أبدًا أن ابنتها الصغيرة سوف يتم خطبتها على أدهم، الابن الذي لم تلده، وقد واجه نفسه بحقيقة مشاعره تجاهها ولم تملك مريم إلا أن تبارك تلك المشاعر.

أما هي فاستمرت في العيش في القصر مع الجدة التي رفضت التخلي عنها بعد الطلاق وما سهل موافقتها على البقاء مغادرة سيف وقد أخذ نصيبه من

الثروة وما يوازي نصيبه من القصر ثم سافر تاركًا كل شيء لعل الصعوبة الوحيدة التي تواجهها هي البقاء تحت سقف واحد مع محمد..

بينما هي شاردة في أحداث ذلك العام الطويل تلاقت عيناها بعينيه وقد كان يتأملها فالتفتت في خجل بدون أن تلاحظ نظرات أدهم وعدي وقد نظرا إلى بعضهما وانفجرا ضاحكين، قال أدهم في مرح:-

-يبدو أننا سوف نصبح حقًا أخوين قريبًا.

قال عدي في تباهي:-

-يجب على والدك أن يطلب يدها مني أولا فأنا ولي أمرها.

ضحك أدهم بينما يداعب عاصم في حب.

ارتفع صوت شيماء قائلا:-

-لماذا تأخرت هكذا؟

قال مراد في تذمر:-

-اسألي صديقتكِ التي قضت ستة ساعات تحاول اختيار الثوب المناسب.

ضحكت شيماء عندما رمقته شهد في ضيق واقتربت تحتضنها في حب ثم جلست بجوارها بينما اتجه مراد إلى عدي.

تساءلت الجدة:-

-ألن تأتي ناهد وسارة؟

ابتسمت مريم قائلة:-

-ناهد لن تستطيع السفر من لندن حاليًا أما سارة فقد ذهبت لتراجع مع قاسم قبل امتحانها وسوف تأتي بعد الانتهاء من الاختبار.

أومأت الجدة وابتسمت فقد كانت سعيدة بأن ناهد وبناتها تغلبن سريعًا عما حدث لخالد برغم أن الصحافة لم ترحمهن بكلماتها اللاذعة عن خالد وكذلك منشورات وسائل التواصل الاجتماعي لكن ما ساعدهن دخول مراد وقاسم حياتهما فها هي شهد قد تزوجت وسارة على وشك الزواج بعد امتحاناتها وقد ساندها قاسم جيدًا خلال تلك الفترة وأجبرها على العودة إلى الكلية ومواجهة نظرات الجميع ممن عرفوا حقيقة والدها. تنهدت في صمت فبرغم إنها لم تتغلب بعد على صدمتها في ابنها ولكنها كانت راضية وسعيدة لسعادة أحفادها.

تنهدت شيماء في رضا من شدة السعادة فكل شيء يبدو فقط مثاليًا، الجميع من حولها يشاركونها تلك اللحظات الثمينة، تعلقت نظراتها بعدي الذي يحمل عاصم ويتحدث في انتباه مع مراد وأدهم، لقد كان هذا كله بسببه فإصراره على اقتحام حياتها مهما رفضته جعلها بتلك السعادة الآن، وهي من ظنت إنها أتعس الناس على وجه الأرض وأن السعادة لم تُجد لأمثالها، ولكن ها هي سعيدة أكثر من أي وقتٍ مضى، والظلام الطويل الذي ظنته سوف يدوم للأبد قد انتهى كاشفًا عن نورٍ ساطعٍ دافئ.

لقد مروا معًا بأوقات عصيبة خلال جلساتها مع دكتور وائل التي تلت معرفتها بحقيقة ما حدث فقد كانت تتذكر المزيد من التفاصيل فتصرخ في نومها وتنتابها نوبات بكاء عنيفة..برقت عيناها بحب لقد كان عدي متفهمًا للغاية لهذه الفترة وكم شعرت بالقوة والفخر وهو بجوارها مسافرين إلى هذا الميتم حيث قدمت بلاغ ضدهم وكشفت قذاراتهم وبعد اعتراف مديرة الميتم تم القبض على الطبيب أيضًا لتزويره شهادات الوفاة للفتيات اليتيمات..

لقد شعرت بالراحة بينما تشهد جر مديرة الميتم والتي لم تنسى ملامحها إلى سيارة الشرطة شعرت وكأن نور بجوارها شاعره بالراحة والأمان هي الأخرى.. حتى إنه ساعدها لتستعيد اسمها الحقيقي واسم والدها "شيماء فتحي إبراهيم".

رغمًا عنها تذكرت تلك الرغبة المجنونة التي انتابتها للبحث عن والد أمها وقد تضخمت تلك الرغبة عندما علمت حملها وكان عدي رائعًا متفهمًا فبحث عنه من أجلها.

برقت عيناها بكراهية عندما تذكرت لقائها بهذا الرجل وكلماته مازالت في أذنها " كان الأمر ليكون فضيحة، لقد تورط خالك مع بعض الرجال الفاسدين فدفعوه إلى الإدمان، إذا عُرفت ظروف موته سوف تكون كارثة لذلك كان يجب أن أخفي كل شيء"

-ماذا عن ابنتك، وحقها؟

-لقد أحببت ابنتي لكنها اختارت طريقها ولو عرفت الفاعل لجعلته يدفع الثمن لكن الأولوية لسمعة العائلة واسمها.

تذكرت لمسة عدي فوق كفها يحثها على الذهاب لكنها أرادت أن تسمع شيء آخر فتساءلت:-

-ألم تفكر في البحث عن حفيدتك؟

لم يحتاج للرد فقد كانت الإجابة واضحة في عينيه فالبحث عنها سوف يزيد من مشاكله فلم يكن باستطاعته أن يسكت طفلة صغيرة عما رأته وكان هذا ليضر باسم العائلة القذر لذلك لم تجد أن هناك داع لتخبره بحقيقة ما حدث في تلك الليلة فلن يغير الأمر شيء كما أن خالد الحداد قد أخذ عقابه أخيرًا..في تلك اللحظة بينما تقف في مواجهة جدها أدركت مدى قوة والدتها وحسن بصيرتها لتترك كل تلك القذارة وتبدأ حياة نقية مع والدها بعيدًا عن المال والطموع واسم العائلة.

تناست الأمر وابتسمت مطمأنه عدي عندما لاحظت نظراته القلقة فيبدو أن رحلة الذكريات قد تركت أثرًا على ملامحها، تنهدت وشعرت بقلبها يخفق حبًا لهذا الرجل الرائع الذي منحها القدر إياه مكافأة صبرها وبلائها ثم نظرت من حولها وبالإضافة إليه حصلت على عائلة كبيرة أيضًا.

ابتهجت ملامح عدي عندما فتح الباب ورحب بوائل بشدة سامحًا له بالدخول، كان وائل أكثر من سعيد بالمجيء إلى منزل عدي لتهنئته بمولوده وقد انتابه شعورًا بأنه يشهد نهاية سعيدة لقصة عاصرها خاصة أن رؤية شيماء وقد

أصبحت على حالتها الطبيعية بعد العديد من الجلسات تسعده كثيرًا وقد شعر بالامتنان لها بسبب موافقتها على أن يستخدم ملف حالتها كتطبيق لأبحاثه عن الذاكرة الكاذبة وقد بدأ الموضوع في تحقيق تأثير عالمي وحفر اسم مصر بين بلاد العالم في مجال الذاكرة والبحث العلمي.

ابتسم عندما اتجهت إليه بلطف ترحب به قائلة:-

-شكرا لحضورك يا دكتور.

-مبارك يا مدام شيماء، عسى أن يكون طفلكما سعيدًا دائمًا.

ابتسمت وشكرته ثم استأذنت وتركته مع عدي الذي سرعان ما عرفه على مراد بينما أدهم فقد كان منشغلا مع أميرة يحاول استمالتها حتى توافق على تعجيل زواجهما.

بعد دقائق كان هشام يدلف ليرحب به عدي فقد كان مساندًا له لسجن خالد الحداد مما وطد علاقتهما كثيرًا، وقف معه قليلا ثم انشغل بالمدعوين ليبقى كلا من هشام ووائل وحيدين وقد وجدا الكثير من الموضوعات المشتركة للتحدث عنها حتى تطرق الحديث إلى حالة شيماء السابقة والتي حتى الآن لا يصدقها برغم أن عدي قد أخبره بنفسه، واتضح ذلك في قوله:-

-أنا لا أصدق حقًا حتى الآن أن كل هذا كان خداع عقلي فقط تشابكت فيه ذكرياتها مع الماضي الذي شهدته..

أجاب وائل في عملية:-

-لقد ساهم الطبيب النفسي بالميتم بتقديم الاقتراحات في جعل عقلها متفتحًا لأي اقتراح آخر، وعندما رأت صورة خالد في نفس مكان الحادث ربط عقلها بين الصور التي تراها والذكريات المنسية الموجودة في باطن ذاكرتها وصنع تلك القصة كمجموعة من الذكريات الكاذبة المترابطة.

تنهد ثم أردف:-

-إن العقل ليس بالمثالية التي نظنها خاصة إنه في حالة شيماء نسيانها للماضي جعلها تتقبل الذكريات الكاذبة أكثر من أي شخص آخر.

أومأ هشام في موافقة ثم تساءل في حيرة:-

-ولكن لماذا صنعت شخصية خيالية كشقيقها في حياتها لتزيد من معاناتها؟!

قال وائل في هدوء:-

-لم تكن خيالية تمامًا فقد كانت من وحي شخصية خالها التي شهدت طباعه في صغرها، ونتيجة لصدمة الكوابيس التي تعرضت لها عند العودة إلى منزل طفولتها والذكريات المؤلمة بها بدأت تصيبها الهلاوس البصرية متمثلة في صورة الأخ الظالم الذي يؤذيها تمامًا.

فغر فاهه في انبهار واضح ثم تأمل عدي الذي يحيط شيماء بذراعه في سعادة بينما تحمل هي طفلهما وابتسم هامسًا:-

-سوف تظل أغرب قضية قد مرت علي في تاريخ عملي قط.

النـهايـة

تمت بحمد الله

<u>الذاكرة الكاذبة</u>

<u>False Memory</u>

ليس معنى أن شخصًا أخبرك بكل التفاصيل الممكنة عن موقف ما أن هذا الموقف قد حدث بالفعل فالذاكرة ليست بالمثالية التي نتوقعها فقد يصيبها حالة من التشوه حيث تكون متأكدًا من حدوث شيء ما برغم استحالته، وذلك التشوه يُعرف باسم "الذاكرة الكاذبة" حيث يبتكر عقلك ذكرى لم تحدث ويبدأ في نسج أحداث مرتبطة بها.

"بدلا من أن ننظر الى الذاكرة على إنها جهاز تسجيل أو قرص فيديو رقمي، يمكننا أن نقدم لها وصفًا أنسب وهو إنها وسط دائم التغير يبرز قدرتنا المميزة على خلق روايات طيعة لتجاربنا الماضية والحاضرة.

الرأي القائل إن ذاكرة الإنسان معيبة وغير موثوق بها في بعض الأحيان ليس حديثًا، فقبل أن يطل علينا القرن العشرون صرح عالم النفس الأمريكي العظيم ويليام جيمس، وهو أحد معاصري فرويد، بهذا القول (1890):
الذكريات الزائفة ليست على الإطلاق شيئًا نادر الحدوث لكثير منا... فالشك يخالج الكثيرين غالبًا بشأن أمور معينة تعود إلى ماضيهم. ربما يكونون قد رأوها، أو قالوها، أو فعلوها، أو ربما حلموا بها أو تخيلوا إنهم فعلوها."
-من كتاب "أشهر 50 خرافة في علم النفس"

دكتور روبرت ناش(Robert Nash) محاضر في جامعة أستون (Aston) تحدث في إحدى المرات عن شعوره بالفخر إنه في أثناء حضوره لحفل تخرج أخته استطاع أن يلتقي بالصحفي البريطاني الشهير تريفور ماكدونالد.

بعد مرور أعوام على هذا الموقف أكتشف "روبرت" مصادفة إن "تريفور ماكدونالد" لم يكن مدعوًا إلى هذا الحفل فأصاب بصدمة بالغة دفعته إلى التفكير والتشكيك في ذاكرته ليكتشف في النهاية إنه –هو نفسه- لم يستطع حضور حفل تخرج أخته، وإن الذكرى التي تحدث عنها كثيرًا لم تحدث أبدًا.[1]

***

"ستيف تايتس" شاب يبلغ من العمر 31 سنه، كان يعمل مديرا لمطعم في واشنطن وكان على وشك أن يتزوج من حب حياته أي إن حياته تكاد تكون مثالية، وفي ليلة مظلمة كان عائدا من عشاء عاطفي مع خطيبته لتعترض الشرطة طريقه وتوقف سيارته؛ لأن سيارة تايتس كانت تشبه سيارة رجل اتهم بإغتصاب فتاة على الطريق وكان تايتس للأسف يشبه هذا الرجل إلى حد كبير.

التقطت الشرطة صورة له وضموها مع مجموعة من الصور الأخرى ثم عرضوها على الضحية والتي أشارت على صورة تايتس وقالت:-

-هذا هو الأقرب.

تم إتهام تايتس من قبل الشرطة والادعاء وفي المحكمة وقفت الضحية لتشهد وقالت في ثقة:-

-أنا على يقين إن هذا هو الجاني.

برغم إنكار تايتس وتصميمه على برائته إلا إنه قد سُجن وفقد ثقته في العدالة والقانون ولكنه استطاع أن يتواصل مع صحيفة محلية وجذب انتباه صحفي بقصته واستطاع ذلك الصحفي أن يتوصل إلى المجرم الحقيقي والذي بعد التحقيقات والاستجواب اعترف بجريمته وخرج تايتس أخيرا من السجن.

كان من المفترض أن تصبح تلك النهاية السعيدة في قصة تايتس، ولكنه خسر خطيبته وأمواله وعمله ولم يكن هناك أي سبيل لاسترجاع أيا منهما فقرر أن ينتقم وبالفعل رفع قضية ضد كل شخص ظلمه وقبل أيام من جلسة المحكمة وبسبب الضغط النفسي الذي تعرض له مات تايتس بسبب أزمة قلبية وقد كان يبلغ من العمر فقط 35 سنه.

لم يفكر أحد كيف تغيرت إجابة الضحية من الشك عند عرض الصور عليها إلى اليقين عند شهادتها في المحكمة.(2)

***

في عام 1988م الصحفية "ميرديث ماران" كانت تتعرض للعلاج النفسي، وكان هدف معالجها النفسي أن يساعدها على التوصل إلى الذكريات المكبوتة داخل عقلها، وكانت الصدمة هائلة عندما اكتشفت ميرديث إن والدها أساء معاملتها جنسيا في طفولتها.

واجهت ميرديث والدها أمام العائلة ولكنه بالطبع أنكر الأمر وانقسمت العائلة إلى جزء يساند ميرديث ويصدقها وجزء يصدق الأب.

في عام 1996م اكتشفت ميرديث حقيقة صادمة أكثر من الحقيقة الأولى فوالدها لم يسيء معاملتها جنسيا أبدا فقد كانت مجرد ذكرى كاذبة اخترعها عقلها نتيجة اقتراح أو سؤال من المعالج النفسي الخاص بها.

حاولت ميرديث أن تطلب السماح من والدها بكل الطرق الممكنة ولكن لقد كان الوقت متاخرا فقد توفى والدها ولم يعد بإمكان العائلة أن تعود إلى ما كانت عليه.(3)

***

(1) تم ذكر القصة على لسان دكتور "روبرت ناش" نفسه في إحدى محاضراته على منصة TED

(2) تم عرض تلك القصة بواسطة د/ إليزابيث لوفتس وهي من الخبراء في موضوع الذاكرة الكاذبة والذاكرة البشرية بشكل عام، ولها العديد من الأبحاث المتعلقة بالموضوع.

(3)تم ذكر القصة بواسطة "مارك مانسون" في كتابه "فن اللامبالاة"